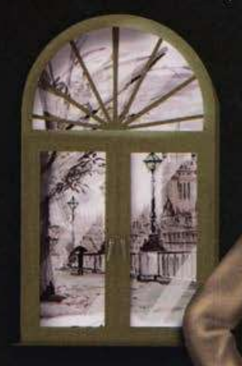
رواية

أنطون تشيخوف

دراما في الصيد

حادثة حقيقية
من مذكرات محقِّق قضائي



ترجمة
د. فالح الحمراني

دار الرافدين

دراما في الصَّيد

حادثة حقيقية

من مذكرات محقِق قضائي

mohamed khatab



5 5 2023



بغداد ــ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 44 - 1

أنطون تشيخوف

دراما في الصَّيد

حادثة حقيقية

من مذكرات محقِّق قضائي

ترجمة:

د. فالح الحمراني



www.daralrafidain.com

المقدمة

تشيخوف وروايته دراما في الصيد

يشغل أنطون بافلوفيش تشيخوف من دون منازعٍ مكانةً مميزةً وسط كوكبة أدباء روسيا الكبار، وأبدع قلمُهُ روائع الأعمال القصصية والمسرحية، التي تجلَّت من خلالها معرفته العميقة بمفردات واقع الحياة الروسية، بمختلف شرائحها الاجتماعية، وعاينَ النفسَ البشريةَ في أبعادها وتقلُّباتها. ومن المستحيل تقديم أدب تشيخوف في توصيفٍ مُوجَزٍ، لأنه عميقٌ متعددُ الجوانب، يصدم بعُمْقِه الذهنيّ. والسيرة الذاتية لتشيخوف ـ بحَدّ ذاتِها ـ ممتعةٌ وغير عاديةٍ، ومن الضروريّ المرور بها سريعاً لارتباطها بتطوره الإبداعي. وكتب تشيخوف أكثر من أربعمئة قصة قصيرة وسبعين قصة متوسطة وعدداً كبيراً من الدوفيديل، علاوةً على المسرحيات القصيرة والطويلة التي تُرْجِمَتْ إلى غالبية اللغات الحيّة.

ولِدَ أنطون بافلوفيتش تشيخوف، (1860 ـ 1940)، في مدينة «تاغانروغ» التي تقع عند الركن الشمالي الشرقي من بحر آزوف،

وهو الابن الثالث في عائلة تاجر صغير، وحصل على تربية دينية وَرِعَة وتقليدية، انتقل والده والعائلة إلى موسكو بعد إفلاس متجر والده. برز اهتمام تشيخوف بالأدب في سِنٍّ مبكرةٍ، ونَمَتْ لديه الرغبة في أن يُصبح كاتباً، فضلاً عن أنه وجَدَ في ذاته الهوى للموسيقى، فانضم لجوقة التراتيل الدينية في الكنيسة. إن قسوة المعلم الذي أرغم التلاميذ على حفظ كل نَصٍّ جديدٍ عن ظهر قلب، ومعاقبته الأطفال بقسوة أرغمت الصبيّ تشيخوف على تَرْك الدراسة في المدرسة اليونانية، التي أمضى فيها سنتين. مكث أنطون بمفرده لإتمام دراسته الثانوية ومن ثم رحل إلى موسكو حيث التحق بجامعة موسكو في كلية الطب ودعم عائلته بنشره حكايات هزلية في الصحف والمجلات.

وخلال عمله طبيباً في تلك الضواحي، واصل الأديب الشاب، إبداعاته فقد كتب في هذه المرحلة العديد من قِصَصِه المميزة. وبعد عدة سنوات من العمل المتفاني شَغَلَ تشيخوف منصب مدير مستشفى. وقد انعكست مهنة الطب، ووَلَعُهُ بعلم النفس الذي كان ما يزال علماً ناشئاً، بشكلٍ عميقٍ على أدبه، شكلاً ومضموناً. وفي عام 1890 نشر أول قصصه المميزة، وكانت قصة «السهب» أهمّها.

وشكَّلَتْ رحلة تشيخوف إلى جزيرة سَخالين في الشرق الأقصى عام 1890 مرحلة انعطافٍ في توجهاته الفكرية ومزاجه الإبداعي، فجزيرة سَخالين كانت حينها إحدى مناطق النَّفْي المروّعة،

وجمع هناك مواداً إحصائيةً ضخمةً عن المساجين بالأعمال الشاقة والمنفيين. وبالتالي نشَرَها في كتاب «جزيرة سَخالين» 1895، كوثيقة تاريخية موضوعية، الكتاب الذي أحدث صدمةً اجتماعيةً، وحفَّزَ السلطات لفتح ملفات التحقيق في حقائق الوضع السائد هناك والقيام بالإصلاحات المنشودة. وسيذكر ألكسندر سولجينيتسين في عمَلِهِ الضخم «أرخبيل غولاغ» هذا الكتاب على سبيل المقارنة. وقد أثارت الرحلة في جهنم السجون والمنافي الروسية اهتمام تشيخوف في القضايا الاجتماعية. وبعد فترةٍ من عودته من رحلته اشترى ضيعَةً في منطقة ميليخوف في ضواحي موسكو، حيث سنحت له الفرصة لمراقبة حياة الفلاحين، وانهَمَكَ عام 1891 في مقاومة المجاعة التي اجتاحت روسيا، وشارك في مكافحة الكوليرا، وبَنَى في المنطقة المدراس للأطفال، وكتب العديد من قصصه الناضجة، حيث نرى صورة موضوعية في قصته «الفلاحون» و«البيت الريفي الجديد» و«في الوادي» و«الراهب الأسود» وهنا يكتب تشيخوف أولى مسرحياته «البجعة»، التي تبِعَتْها «الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث» و«مزرعة الكرز». وفي عام 1901 يتزوَّج من الممثلة أولغا كيبير التي أدَّت الأدوار الرئيسية في تلك المسرحيات. وانتقل في 1889 إلى شِبْه جزيرة القرم بناءً على نصيحة الأطباء.

وحتى منتصف تسعينيّات القرن التاسع عشر غدى تشيخوف

كاتباً فذّاً ومشهوراً، وقد نال إعجاب ليف تولستوي ومكسيم غوركي ودوائر النقّاد ونُخَب الفنانين. وحظيَ بشهرةٍ واسعةٍ وسط الشباب، وتمت ترجمة أعماله إلى اللغات الأجنبية. ولم يُمْهِلْ المرض الذي عانى منه لسنواتٍ عديدة أنطون تشيخوف، وتوفيَ في ليلة 21 يوليو عام 1904 في «بادنفايلر» الألمانية، ودُفِنَ في مقبرة المشاهير «نوفوديفيتشي» بموسكو.

دراما في الصيد

«دراما في الصيد» الرواية الوحيدة لتشيخوف، وأقلّ أعماله شهرةً، ولا يتذكّر أحدٌ تقريباً أساسها الأدبي. فالجمهور تعرّف عليها في بادئ الأمر كفيلمٍ سينمائي. بيْدَ أنها تتضمّن جميع سِمات تشيخوف الحقيقي الناضج: نظرة رصينة ـ لا تُخطئ ـ للإنسان، وسيكولوجية قاسية، وبالطبع عبادة الصّحة العقلية، التي لا تتوافق مع الغيرة والابتذال والتعطُّش للامتلاك.

نُشِرَت رواية «دراما في الصيد» لأول مرة في 1884، على شكل رواية مسلسلة (اعتباراً من 4 آب/ أغسطس) ـ (إلى 25 نيسان/ إبريل) من عام 1885 في صحيفة «أخبار اليوم». وهي المرّة الوحيدة التي يكتب فيها تشيخوف قصةً بوليسيةً، وبعد نشْرِها، لم يعد تشيخوف أبداً إلى هذا النَّصّ، ولم يُعَدِّلْهُ ولم يعلّق عليه. ولم يُضَمِّنْهُ في مجموعته القصصية الشفق (1887). وقد يخلق هذا لدى المرء انطباعاً بأن الكاتب رفض هذا العمل باعتباره غير ناجح. بيْدَ أن رواية «دراما في الصيد» ما زالت مثار جدلٍ دارسيٍّ لأدب تشيخوف من قِبَل المعاصرين وموضع اهتمامهم حتى يومنا

هذا، باعتبارها أحد أكثر أعمال تشيخوف غموضاً. ويعزو البعض عدم عودة تشيخوف إلى روايته إلى كون البطل قصَّته وكُنْيَته، صورة لأحد معارفه القضاة الذين تعرَّفَ عليهم في بلدة «إزفنيغورد» (في ضواحي موسكو) حينما خدم طبيباً فيها. وصوِّرَتْ «درما في الصيد» بأسماء مختلفة، سينمائيّاً 7 مرات، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية. وتبايَنَتْ أحكام النقاد والباحثين في تقييم «دراما في الصيد»، وعلى الرغم من نشر القصة في صحيفة ذات مستوى فنّيٍّ منخفضٍ، فقد اعتبَرَها إسماعيلوف عملاً أدبيّاً رفيعاً، فيما يرى سوبوليف أن «دراما في الصيد» هي محاكاة ساخرة للروايات البوليسية المنتشرة في ذلك الوقت، ووفقاً للكاتب والناقد الأدبي الإنجليزي جوليان سيمونز، فإن الرواية ليست فقط مثالاً رائعاً على جنس الرواية البوليسية، ولكنها الرواية الأولى في الأدب العالمي حيث تبيَّنَ أن القاتل هو الراوي، والتي ظهَرَتْ قبل وقتٍ طويلٍ من رواية أجاثا كريستي مقتل روجر أكرويد في عام 1926، أي بعد وقتٍ طويلٍ من نشر تشيخوف لروايته (وكان قد جرى بالفعل نشر ترجمة قصة تشيخوف وكان من الممكن أن تعرف كريستي، كما يلاحظ سيمونز). لقد اكتشف تشيخوف مخططَ المضمون غير المسبوق ونفَّذَهُ ببراعة! كان عملاً مبتكراً.

كان جنس «رواية الصحيفة» الذي كُتِبَتْ فيه «دراما في الصيد» منتشراً على نطاقٍ واسعٍ في روسيا في سبعينيات وثمانينيات القرن

التاسع عشر، وحظيَ بشهرةٍ كبيرةٍ وسط دائرة محدَّدَة من القرّاء. وشغل مكانةً رئيسيةً في الصحف، فيما ازداد عدد الروائيين الذين يكتبون هذا الجنس الروائي رغم انخفاض قيمته الفنية.

والتزم كُتّاب «رواية الصحيفة» بقواعد وتقاليد ثابتة، من بينها الالتزام بنشر الأعمال الروائية من هذا الجنس بأسماء مستعارة، فضلاً عن وجوب أن يتضمَّن العنوان مفردات مثل «دراما» التي لها تأثيرٌ سحريٌّ على الناشر والقرّاء. وظهرت «رواية الصحيفة» نتيجةً للاتساع الحادّ لدائرة القرّاء الذين لم يرتفعوا إلى مستوى هضم واستيعاب الأدب الجادّ، وفي الوقت نفسه استجابت هذه الرواية لأذواق الشرائح الاجتماعية الخاملة والمتواضعة، التي تتوقُ لقراءةٍ يسيرةٍ تمدُّها بالمتعة المؤقتة التي تتيح لها عيشَ حُلْم يقظة ممتداً يبعدهُ عن منغّصات معيشته اليومية. وعلى حدّ تعبير تشيخوف «إن تولستوي وتورغينيف بالنسبة لهذا الجمهور بذخٌ بالغٌ، وأرستقراطيٌّ، وغريبٌ إلى حدٍّ ما وعسيرُ الهضم...».

ومن الصعوبة ترصيف «دراما في الصيد»، كما يذهب العديد من النقّاد إلى أنها محاكاةٌ لجنسٍ أدبيٍّ لم يجرب تشيخوف قدراته فيه، لا سيّما القصة البوليسية، لأن «دراما في الصيد» لم تستعمل «أدوات القصة البوليسية»، في هذه الحالة يمكن الحديث عن تناصّ «دراما في الصيد» للروايات التي عرَفَتْها روسيا في القرن التاسع عشر، وشخوصها الذين جسَّدوا أنماط الشخصية الروسية في تلك الفترة.

لقد كان تشيخوف في عام 1884 أرفع فنياً بكثيرٍ من روائيّ الصحيفة، ولم يُعِر اهتماماً لأدبهم حتى يُحاكي أعمالهم بكتابة عملٍ في 180 صفحة. ومن المحتمل أن يكون تشيخوف قد استهدف أغراضاً فنيةً أخرى حينما كتب «دراما في الصيد» فمنذ الصفحات الأولى يُحيل العمل إلى مؤلفٍ آخر: الراوي، ويُحَمِّلُه بالتالي مسؤولية الطبيعة الصحفية لأسلوب الرواية، مانحاً إيّاه العديد من ملامح كتّاب القصة البوليسية المتمرّسين في الكتابة. والراوي يُخفق في الكتابة بإيجاز، وهو ما تمتّع تشيخوف به في عام 1884. وينتقل باستمرار إلى المحسّنات اللفظية والبلاغية والعبارات النمطية. بيْدَ أن أسلوب «دراما في الصيد» لا ينضب بذلك. فصورة الطبيعة مرسومةٌ بأسلوبٍ آخر. إن تشيخوف تمكَّنَ في عدّة لمسات من تشكيل لوحة دقيقة وموجزة للطبيعة. إن تنوّع مستويات أسلوب «دراما في الصيد»، يشير إلى مهارة تشيخوف الرفيعة، ويخلق أيضاً الصعوبات أمام دارِسيه في تشخيص النوايا الحقيقية لحاجَتِه لكتابة عملٍ غير عاديٍّ بالنسبة له، والأكثر من ذلك في جنس «الرواية الصحفية» الذي يندرج ضمن الأنواع المبتذلة.

لم يكن تشيخوف في نهاية 1884 بحاجةٍ ماسّةٍ للتعاون مع صحيفة «أخبار اليوم» التي صنّفها العديد من أبناء النخبة المثقفة حينها، على أنها من الصحف الصفراء، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاعتقاد بأنه سعى إلى أن يكون محبوبَ جمهورٍ موسكو

بأيّ ثمن، أسوةً بكتّاب الروايات الصحفية. إن تشيخوف على الأرجح وضَعَ عملاً أدبيّاً رصيناً تحت قناع «دراما في الصيد» قصة بوليسية، لتجريب قوّته الإبداعية في عملٍ يتجاوب فيه مع الأدب الروسي الكلاسيكي. وإذا ما جعل تشيخوف الراوي كاميشيف نمطيّاً كما هو الحال في القصص البوليسية، فإنه ـ كاميشيف ـ مع ذلك كبطلٍ رئيسيٍّ لا يُشبه المجرمين العاديين من شخوص قصص الرعب.

تشيخوف ينتهك قواعد «القصة الصحفية» فيخصّص للحالات الرئيسية فيها، أي الجريمة والتحقيق حوالي 40 صفحة فقط. وعلى عكس تقاليد «الرواية الصحفية» التي يكون الهدف الوحيد فيها هو تصوير الجريمة، يحاول تشيخوف إيجادَ الجذور الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية للجريمة. ومن المهم للغاية أنَّ تشيخوف لا يفصل المجرم عن المجتمع الذي خلَقَهُ، المجتمع الذي لا يريد أن يلاحظ جريمة كاميشيف، المرتبط به بصلاتٍ وثيقةٍ.

والإنسان الإيجابي في عالم الرواية هو الإنسان الفاعل، الذي يمثّله كلُّ مَن يُمضي يومَهُ في العمل وإنتاج الحياة، لذلك يتمتع هذا الإنسان، مهما كانت منزلته الاجتماعية، بحَقّ ازدراء «الأسياد» الذين يفرّطون بنتاجِ عمَلِ وكَدْحِ الآخرين. ويُكِنُّ كاميشيف الاحترام الغريزي والعميق للصيّاد ميخي الذي هو شاهدُ عيان على الرواية التي تجري أحداثها أمام عينيه.

إن تشيخوف يُصَوّر في روايته روسيا الريفية في عصره، مضفياً عليها شخوص الروايات الكلاسيكية، وليس الروايات الصحفية. وإذا ما نشعر في كاميشيف ـ حسب تأويل تشيخوف ـ أنه أحد نماذج «الإنسان الزائد عن الحاجة»، الذي ظهر في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فإن خادِمَهُ بوليكارب يذكّرنا بنماذج الخدم في روايات بوشكين «ابنة الآمر»، وغوغول في «النفوس الميّتة».

هناك الكثير من ملامح المحقّق سيرجي كاميشيف، التي تتطابَق مع صورة بيتشورين بطل رواية ميخائيل ليرمونتوف «بطل من هذا الزمان»، ويمكن للمرء أيضاً أن يتلمّس تناغم صورته مع شخصية ألكسيفرونسكي في رواية ليف تولستوي «أنّا كارنينا» و«يفغيني أونيغين» بطل قصة بوشكين بنفس الاسم. لقد ظهر أبطال الأدب الذين يتمتّعون بالسمات الشخصية لكاميشيف في الأدب الروسي، قبل نشر «دراما في الصيد» وما بعدها. إن المحقق كاميشيف هو أكثر من مجرد بطل لرواية «دراما في الصيد»، إنَّهُ ليس تشخيصاً لحالة اجتماعية، بل نمطاً اجتماعياً دائمَ الحضور! إن هذا النمط كما صوَّرَهُ ليرمنتوف وتولستوي ومن ثم تشيخوف: شخصٌ غير حسّاس لمشاعر الآخرين، وأنانيّ لا يقدّر حياة الإنسان في أيّ شيء، وسرعان ما تتحوّل مشاعرُهُ إلى نقيضها، وهو شخصية غير مستقرّة عقليّاً، إنه بالتالي «لا منتمي».

تكون النساء في «الرواية الصحفية» عادةً ضحيّةً للعنف،

والابتزاز أو ارتكاب الجريمة. ولا يتجنّب تشيخوف أيضاً هذا التقليد في تصوير بطلاته، فأولغا تموتُ على يد قاتل، وناديا كالينينا تحاول الانتحار. لكن إذا كان تشيخوف قد اقترب بهذا من مطالب القصة البوليسية، فإنه يبقى بعيداً عن أسلوبها في الكشف عن طبْع بطلاتِه. فالبطلة في «الرواية الصحفية» كقاعدة إمّا أن تكون ذات طبيعة شهوانية أو فاسدة أو عفيفة للغاية، أمّا تشيخوف فيُضْفي على بطلاته أولغا وناديا، طبْعاً حيويّاً، ومعقّداً ولا تتحكم إرادة الكاتب بتصرُّفاتهن، وإنما تنبع من رغباتهن وتطلُّعاتهن الداخلية. ولا يسوقهن القدر الأعمى والشرير إلى نهايتهن المأساوية، بل البشر المنحطّون أخلاقياً، والفارغون روحياً والمعطوبون جسديّاً.

ونرصد تناصَّ شخصيات وأنماط الشخصيات النسائية في «دراما في الصيد» مع شخصيات وأنماط العديد من الروايات الكلاسيكية الروسية، فأولغا وناديا تتّسمان بسمات «تتيانا» بطلة رواية ألكسندر بوشكين الشعرية: يفغيني أونيغين»، وبسمات «زمفيردا» في قصّته الشعرية «الغجر»، و«أنستاسيا أفيليبفنا» في رواية «الأبله» لفيودور دستويفسكي. إن صفات العديد من بطلات الأعمال الكلاسيكية الروسية نجدها في أولغا المتلهّفَة لزواج «المصلحة» من أجل المال، والخلاص من الوضع الذي تعيشُهُ: الفقر والغابة والأب المجنون. وفي رومانسية ناديا، التي تُضْمِر الحب الصامت من طرفٍ واحدٍ، وبقدرتها على المشاعر الصادقة.

وتجمع بطلات تشيخوف ملامح أنواع مختلفة من التقاليد الكلاسيكية، فهنَّ صائدات ثروة، وضحيّة للعلاقات المادية في المجتمع. وهكذا، فإن تشيخوف يعيد خلْقَ أنماط أبطال الروايات الكلاسيكية وخصائصهم. إن التناصّ مع تقاليد أدب القرن التاسع عشر أتاح لتشيخوف ليس فقط التعبير عن رأيه في الأدب الحديث في عصره، ولكن أيضاً تقويم القيَم الأخلاقية لشخصية عصْرِه والابتذال في العالم المعاصر له.

يصوّر تشيخوف في روايته الأبطال الذين لم تَعُد القيم الأخلاقية هي المبادئ التي يهتدون بها. فالراوي كاميشيف هو محقِّقٌ قضائي، أي الرجل الذي يقيم العدل ويدافع عنه. ومع ذلك، فهذا البطل يرتكب جريمةً، ويُعاقَب على جريمته شخصٌ بريءٌ تماماً. وأولغا أوربينينا جاهزة للتضحية بمشاعرها الحقيقية، من أجل الثروة. والكونت كارنيف، متزوج، يجلب فتاة إلى المنزل. وكايتانكا زيميروفيتش مستعدٌّ لفِعْل أي شيء من أجل المال. ومدير ممتلكات الكونت أوربينين يتزوّج من فتاةٍ غِرَّة، لا تحبه. المؤلف يصور لنا مجتمعاً فَقَدَتْ فيه العلاقات الإنسانية الأخلاقية الحقيقية أيَّ معنى.

ويلعب طبيبُ المقاطعة فوزنيسينسكي دوراً مهمّاً في تطوير الحدث في «دراما في الصيد». إن شخصيَّتَهُ مميزةٌ للغاية. إنه ليس بطل رواية، بل طبيب مقاطعة عاديّ، ويُمكن أن يكونه

تشيخوف نفسه، الذي كان قد أنهى توّاً أثناء كتابة الرواية دراسته في كلية الطب. إن صورة طبيب المقاطعة الريفية الذي يعيش مثل جميع شخوص الرواية الآخرين في روسيا التي عاصَرَها تشيخوف ـ تجعلنا أيضاً نشُكُّ في أن «دراما في الصيد» تنتسب إلى الرواية الصحفية.

يُشير تشيخوف بعَمَلِه إلى مجمل مشكلات العلاقات الإنسانية وعمقها. ويشدّد على الفرق بين الحب كلعبةٍ ومتعةٍ مدمِّرَة، وبين العاطفة القوية الحقيقية، والعاطفة الإيجابية الثابتة التي تنطوي على المسؤولية والتفاني، لتكون طاقة الإلهام الذي يمكن أن يغيّر شخصية الإنسان والحضارة البشرية.



في ظهيرة أحد أيام أبريل (نيسان) عام 1880؛ دخل الحارس أندريه إلى مكتبي، وأبلَغَني بغموضٍ أن أحداً ظهَرَ في مقرّ الجريدة، ويطلب بإلحاح مقابلةَ رئيس التحرير. «يعتَمِرُ قبَّعَةً رسميّةً.. هو موظَّفٌ على الأرجح»؛ أضافَ أندريه.

قلتُ له: «اُطلُبْ منه أن يأتيَ في وقتٍ آخر، لأنني منشغلٌ اليوم. أبْلِغْهُ أن رئيس التحرير يستقبل الزّوار في أيام السبت فقط».

ـ «إنَّهُ يجيء لليوم الثالث، يسأل عنكم، ويقول إنَّ لديه قضيّةً مهمَّةً. يتوسَّلُ، ويكادُ يجهش بالبكاء. يقول إنَّهُ أيضاً منشغلٌ يوم السبت.. هل تأمرونني باستقبالِهِ»؟!

تنهَّدْتُ، ووضعْتُ قلمي جانباً، وأخذتُ في انتظار الرجل بعقْدِ شريط القُبَّعَة الرسميّة.

هلعٌ فظيعٌ يُساوِرُ الكتّابَ المبتَدِئين، وغالبية الأشخاص الذين يجهلون أسرار التحرير، عند رؤية هذه الكلمة.. «التحرير»، ويُجبرون أنفسهم على الانتظار لفترةٍ طويلةٍ. وبعد دعوة رئيس التحرير لهم، يَروحونَ يتَنَحْنَحُونَ، ويتمخَّطون طويلاً، ويفتحون الباب ببطءٍ، ويدخلون بتؤدَّةٍ أكثَر.. يستغرقُ هذا الكثيرَ من الوقت.

لم يَدَعْني السَّيّدُ صاحبُ القُبَّعَةِ الرسميةِ للانتظارِ طويلاً، فقد ظَهَرَ في مكتبي، قبل أن يُتاحَ لأندريه الوقت لإغلاق الباب خلفَهُ. كان رجلاً طويلَ القامةِ، عريضَ المَنْكِبين، يحمِلُ في إحدى يديه مِلَفّاً وَرَقِيّاً، وفي اليد الأخرى قبَّعَةً رسميّةً موشّاةً بعقد شريط القُبَّعَة.. من الضروريّ وصْفُ هيئة الرجل الذي حصل على لقاءٍ معي، والذي لعِبَ دوراً بارزاً جدّاً في قصَّتي هذه.

إنَّهُ، كما قلْتُ، طويلُ القامة، عريضُ المَنْكِبَين، مُكْتَنِزُ البَدَنِ، ويبدو جامحاً وعفيّاً كالحصان، ينطِقُ جسَدُهُ كلُّهْ بالعافية والعنفوان. ذو وجْهٍ ورديِّ اللون، له ذراعان طويلتان، وصدْرٌ عريضٌ، ووجهٌ عَضِلٌ، وشعْرٌ كثيفٌ، مثل الذي لِصَبيٍّ يتمتَّعُ بصحةٍ جيدةٍ. يُشارف الأربعين. يتمتَّعُ بذوْقٍ حَسَنٍ في ملابسه يُوافِقُ أحدث صيحات الموضة، يخطُرُ في بذلةٍ «تريكو» جديدةٍ ومُصَمَّمَةٍ حديثاً. وكان يُعَلِّقُ على صدْرِهِ سلسلةً ذهبيةً كبيرةً بميداليات، ومَضَتْ على بِنْصِرِهِ حلقةُ ألماسٍ ذات نجومٍ صغيرةٍ ساطعةٍ. ولكن الأهم من ذلك، وهو ركنٌ مهمٌ جدّاً لأيِّ بطلٍ في روايةٍ أو قصةٍ مهما كان حجْمُها، أنَّهُ وسيمٌ للغاية.

أنا لستُ امرأةً أو فنّاناً، ولا أعرف الكثير عن جمال الذكور، لكنَّ الرجلَ بالقُبَّعَةِ الرسميّةِ، ترك لديَّ انطباعاً بمظْهَرِهِ. وبقِيَ وجْهُهُ العَضِلُ الواسعُ ماثِلاً في ذاكرتي إلى الأبد. تَرى على هذا الوجه أنفاً يُونانيّاً حقيقيّاً مُحْدَوْدباً، وشِفاهاً رقيقةً، وفي عينيه

الزرقاوين يتألَّقُ اللطفُ، وشيءٌ آخَرُ يصْعُبُ العثورُ على وصْفٍ مناسبٍ له.

يمكن رؤية هذا الشيء في عيون الحيوانات الأليفة الصغيرة حينما يُلِمُّ بها الحزن، أو تتألَّم، إذ يُطِلُّ منها نوعٌ من الضّراعة والتوسُّل، وطفولةٌ، وقدرةٌ على الصَّبْر، لا يمكن أن يتمتَّعَ الأشخاص الماكرون والأذكياء للغاية بمثل هذه العيون.

وجْهُهُ يُشِعُّ بالتواضع والرحابة والأصالة والطَّبع البسيط، إذا لم يَكُنْ كاذباً فإنَّ الوجْهَ يكون مرآةً للروح. لذلك، منذ اليوم الأول للّقاء بالرجل المحترم صاحب القُبَّعَة الرسميّة؛ كان بمقدوري أن أُعْطيَ كلمةَ شرفٍ بأنه لا يعرف كيف يكذب، بل يُمْكِنُني الرّهان على ذلك.. وسوف يرى القارئ لاحقاً هل خَسِرْتُ الرّهان أم لا..!

شعْرُهُ بُنّيٌّ، ولِحْيَتُهُ الكثيفة ناعمةٌ كالحرير. يُقال إنَّ الشَّعْر الناعم هو دلالةٌ على روحٍ ناعمةٍ، رقيقةٍ، حريريَّةٍ. إنَّ للمجرمين والشخصيات الشريرة، العنيدة، في معظم الحالات، شَعْراً قاسياً. وسيرى القارئ لاحقاً ـ أيضاً ـ هل هذا صحيحٌ أمْ لا..!

لا يُوجَدُ في حركات جسد الرجل ـ ذي القُبَّعَةِ الرسميّة ـ الكبيرِ والثقيلِ، شيءٌ ناعمٌ ولطيفٌ للغاية، لا في تعابير وجْهِهِ ولا في لِحْيَته. وتَشِفُّ حركاتُهُ عن تربيةٍ، وخِفَّةٍ، ونِعْمَةٍ، بل ـ وآسِفٌ للتعبير ـ بعض الأنوثة. لا يحتاجُ بَطَلي إلى الكثير من الجهد لكي

يَلوي بيدِهِ حدوَةَ حصان، أو تسطيح علبة سردين في قَبْضَتِهِ، ومع ذلك لا تَنُمُّ أيُّ حركةٍ من حركاتِهِ عن أنَّ لديه قوةً جسديّةً؛ فهو يأخذ مقبَضَ الباب أو القُبَّعَة، كما لو يُمْسِكُ بفراشةٍ: بلطفٍ، وبعنايةٍ، يلمَسُها برفقٍ بأصابعه.

خطواتُهُ خافتةٌ، ومصافَحَتُهُ غيرُ شديدةٍ. وعندما تتطلَّع إليه، تنسى أنَّهُ قويٌّ مثل «جالوت»، وأنَّ بِمَقْدُورِهِ أن يرفَعَ بيدٍ واحدةٍ خمسَةَ أشخاصٍ مثل أندريه حارس التحرير. وبالنظر إلى حركاته الخفيفة، لا يُمكن للمرء أن يُصَدِّقَ أنَّهُ قويٌّ وثقيلٌ، قد يَصِفُهُ عالِمُ الاجتماع «سبنسر» بنموذَج النعمة. عند دخولِهِ لمكتَبي، كان يستشعر الحرج، ربما صَدَمَ نظري الغاضبُ والمزعِجُ طبيعَتَهُ اللطيفةَ والحسّاسة، فشَرَعَ بلُطْفٍ وبصوتٍ عميقٍ مُعَبِّرٍ:

ـ كرامةً لله، اِعْذِروني! سَوَّلَتْ لي نفسي اقتحامَ مكتَبِكم من دون موعدٍ مُتَّفَقٍ عليه، وأجبَرْتُكُم على القيام باستثناءٍ لي. أنتم مشغولون للغاية! ولكن أتعْرِفون ما الأمر أيها السّيدُ المُحَرِّرُ؟! سأغادرُ إلى أوديسا غداً في قضيةٍ مهمةٍ جدّاً. ولو كانت أُتيحَتْ لي فرصةُ تأجيلِ هذه الرحلة حتى يوم السبت، صدّقوني، ما كنتُ وقتَها لأطلبَ منكم إجراءَ استثناءٍ لي.. أنا أنحني أمام القواعد لأنني أحب النظام.

«ولكنَهُ، يتحدَّثُ كثيراً»! قُلْتُ في سِرّي، ومدَدْتُ يدي إلى القلم لأُلَمِحَ له بأنْ ليس لديَّ وقتٌ. (لقد أزعَجَني الزُّوار حقّاً!).

واستمرَّ بصوتٍ مُعْتَذِرٍ:

ـ سآخُذُ منكم دقيقةً واحدةً!، ولكن قبل كل شيءٍ، اسْمَحوا لي أنْ أُقَدِّمَ نفسي: سيرجي بتروفيتش كاميشيف، حاصلٌ على شهادة الدكتوراه في علوم القانون، محقِّقٌ قضائيٌّ سابقٌ، لم أحْظَ بشرفِ الانتسابِ إلى جماعة الكُتّاب، ولكنني مع ذلك، جئْتُ إليكم لأغراضٍ كتابيّةٍ محضَة. يَقِفُ أمامكم شخصٌ يرغب في أن يكون ضِمْنَ الكُتّابِ المبتدئين، على الرغم من أن سِنَّهُ تُشارِفُ الأربعين، وكما يُقال: أن يكون الأمر متأخراً خيرٌ من ألّا يكون أبداً.

ـ أنا سعيدٌ للغاية، كيف بِوُسْعي أن أُساعِدَكُم؟

جلس الراغبُ في أن يكون ضمن المبتدئين، واستمرَّ بالنَّظَرِ بِعَينَيهِ المتوسِّلَتَين إلى الأرض، وأرْدَفَ:

ـ أحضَرْتُ لكم قصةً غيرَ طويلةٍ، أوَدُّ أن أنشُرَها في صحيفَتِكم. سأُخْبِرُكُم بالحقيقة.. أيها السيد المحرِّر؛ لقد كتبتُ قصَّتي هذه ليس من أجل أن أحظى بشُهْرَةِ مؤلِّفٍ، ولا من أجل عبارات الإطراء والمديح، لقد تأخّرتُ عن الوقت الذي يطمَحُ فيه المرءُ لمثل هذه الأشياء الجيّدة. إنني ببساطةٍ أسيرُ على طريق التأليف بدوافِعَ تجاريةٍ.. أُريد تحصيل بعض المال. الآن ـ قطْعاً ـ ليس لديَّ أيُّ عملٍ أُزاوِلُهُ، لقد كنْتُ محقِّقاً في الطِّبّ الشرعيّ في مقاطعة (س ـ م)، خدمتُ لأكثر من خمس سنوات، لكنني لم أجْنِ مالاً ولم أَصُنْ براءتي.

رَمَى كاميشيف عليَّ نظرةً بعينيه الوديعَتَيْن، وضحِكَ بهدوءٍ، وأرْدَفَ:

ـ الخدمةُ مُمِلّةٌ.. خَدَمْتُ، خَدَمْتُ، وأصبَحْتُ لا أُبالي بها، فتركتُها. ليس لديَّ أيُّ عملٍ لأُمارِسَهُ الآن، وليس لديَّ ما أسُدُّ به الرمق.. وإذا قُمْتُم بنَشْر القصة، بغضّ النظر عن قيمتها الفنيّة، فسوف تُسْدُونَ إليَّ أكثرَ من معروفٍ. سوف تُساعِدونني.. الصحيفةُ ليست منزلاً للفقراء، وليست ملجأً للسّائلين، أعْرِفُ ذلك، ولكن... لذا تَفَضَّلوا...»!

«تكذب»! هكذا فكَّرْتُ وأسررتُها في نفسي. لا يتناسَبُ الحُليّ والخاتم على إصبع الخِنْصِر بشكلٍ جيّدٍ مع الكتابة من أجل كسرة خبزٍ. غمامةٌ ـ بالكادِ يُمْكِنُ ملاحظتُها ـ عَبَرَتْ على وجه كاميشيف، واختَفَتْ بسرعةٍ، لا تصطادُها إلا العينُ الخبيرةُ.. الغمامةُ التي يُمْكِنُ رؤيَتُها على وجوه الأشخاص الذين نادراً ما يكذبون.

سألتُهُ:

ـ ما موضوع قصتك؟

ـ الموضوع؟ ما أقول لكم؟ الموضوع ليس جديداً.. الحب والقتل.. بلى، سوف تقرؤون وتَرَوْنَ بأنفسكم.. «**من مذكّرات محقِّق قضائي**».

ربما انقبض وجهي، لأن كاميشيف رمَش بعينِهِ مُحْرَجاً، واختلج، وقال بسرعة:

ـ كتبتُ قصَّتي وفقاً للتقليد الذي اتَّبَعَهُ المحققون القضائيون السابقون، ولكن ستجدونها قصةً واقعيةً.. حقيقيةً.. كنت شاهِدَ عيان، بل طرفاً فاعلاً. كل ما جرى تصويرُهُ فيها من الغلاف إلى الغلاف حدث أمام عيني.

ـ لا تكمن المسألة في الحقيقة؛ ليس من الضروري أن ترى حتى تصِفَ.. هذا غير مهم. الحقيقة تنحصر في أن جمهورنا المسكين سَئِمَ ـ للغاية ـ إميل غابوريو ووليم شكسبير، منذ فترة طويلة.

لقد سَئِمَ من كل هذه الجرائم الغامضة والدهاء غير العادي للمحققين الذين يقومون باستجواب المتَّهَمين. بالطبع، الجمهور مختلف، لكنني أتحدث عن الجمهور الذي يقرأ صحيفَتي. ما اسم قصتك؟

ـ «دراما في الصّيد».

ـ أم... هل تعرفون أنها غير جدّية... في الحقيقة؛ لقد تراكمت لديَّ مجموعةٌ كبيرةٌ من المواد، لدرجة أنه لا توجد إمكانية على الإطلاق لقبول أشياء جديدة، حتى مع مزاياها التي لا شكّ فيها.

ـ أما قصتي فأرجو من فضلكم أن تقبلوها.. تقولون إنها ليست جادة، ولكن من الصعب تقييمُ عملٍ لم تَرَوْه.. وهل حقّاً لا يمكنكم الافتراض أنّ بوسْع المحققين القضائيين الكتابة بجدية؟!

قال كاميشيف كل هذا وهو يتلعثم، ويدير القلم بين أصابعه، وينظر بين ساقيه. انتهى به الأمر بشعورِهِ الحادّ بالحَرَج وهو يرمش بعينَيه. أشفقتُ عليه. وقلت:

ـ حسناً، اتركها. أنا فقط لا أعِدُكُم بقراءة قصتكم قريباً. يتعيَّن عليكم الانتظار.

ـ طويلاً؟

ـ لا أعلم.. تعال بعد شهر.. شهرين.. ثلاثة!

ـ إنها فترةٌ طويلةٌ إلى حدٍّ ما، لكنني لا أجرؤ على الإصرار.. فليكن ما تَرون.

نهض كاميشيف، والتَقَطَ قُبّعَتَهُ، وقال:

ـ شكراً على الاستقبال، سأعود إلى المنزل الآن، وسأُمَنّي نفسي بالآمال. ثلاثة أشهر من الأمل! ولكنني أملَلْتُكُم.. يُشَرّفُني أن أنحَني تحيةً لكم!

وأردفتُ وأنا أتصفّح المخطوطة السميكة، المكتوبة بخط يدٍ ناعم:

ـ اسمحوا لي بكلمةٍ واحدةٍ فقط، هنا تكتبون بضمير المتكلم.. إذاً، تقصدون بشخصية المحقق القضائي أنفسكم بالطبع؟!.

ـ نعم، ولكن بلقبٍ مختلفٍ. دوري في هذه القصة ينطوي على

إشكاليةٍ إلى حدٍّ ما.. من المُحرِج أن أحضُرَ في القصة بلقَبي.. إذن، في غضون ثلاثة أشهر؟!

ـ بلى، على الأرجح، ليس قبل ذلك.

ـ أتمنى أن تكونوا بصحةٍ جيّدةٍ..

انحَنَى المحقق القضائي السابق بلباقة، وأخذ مقبض الباب بعناية وتوارى، وأخفيتُ أنا مخطوطة قصَّتِه في دُرْج مكتبي. بقيَتْ قصة كاميشيف الوسيم مستقرةً في مكتبي لمدة شهرين. وعندما سافرتُ ذات مرة، من مكتب التحرير إلى منزلي الريفي، تذكَّرْتُها وأخذتُها معي. فتحتُ المخطوطة أثناء جلوسي في عربة القطار، وطفِقْتُ أقرأ فيها من المنتصف. أثار وسط القصة اهتمامي. في مساء نفس اليوم، وعلى الرغم من ضيق وقت الفراغ، قرأتُ القصة المكتوبة بخط يدٍ عريض، بأكملها، من البداية إلى كلمة «النهاية». قرأتُ هذه القصة مرةً أخرى ليلاً، وعند الفجر، كنت أقطع الشرفة من الزاوية إلى الزاوية، وفركتُ صِدْغَيّ، كما لو كنت أرغب في أن أمحو من رأسي فكرةً جديدةً قفَزَتْ فجأةً، فكرة مؤلمة.. والفكرة كانت مؤلمةً حقاً، حادةً بشكلٍ لا يُطاق.. خُيِّلَ لي أنني لستُ محقِّقاً قضائيّاً، بل أكثر من ذلك، عالماً نفسيّاً في هيئة محلّفين، اكتشفتُ سرّاً فظيعاً لأحد الأشخاص، وهو سِرٌّ لا شأن لي به.. كنتُ أذْرَعُ الشُّرْفَةَ جيئةً وذهاباً وأقنع نفسي بعدم الثقة باكتشافي. لم تُنْشَر قصة «كاميشيف» في صحيفتي للأسباب المذكورة في نهاية محادثتي

مع القارئ. سألتقي بالقارئ مرةً أخرى. والآن، وبعد أن أفارقه لفترةٍ طويلةٍ، أعرض عليه قصة «كاميشيف» لقراءتها. هذه القصة لا تتميز عن القصص المألوفة. فيها الكثير من الإسهاب، والكثير من الخشونة. لم يُصِبْ المؤلف القدرة على التأثير والعبارة البليغة.. من الواضح أنه يكتب لأول مرةٍ في حياته، ولم تتمرَّنْ يدُهُ على التأليف. ولكن مع ذلك، فإن القصة سهلة القراءة. هناك حبكة، وفكرةٌ أيضاً، والأهم من ذلك أنها أصيلة، ما يُمَيِّز ما يُسَمّى بـ«sui sgeneris» (فريدة من نوعها) فيها أيضاً بعض الاستحقاق الأدبي. إنها خليقةٌ بالقراءة.. وها هي:

دراما في الصيد
(من مذكرات محقِّق قضائي)

الفصل الأول

ـ قتل الزوجُ زوجَتَهُ! أوه.. إلى أيّ حدٍ أنتم أغبياء! وأخيراً أعطوني السُّكَّر!

أيقَظَتني هذه الصرخة. تمطّيت، وشعرت بالثِّقَل والتوعُّك في كل أعضاء جسدي.. يمكن أن يكون قد تنمَّل ذراعي وساقي أثناء الرقاد، لكن هذه المرة بدا لي أنني أنمَلْتُ جسمي كلَّه من الرأس إلى أخمص القدمين. النوم بعد الظهيرة في جوٍّ خانقٍ وجافّ، تحت طنين الذباب والبعوض، لا يمد الصحة بالقوة، بل يُضعفها. نهضتُ وذهبتُ إلى النافذة وأنا مُنْهَك القُوَى ومبلّلٌ بالعَرَق. كانت السادسة مساءً. وما تزال الشمس مرتفعةً وحارقةً بنفس الحميَّةِ التي كانت عليها قبل ثلاث ساعات. وما يزال هناك الكثير من الوقت حتى غروب الشمس والبرودة.

ـ قتَلَ الزوجُ زوجَتَه!

قلتُ، وأنا أنقر بإصبعي بشكلٍ خفيفٍ على أنف إيفان ديميانيتش.

ـ كفاك كذباً إيفان دميانيتش! يقتل الأزواج زوجاتهم فقط في الروايات، وقرب المناطق الاستوائية، حيث تغلي الشهوات الإفريقية يا عزيزي. بالنسبة لنا، فتكفينا تماماً الفظائع مثل السرقة المصحوبة بالعنف، أو العَيْش بمظهرِ شخصٍ آخر.

وتمتم إيفان ديميانيتش من خلال أنْفِه المعلّق:

ـ السرقة المصحوبة بالعنف. آه، إلى أيّ حدٍّ أنتم حمقى!

ـ ولكن ماذا يمكنك أن تفعل يا عزيزي؟ ما خطيئتنا نحن البشر في وجود سقفٍ محدَّدٍ لأدمغتنا؟ ومع ذلك، يا إيفان دميانيتش ليس من الخطيئة أن تكون أحمقَ في مثل درجة الحرارة هذه. ها أنت ذكيّ، ولكن أعتقد أن دماغك أيضاً استرخى وأمسى غبيّاً بتأثير هذه الحرارة.

لم يُطْلَقْ على ببغائي تسمية «بوبكا» ولا اسم الطيور الأخرى، ولكن إيفان ديميانتش. حصل على هذا الاسم عن طريق الصدفة. ذات مرةٍ قام مساعدي بوليكارب بتنظيف قفَصِه، وفجأةً.. ومَضَتَ في ذهن الرجل الكسول ـ من دون سببٍ ـ فكرةٌ بأنَّ أنفَ الببغاء مشابهٌ جداً لأنف صاحب متجر القرية إيفان ديمانيتش، ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم الببغاء إلى آخر يومٍ من حياته على الاسم الثنائي لصاحب المتجر ذي الأنف الطويل، ولولا ذلك الاكتشاف لأُطلِقَ على طائري النبيل حتى الآن اسم «بوبكا» العادي. وبمبادرة

بوليكارب الموفَّقَة راحت القرية بأكملها تسمّي طائري الطريف بإيفان ديميانيتش. وبإرادة بوليكارب شاعَ اسمُ الطائر على لسان الناس، بينما فَقَدَ صاحب المتجر لقَبَهُ الحقيقي: حتى نهاية أيامه جاء في أفواه القرويين باعتباره «ببغاء المحقق». اشتريتُ إيفان ديميانيتش من والدة سِلفي، المحقق الجنائي الشرعي بوسبيلوف، الذي تُوفّي قبل موعد تعييني بوقتٍ قصير. اشتريتُهُ مع أثاثٍ من خشب البلوط القديم ونفايات المطبخ وجميع الأغراض التي تُرِكَت بعد الرجل الراحل. وما تزال جدران منزلي مزيَّنَةً بصورٍ فوتوغرافيةٍ لأقاربه، وما تزال صورة المالك نفسه معلقةً على سريري. والراحل شخص نحيف معروق ذو شاربٍ أحمر وشفَةٍ سفلى غليظة، يجلس منتفخ العينين في إطارٍ من خشب الجوز، وطوال الوقت لا يرفع عينيه عني، وأنا مستلقٍ على سريره.. لم أقم بإزالة بطاقة واحدة من الجدران، باختصار؛ تركت الشقة كما استلمتُها. أنا كسول جداً لدرجة أنني لا أعمل على توفير مكانٍ مريحٍ لي، ولم يزعجني أن أعلّق على جدران منزلي ليس فقط الموتى، ولكن حتى من كان على قيد الحياة، إذا كان هذا الأخير يرغب في ذلك.

كان الجو، كما بالنسبة لي، خانقاً لإيفان ديميانيتش. نفش ريشَهُ، وبسَطَ جناحيه، وصاح بصوتٍ عالٍ مردداً العبارات التي تعلَّمَها من سِلْفي بوسبيلوف ومن بوليكارب.

جلستُ أمام القفص لأشغل وقت الراحة فيما بعد الظهر، وبدأت أشاهد تحرّكات الببغاء، الذي يبحث بعناية ولا يجد مخرجاً من تلك العذابات الناجمة عن الجو الخانق والحشرات التي عاشَت في ريشِهِ.. بدا المسكين بائساً للغاية.

ترامي لي صوتٌ جهورٌ لأحد الأشخاص:

ـ وما الوقت الذي يستيقظون فيه؟

ردَّ صوتُ بوليكارب:

ـ في أوقات مختلفة! أحياناً يستيقظ في الخامسة، وأحياناً ينام كالمسطول حتى الصباح.. بالطبع، لا يوجد ما يقوم به.

ـ هل أنت من تقوم على خدمة السّيد؟

ـ خادم. حسناً، لا تزعجني، اخرس.. ألا ترى أنني أقرأ؟!

نظرتُ في مدخل المنزل. هناك، استلْقَى خادمي بوليكارب على صندوق أحمر كبير، وكالعادة، كان يقرأ كتاباً. غرز عينيه اللتان لا ترمشان أبداً في كتاب، وحرَّكَ شفتيه وتجهَّم. وعلى ما يبدو، انزعج من وجود شخصٍ غريبٍ، كان هناك رجلٌ طويلُ القامة، ملتحٍ، يقف أمام الصندوق ويحاول عبثاً بدء محادثة. وعندما ظهرتُ، تراجع الرجل خطوةً عن الصندوق، واستقام. لوى بوليكارب وجهَهُ ممتعضاً، ودون أن يرفع عينيه عن الكتاب نهض قليلاً.

وتوجَّهْتُ إلى الرجل الملتحي:

ـ ما حاجتُك؟

ـ سعادتكم، أنا من قِبَل الكونت، كلَّفَني الكونت بالانحناء إليكم، وأن أطلب منكم أن تأتوا إليه على الفور.

فوجئتُ:

ـ وهل جاء الكونت؟

ـ بالضبط، وصل أمس.. تفضَّلوا هذا خطابٌ منه.

وقال خادمي بوليكارب:

ـ مرةً أخر جاءت به الشياطين! عِشْنا بسلامٍ من دونه على مدى صيفَيْن، والآن مرةً أخرى سيقوم بنشر القذارة في المقاطعة. مرةً أخرى سيُلْحِقُ بنا العار.

ـ اخرس، لا أحد يسألك!

ـ لست بحاجةٍ لأن يسألني أحد.. سأقولها بنفسي. مرةً أخرى سوف تأتي من عنده مخموراً ببشاعة، وستسبح في البحيرة، بما عليك.. ببذلتك، وسأقوم بتنظيفها بعد ذلك! ولا يمكنني تنظيفها على مدى ثلاثة أيام!

سألت الرجل:

ـ ماذا يفعل الكونت الآن؟

ـ لقد تفضَّلوا بالجلوس لتناول الغداء عندما أرسلوني إليكم. قبل الغداء، كانوا يصطادون السمك في الحوض يا سيدي.. بِمَ تأمرونني أن أُبْلِغَهُ؟

قُمْتُ بفَضّ الرسالة وقرأتُ ما يلي:

«عزيزي ليكوك! إذا كنتَ ما تزال على قيد الحياة، وبصحة جيدة، ولم تنسَ حتى الآن صديقك المدمن، فلا تتأخر لحظةً، ارتدِ ملابسك واندفع إلَيّ. وصلتُ الليلة الماضية فقط، لكنني أموت من الملل. أنتظرك بنفاد صبرٍ لا يُطاق. لقد أردتُ أن أجيء لك بنفسي وآخذك إليَّ وجاري، لكن الحرارة شلَّت جميع أعضائي. أجلسُ في مكانٍ واحدٍ وأقوم بالتهوية على نفسي بمروحة. حسناً، كيف تعيش؟ كيف يعيش رفيع الذكاء إيفان ديميانيتش؟ هل لا تزال تتماحك مع المتحذلق بوليكارب؟ تعالَ بسرعةٍ وحدّثني عن كل شيء.

صديقك أ.ك»

ليس ضرورياً النظر إلى التوقيع، لكي أعرف بالخط العريض غير الجميل يَدَ صديقي الكونت ألكسي كارنييف، المخمورة التي نادراً ما تكتُب. وتشهد عبارات المداعبة، وخفَّة الدم، على أن أقرب أصدقائي مزَّقَ الكثير من الورق قبل أن يكتب هذا الخطاب.

انعدم في الخطاب وجود ضمير «الذي»، وجرى تجنُّبُهُ

بحرصٍ بحالة الظرف ـ فنادراً ما ينجح الكونت بكتابة كليهما في جلسة واحدةٍ.

وكرَّرَ الرجل:

ـ ما الجواب الذي تأمرونني به؟

لم أردّ على السؤال فوراً، إن كل شخصٍ مستقيمٍ كان في مكاني سيتباطأ في الرَّد. لقد أحبَّني الكونت، وبصدقٍ فَرَضَ عليَّ صداقَتَهُ، بيْدَ أنني لم أشعر نحوَهُ بشيءٍ شبيهٍ بالصداقة، وحتى لم أحبه، لذلك كان من النزاهة أن أرفض صداقته مرةً وإلى الأبد، بدلاً من الذهاب له وممارسة النفاق. علاوةً على ذلك؛ كان الذهاب إلى الكونت يعني الانغماس مرةً أخرى في الحياة التي أطلق بوليكارب عليها «حياة الخنازير»، والتي قبل عامين، وطيلة الوقت الذي سبق رحيل الكونت إلى بطرسبورغ، زعزَعَتْ صحَّتي الجيدة، وجفَّفَت دماغي. هذه الحياة الداعرة الشاذة، المفعمة بالانطباعات المؤثرة، والمجتمع المخمور، لم تفلح في تقويض جسدي، ولكن جعلت مني معروفاً في جميع أنحاء المحافظة.. أنا مشهور.

كان عقلي يخبرني بالحقيقة الكاملة، واصطبغ وجهي بأكمله بلَوْنِ الخجل من الماضي القريب، وانقبض قلبي من الخوف من فكرة أنَّني تعوزني الشجاعة الكافية لرفض الذهاب إلى الكونت، لكنني لم أتردد طويلاً.. الصراع في داخلي لم يستمر لأكثر من دقيقة. وقلتُ للرسول:

ـ اِنْحَنِ للكونت، واشْكُرْهُ على رسالته لي، وقل له أنني مشغولٌ وما... قُلْ لَهُ...

وفي نفس اللحظة عندما كنت على وشْكِ أن أقول بحزمٍ «لا».. تغلَّبَ عليَّ بغتةً شعورُ شابٍّ مليءٍ بالحياة والقوة والرغبات، رمى به القَدَر في البراري الريفية وسيطَرَ عليه الشعور بالكآبة والوحدة.

تذكَّرْتُ حديقة الكونت ببيوتها الزجاجية الباردة الفارهة، ودروبها الضيقة المهجورة.. وتحمي هذه الدروب، من الشمس قبّةٌ من أشجار الزيزفون العجوزة، التي تضافرت أغصانها الخضراء، إنها تعرفني.. إنها تعرف النساء اللواتي نَشَدْنَ حُبّي، وساعات الغسق.. وتذكَّرْتُ غرفة الضيوف الفاخرة وكنباتها المخملية التي تُشِعُّ بالكسل اللذيذ، والستائر السميكة والسجاد الناعم كالريش، مع الكسل الذي يشغف به الشباب، والحيوانات المليئة بالصحة.. طرَأَ على ذاكرتي انفلاتي في الشُّرْب، والتكبُّر الشيطاني الذي لا يعرف حدوداً في مداه، واحتقار الحياة. ورغِبَ جسدي الكبير المتْعَب من النوم، بالحركة من جديد..

ـ أخبِرْهُم أنني سآتي!

انحنى الرجل وغادَر. وقال بوليكارب متذمِّراً وهو يقلِّب صفحات الكتاب بسرعةٍ وبلا هدف:

ـ لو كنت أعرف، لما سمحتُ له بالدخول، اللعنة على الشيطان!

قلْتُ له بشدَّة:

ـ اترك الكتاب واذهب لتُسْرِجَ حصاني زوركا.. بسرعة!

ـ بسرعة.. بالطبع، من دون بُدّ، ولكن بوسعي أن أهرب.. من المفيد لو سافرتم لزيارة جدّكم، وليس الذهاب لكَسْرِ قرن الشيطان.

قال ذلك بصوتٍ هامسٍ، حتى أتمكَّنَ من سماعِه. همَس الخادم بوقاحة، وتمطَّى أمامي مبتسماً بازدراء، وانتظر مني الردّ لكنني لم أفعل، وأنشأ ينتظر أن أرُدَّ عليه بسَوْرَةِ غضب، ولكنني تظاهرتُ بعدم سماع كلماته. إن صمتي هو أفضل وأقوى سلاحٍ في المعركة مع بوليكارب، إن هذا الازدراء، وجَعْلَ كلماته تمُرُّ قُرْبَ أذُني، ينزع سلاحه ويحرِمُهُ الأرضية. إنه يعمل كعقابٍ أقوى من توجيه صفعةٍ له على الرأس، أو أن أنهالَ عليه بوابلٍ من الشتائم.

عندما خرج بوليكارب إلى الفناء ليُسْرِجَ حصاني زوركا، ألقيتُ نظرةً على الكتاب الذي عرقَلْتُهُ عن الاستمرار في قراءته.. كانت رواية «»، رواية ألكسندر دوماس العظيمة.. التي كانت في صندوقي مع كتبٍ أخرى متروكةٍ لم أقرأها. إن خادمي الأحمق المتحضِّر يقرأ كل شيء: من لافتات الحانات العامة إلى أوغست كونت، ولكن من بين كل مجموعة المواد المطبوعة والمكتوبة إلا أنه لا يعترف إلا بروايات الرعب المثير للغاية منها، وروايات «السادة» الوجهاء، والسموم والأقبية تحت الأرض، وحَكَمَ على الباقي بأنها «هراء».

يتعيَّن عليَّ أن أتحدث عن قراءاته لاحقاً، والآن يجب أن أذهب!
عقب ربع ساعة؛ أثارت حوافر فرسي زوركا الغبارَ على الطريق من القرية إلى ضيعة الكونت. كانت الشمس على وشك المغيب، لكن ارتفاع درجة الحرارة وانحباس الهواء ما زالا قائمَيْن.

كان الهواء الملتهب ساكناً وجافّاً، على الرغم من أن طريقي امتدَّت على طول بحيرة واسعة جداً. رأيت على اليمين كتلة من الماء، وعلى اليسار داعبت عيوني أوراق ربيعية فتيَّة لغابة سنديان، ورغم ذلك كان خدّاي يحترقان بلهيب الصحراء.

«لو ترعد السماء!» فكَّرْتُ، متمنّياً زخَّةَ مطرٍ باردٍ ولطيفٍ، كانت البحيرة ترقد بهدوء. ولم يرحب صوتٌ واحدٌ بفرسي زوركا التي كانت تُجِدُّ السَّيْر، سوى زقزقةِ طائر شُنقب فَتِيٍّ مزَّقَتْ الصمت المطبق للعملاق الساكن. ونظَرَتْ الشمس لنفسها، كما في مرآة كبيرة، وغَمَر ضوؤها، الذي يُعمي العيون، كل اتساعٍ من طريقي إلى الشاطئ البعيد. وبدا للعيون العمياء أن الطبيعة تستمد ضوءها لا من الشمس، ولكن من البحيرة.

ودفعت الحرارة بالوَسْن في الحياة الغنيَّة بالبحيرة وشواطئها الخضراء. اختفت الطيور، ولم تطبطب الأسماك، وانتظرت الجنادب والصراصير البرودة بهدوء. وفي كل مكانٍ كانت هناك صحراء. وفي بعض الأحيان فقط أدخلَني زوركا في سحابة كثيفة من البعوض الساحلي، ومن على مسافة بعيدة تحرَّكَت بالكاد في

البحيرة القوارب الثلاثة للعجوز ميخي الأسْوَد، صيّادنا، الذي التزم بدفع الضرائب للحكومة عن البحيرة كلها.

لم أكن أذهب للضيعة في طريق مستقيم، ولكن في طريقٍ دائريّ، والذي امتدَّ على شاطئ البحيرة المستديرة. كان الذهاب في طريقٍ مستقيمٍ ممكناً فقط بالقوارب، بينما أولئك الذين يسافرون بالطريق البرّيّ يقومون بدورةٍ كبيرةٍ تبلغ حوالي ثمانية أميال. تطلَّعْتُ طوال الطريق إلى البحيرة؛ شاهدتُ الشاطئ الطينيّ المقابل، الذي جعَلَهُ شريط حديقة الكرز المزهرة، أبيض. وارتفع من خلف الكرز مبنى الكونت الخارجي لدَرْسِ الخُبز وتخزينه، انتَشَرَ عليه الحمام الملوَّن، وأضَفْتُ اللون الأبيض على برج جرس كنيسة الكونت الصغيرة. ونهض عند الشاطئ الطيني حمّامٌ مغطّىً بشراع. وتمَّ تجفيف الملاءات على السور. رأيت كل هذا، وبدا لعيني أن مسافةَ فرست تفصِلُني عن ضيعة صديقي الكونت، ولكن حتى أصلَ للضَّيْعَة ينبغي عليَّ قطْعُ ستة عشر فرست.

في الطريق، فكَّرْتُ في علاقتي الغريبة بالكونت. كان من المثير لي أن أوضِّحَ لنفسي طبيعتها، وتنظيمها، لكن ـ للأسف! ـ كان هذا الاستيضاح مهمّةً فوق طاقتي. ومهما فكَّرْتُ، لم أُقَرِّر، ولكن في نهاية المطاف خرجتُ بنتيجة أنَّني خبيرٌ سيئٌ بنفسي، وبشكلٍ عام بالإنسان. الناس الذين يعرفونني والكونت ـ أيضاً ـ يُفَسِّرون بشكلٍ مختلفٍ علاقاتنا المتبادلة. جِباهٌ ضيقة، لا ترى أي شيء أبعد

من أنوفها، مثل التأكيد أن الكونت النبيل رأى في المحقق القضائي ـ الفقير وغير ذلك ـ ذيلاً ونديمَ شراب. أنا، كاتب هذه السطور، وفقاً لفهمهم، زحفتُ وتزلَّفْتُ لمائدة الكونت من أجل الفُتات والفضلات! في رأيهم، إنه رجلٌ نبيلٌ غنيٌّ، تحسُدُهُ بلدةُ «سين» بأسْرِها، وكان شخصاً ذكيّاً وليبرالياً للغاية، وبخلاف ذلك لن يكون مفهوماً التفضُّل الكريم بالصداقة مع المحقق الفقير وذلك الليبرالي الحقيقي، الذي جعل الكونت غير حساسٍ عندما أخاطبه بصيغة «أنت». ويفسِّر الناس الأكثر ذكاءً علاقتنا بالاهتمامات الروحية. أنا والكونت أتراب. كلٌّ منا أنهى الدراسة في نفس الجامعة. نحن محامون، ومعارفُ كلانا قليلةٌ جداً: أنا أعرف شيئاً ما، أما الكونت فقد نسيَ كل ما كان يعْرِفُهُ، وغرِقَ في الكحول. نحن متكبرون وفخورون، بحكم أسباب معروفة لنا فقط، نتحاشى المجتمع مثل همج. كلانا لا يخجل من رأي عَلِيّة الناس (أي بلدة س)، كلانا غيرُ أخلاقيّ، وستكون نهايتنا سيّئة. هذه هي «الاهتمامات الروحانية» التي تربطنا، وليس بوسع الناس الذين عرفونا القول عن علاقتنا أكثر من ذلك. بالطبع، سيقولون المزيد لو كانوا يعرفون مدى ضعف طبيعة صديقي الكونت، ونعومته، ودمائة أخلاقه، وإلى أي مدىً أنا قوي ومتين. وسيقولون الكثير لو عرفوا كيف أحبَّني هذا الرجل التافه، وإلى أي حدٍّ لم أحبه! كان هو مَن عَرَضَ عليَّ صداقته، وكنت أول من تحدَّثَ معه بصيغة «أنت»، ولكن ما الفرق في النبرة! وفي فورةٍ من المشاعر الطيبة، عانقني وطلب ـ بخجلٍ ـ

صداقتي.. قلتُ له ـ وقد استحوذ عليَّ ذات مرةٍ الإحساس بالاحتقار ـ باشمئزاز:

ـ كفاكَ قَوْل أشياء غبية!

وقبِلَ صيغة «أنت» هذه كتعبير عن الصداقة وبدأ بحمْلِها، دافعاً لي صيغة «أنت» صادقة وأخوية، بلى كان من الأفضل والأكثر نزاهة لو أنني استدرتُ بزوركا وانقلبتُ عائدا إلى بوليكارب وإيفان دميانيتش.

في وقتٍ لاحقٍ، فكَّرْتُ أكثر من مرة: كم عدد المصائب التي كان بوسعي ألا ألقيها على عاتقي، وكم من مقدار الخير الذي كان بوسعي أن أجلبه لأقربائي، لو كان لديَّ ما يكفي، في ذلك المساء، من العزم على العودة، لو أن زوركا حملني بعيداً عن هذه البحيرة الكبيرة الفظيعة! كم حجم الذكريات المؤلمة التي لم تسحق دماغي، ولم ترغم يدي على الرَّمْي بالقلم وأخذ رأسي بيدي! ولكن لن أستبق الأمور، لا سيّما أنّه سيتعيّن عليَّ لاحقاً أنْ أتوقَّف مرات عديدة عند الأحداث المريرة. والآن عن المفرحة...

أوصلتني زوركا إلى بوابة ضيعة الكونت مباشرةً. تعثَّرتْ عند البوابة مباشرة، وبعد أن فقدتُ الركاب، كدتُ أهوي على الأرض. وصاح بي رجلٌ يقف عند أحد أبواب إسطبل الكونت الطويل:

ـ سوءُ طالعٍ، يا سيدي.

أعتقد أن الرجل الذي يسقط من الحصان يمكن أن تنكسر رقبته، لكنني لا أُومِنُ بالطوالع. بعد أن أسلَمْتُ العنان للفلاح، ونفضْتُ الترابَ عن الأحذية بالسوط، هرعتُ إلى المنزل. لم يستقبلني أحدٌ. كانت النوافذ والأبواب في الغرف مفتوحةً على مصراعيها، ولكن بالرغم من ذلك، سادت في الهواء رائحةٌ ثقيلةٌ وغريبةٌ، كانت رائحةً عطرةً ولكنها حادّة مخدّرة، تحمل مزيجاً من روائح نباتات الدفيئات المهجورة التي جاؤوا بها منذ وقتٍ غير بعيدٍ من الغرف الزجاجية.. كانت على إحدى الأرائك في القاعة المكسوّة بالحرير الأزرق الفاتح ـ وسادتان مجعّدتان، وأمام الأريكة على المائدة المستديرة رأيتُ قدحاً فيه بضع قطرات من السائل تنبعث منه رائحة قوية من بلسم «ريغا». وبعد كل هذا يُقال إن المنزل مأهول. لكنني، بعد أن تجاوزت جميع الغرف الإحدى عشرة، لم ألتِقِ بروحٍ حيّةٍ واحدةٍ. وسادت في المنزل نفْسُ روح الصحراء القائمة حول البحيرة.

من غرفة الضيوف التي تُسَمَّى «الفسيفساء»، أدَّى بابٌ زجاجيٌّ كبيرٌ إلى الحديقة. فتَحْتُها محدِثاً ضوضاء وهبطتُ إلى الأسفل بالشرفة الرخامية إلى الحديقة. وهنا، بعد خطوات قليلة على طول الزقاق، قابلتُ المرأة ناستاسيا البالغة من العمر تسعين عاماً، والتي كانت في السابق مربِّيَةً لدى الكونت. إنها مخلوق صغير، متغضِّن، نسيَهُ الموت، برأسٍ أصلع وعيون لاذعة. عندما

تتطلَّع إلى وجهها، تتذكَّر بشكلٍ تلقائيٍّ اللقب الذي أطلقه عليها أهل الفناء: «البومة».. جفلَتْ عند رؤيتي، وكادت تُسْقِط الكأس التي كانت تحملها بكلتا يديها.

قلتُ لها:

ـ مرحباً يا بومة!

حدَّقَتْ بي ومرَّتْ بصمت.. أمسَكْتُ بها من الكَتِف:

ـ لا تخافي يا غبيَّة.. أين الكونت؟

أشارت العجوز لأُذُنيها.

ـ هل أنتِ صمّاء؟ منذ متى وأنتِ صمّاء؟!

المرأة العجوز، على الرغم من عمرها المتقدم، تسمع وترى بشكل ممتاز، لكنها تجد أنه لا بأس بالفِريَة على الحواس الخمس.. هدَّدْتُها بإصبعي وأفسحْتُ لها.

بعد أن مشيتُ بضع خطوات أخرى، تناهت لي أصواتٌ، وبعد ذلك بقليلٍ رأيتُ الناس. في المكان حيث اتسعت الدروب إلى منصة محاطة بمقاعد حديدية، وتحت ظل أكاسيا بيضاء مرتفعة كانت انتصبت مائدةٌ لمَعَ عليها السماور. كانوا يتحدثون بالقرب من الطاولة. سِرْتُ بهدوءٍ إلى الساحة، واختبأتُ خلف شجيرة ليلكي، وطفقت بالبحث بعيوني عن الكونت.

جلس صديقي، الكونت كارنيف، على طاولة في كرسي شبكي قابل للطَّيّ وهو يشرب الشاي. كان برداءٍ مزركش، رأيته فيه قبل عامين، وقبَّعة من القش. كان وجهه قلقاً، مركّزاً، مجعّداً، بحيث يمكن لشخصٍ لم يعرفه أن يعتقد أن فكرةً رصينةً تُعَذِّبُهُ في اللحظة الحاضرة.. لم يتغير ظاهريّاً على الإطلاق خلال فترة فراقنا الذي استمرّ عامين. ذات الجسم النحيف، جسم سائل ومترهل، مثل جسم كركي بري. وذات الأكتاف الضيقة التي يقوم عليها رأس أحمر صغير. ما يزال الأنف كالسابق ورديّاً، والخدَّين، مثل قبل عامين، تتدلَّى كخرق. لا شيء على الوجه.. جريء وقوي وشجاع.. كل شيءٍ ضعيفٌ ولا مبالٍ ومتراخٍ.

فقط الشارب الكبير يتدلَّى مهيباً. قال أحدهم لصديقي إن الشارب الطويل يُناسبه. ووثق به، والآن يقيس في كل صباح مدى النمو على شفتيه الشاحبتين. وهو يُشْبِهِ بهذه الشوارب، هِرّاً صغيراً ذا شارب، لكنه فتِيٌّ جداً وهزيل.

جلس بجانب الكونت على نفس الطاولة رجلٌ سمينٌ غير معروفٍ لي، ذو رأس كبير مقصوص، وحاجبين أسودين للغاية. كان وجهه دهنياً ولامعاً مثل البطيخ الناضج. وشارِبُهُ أطول من شارب الكونت، وجبْهَتُهُ ضيِّقة، وشفاهُهُ مضغوطة، وتطلَّعَتْ عيناه للسماء بخمول.. انفرجت أساريرُ وجْهِهِ، بيْدَ أنها قاسيةٌ، مثل الجلد المجفَّف. إنه شخصٌ غير روسيّ.. كان الرجل السمين من دون

سُتْرَةٍ ومن دون صديري، في قميصٍ فقط، كانت الأماكن المبللة عليه بالعَرَق، معتمة. إنه لم يشرب الشاي وإنما ماء السلتزر.

ووقف رجلٌ ربعَةٌ ذو قفا أحمر غليظ وآذان بارزة، على مسافة لا يُستهان بها من المائدة. كان هذا أوربينين ـ مدير ضيعة الكونت. وبمناسبة وصول صاحب السعادة ارتدى بذلةً جديدةً سوداء من قطعتين، ويُعاني الآن من الألم. تصبَّبَ العرق في تياراتٍ من وجْهِهِ الأحمر الذي لوَّنَتْهُ الشمس. وبجانب المدير وقف الرجل الذي جاء لي بالرسالة. عندها فقط لاحظتُ أن هذا الرجل أعور. انتَصَبَ مثل وتر، ولم يُسَوِّل لنفسه بأقل حركة، ووقف كتمثال، منتظراً الطلبات.

قال له المدير، بصوته المهيب والعميق الناعم، وهو يتوقّف بين الكلمات:

ـ يا ليتني يا كوزما آخُذُ سوطَك وأجلدك بعنف شديد، هل يمكن تنفيذ أوامر السيد بمثل هذا الإهمال؟ كان عليك أن تسألهم المجيء على الفور إلى هنا، وأن تعرف متى بالضبط بوسعهم أن يصلوا..!

ومن جِهَتِه بادر الكونت بعصبية:

ـ بلى.. بلى، كان عليك أن تعرف كل شيء! هو قال: سأكون! ولكن هذا غير كافٍ! أنا بحاجةٍ له الآن! حتماً الآن! أنت سألته، بَيْدَ أنَّهُ لم يُفْهِمْك!

وسأل السمينُ الكونت:

ـ لأي غرضٍ أنت بحاجةٍ له؟

ـ ينبغي عليَّ أن أراه!

ـ فقط لهذا الغرض؟ ولكن برأيي، أن ألكسي، محققك هذا، يفعل خيراً لو جلس في منزله. لستُ فارغاً للضيوف.

اتسعت عيناي. ماذا كان يعني بهذه «أنا»؟ التي نطقها كسيّدٍ بلهجةٍ آمِرَة.

وقال صديقي بصوتٍ متوسِّلٍ:

ـ ولكنه ليس ضيفاً! لن يمنعك من الراحة بعد الطريق الذي قطَعْتَهُ. من فضلك لا تُجامِلْه! سترى أيَّ نوعٍ من الأشخاص هو! سوف تُحِبُّهُ وتُصادِقُهُ على الفور، يا عزيزي!

خرجتُ من خلف شجيرات الليلك وتوجَّهْتُ إلى الطاولة. رآني الكونت، وتعرَّفَ عليَّ، فتهلَّلَ وجهُهُ الذي بدأت تلعب عليه الابتسامة. تحدّث، وقد احمَرَّ من شدة السرور، وقفز من على الطاولة.

ـ ها هو! ها هو! كم هو لطفٌ منك!

وركض إليَّ، قفَزَ، وعانقني فخدش بشاربه القوي خدّي عدّة مرات. وأعقبت القبلات مصافحةٌ طويلةٌ، وتحديقٌ في عينيَّ.

ـ وأنت، سيرجي، لم تتغيّر على الإطلاق! كما كنت! نفس الرجل الوسيم والقوي! شكراً لك على الاحترام والمجيء!

بعد أن حرَّرْتُ نفسي من أحضان الكونت، سلمتُ على المدير، فقد كان من معارفي الجيّدِين، وجلستُ خلف المائدة.

وتابع الكونت الذي ساوَرَهُ القلق والفرح:

ـ آه يا عزيزي! لو تعرف كم يحلو لي أن أرى وجهك الجاد! ألم تتعرف؟ اسمح لي أن أقدّم لك: صديقي العزيز كانتان كازيميروفيتش بشيخوتسكي. وهذا ـ وتابعَ الكونت وهو يشير باتّجاهي للرجل السمين ـ هو صديقي القديم الطيب سيرجي بتروفيتش زينوفييف! المحقق المحلّي...

رفع الرجل السمين ذو الشعر الأسود نفسَهُ قليلاً، ومدّ لي يدَهُ الدهنية التي تفصَّد منها العرق بشكلٍ مريعٍ.. وتمتم وهو ينظر إليّ:

ـ يطيب لي جداً، سعيد جداً.

وبعد أن أفاض بمكنون مشاعره وهدأ، صبّ لي الكونت قدحَين من الشاي الأحمر والبُنّي البارد، ودفع نحوي بيدَيْه بعلبة تحتوى على المعجّنات.

ـ كُلْ.. اشتريتُها من محلات أينيم عندما مررتُ بها في طريقي بموسكو. أنا غاضبٌ منك يا سيريوجا، غاضبٌ إلى درجةٍ أريدُ

معها أن أتشاجر معك. ففضلاً عن أنك لم تكتب سطراً واحداً خلال هذين العامين، ولكن حتى لم تكلّف نفسك عناء الردّ على أي رسالةٍ من رسائلي! هذ تصرُّفٌ غير ودود!

قلت له:

ـ أنا لا أعرف كيف أكتب الرسائل، وبالمناسبة ليس لديَّ وقتٌ للمراسلة أيضاً. وقل لي من فضلك، عن ماذا بِوُسْعي أن أكتب لك؟

ـ وما أهمية عن ماذا؟

ـ في الحقيقة أنا أعترف فقط بثلاثة أصناف من الرسائل: الحب والتهنئة والأعمال. ولم أكتبِ الأولى لأنك لست امرأة وأنا لم أقع في حبّك، وأنت لست بحاجة إلى الثانية، ونحن معفيّان من الثالثة، حيث لم تكن لدينا أعمال مشتركة منذ أن خُلِقْنا.

وافق الكونت بسرعة، فهو يوافق الجميع عن طيب خاطر، وأردف:

ـ لنفترض هذا، ولكن مع ذلك كان بوسعك أن تكتب ولو سطراً.. ومن ثمّ كما قال بيوتر يجوريتش إنك طيلة العامين لم تأتِ مرةً واحدةً إلى هنا، كما لو كنت تسكن على بعد ألف فيرست من هنا، أم تأنف وتشمئز من ممتلكاتي. كان بميسورك أن تقيم هنا، تمارس الصيد. علاوةً على أنه قد يحدث شيءٌ ما هناك أثناء غيابي!

يتحدث الكونت كثيراً وطويلاً، وبمجرد أن يبدأ بالكلام عن

شيءٍ ما، فإنه يهذر بلسانه من دون انقطاع، ومن دون نهاية، بغضّ النظر عن مدى ضحالة الموضوع وتفاهَتِه.

كان مثل ببّغائي إيفان ديمابيتش لا يعرف الكلل من نُطْق الحروف. وبالكاد كنت أستطيع تحمُّلَهُ لهذه القدرة. أوقَفَهُ هذه المرة الخادم إليّا، وهو شخصٌ طويلٌ نحيفٌ يرتدي زيّاً خاصّاً بالخدم مبتذلاً حرشفيّاً، جاء حاملاً للكونت على صينية فضيَّة قدحاً صغيراً من الفودكا ونصف قدحٍ من الماء، شَرِبَ الكونت الفودكا، وأخذ عليها الماء، وبعد أن انقبَض وجهُهُ هزَّ رأسَهُ.

وقلت له:

ـ ألم تُقْلِع عن عادة شُرْب الفودكا بلا مناسبة.

ـ لم أُقلع يا سيريوجا!

ـ على الأقل أقْلِعْ عن عادة السكّير الذي عندما يشرب يتجعّد وجهه، ويهزّ رأسه! إنَّهُ شيءٌ يدعو للاشمئزاز..

ـ عزيزي، سأُقلِع تماماً.. منعني الأطباء من الشراب. أنا أشرب الآن فقط، لأنه من غير الصحّيّ الإقلاع عن الشرب دفعةً واحدةً.. يجب أن يكون بالتدريج.

نظرتُ إلى وجْهِ الكونت المريض المُنْهَك، وإلى قَدَح الفودكا، وإلى الخادم في الحذاء الأصفر، ونظرتُ إلى البولوني ذي

الحواجب السوداء، الذي لاحَ لي منذ الوهلة الأولى، ولسببٍ ما، إنه وغدٌ ومحتالٌ، وإلى الرجل الأعور، وانتابتني عاصفةُ شعورٍ فظيعٍ، وأحسستُ بالاختناق. وبغتةً داهمتني الرغبة بأن أنصرف من هذا الجَوّ القَذِر، وأسبقه بفتح عيون الكونت على كل حنَقِي ونفوري اللامحدود.. كانت لحظةً، كنت فيها على استعدادٍ بالفِعْل للنهوض والانصراف. ولكنني لم أنْصَرِف.. منَعَنْي (وأعترف بخجلٍ) كَسَلٌ بَدَنيٌّ عاديّ.

وقلتُ لإليّا:

ـ أعطِني فودكا!

بدأتْ الظلال المستطيلة في السقوط على الدرب، وعلى ساحتنا. رحَّبَ نقيقُ الضفادع الذي تناهَى من بعيد، ونعيق الغربان وغناء الأوريولز بغروب الشمس. حلَّ مساءٌ ربيعيٌّ.. همستُ للكونت:

ـ أُدْعُ أوربينين للجلوس، إنه يقف أمامك مثل صبيٍّ.

وتوجَّهَ الكونت إلى المدير:

ـ آه، أنا نفسي لم أكن ألتفت! بيوتر.. إيجورتش اجلسوا من فضلكم! كفاكم وقوفاً!

جلس أوربينين ونظَرَ إليَّ بامتنان. بيوتر إيجورتش الذي كان دوماً مُعافىً ومبتهجاً، بدا لي هذه المرة مريضاً ويشعر بالملل.

كان وجهُهُ متغضِّناً بوضوحٍ، وناعساً، ونظرَتْ عيناهُ إلينا بكسل، وعلى مضض.

وسأله كارنيف:

ـ ما الجديد لدينا؟ ما الجديد؟ أليس هناك شيءٌ.. خارجٌ عن المألوف؟

ـ كل شيءٍ كما كان من قبل، يا صاحب السعادة.

ـ أليس.. هناك فتيات جديدات، يا بيوتر إيجورتش؟

خجِلَ بيتر إيجورتش المتمسِّك بالأخلاق.

ـ لا أعرف، يا صاحب السعادة.. أنا لا أهتم بهذا.

قال كوزما الأعور الذي ظل صامتاً قبل ذلك، بصوتٍ عميقٍ:

ـ بلى، سعادتك، وحتى تستحقّ عنايتكم جداً.

ـ حسناوات؟

ـ هناك كل الأنواع من الفتيات يا صاحب السعادة لكلِّ ذوق.. السمراوات والشقراوات وكل الأنواع.

ـ أوه أنت! مهلاً، مهلاً.. أتذكُّرَك الآن.. يا ليبوريلو السابق، سكرتير في هذا الجانب.. يبدو اسمك كوزما؟

ـ بالضبط هو..

ـ أتذكَّر، أتذكَّر.. هل في ذهنك واحدةٌ ملائمةٌ؟ ربما الجميع سوقيّات؟

ـ الأغلبية كما هو معروفٌ سوقيّات، ولكن هناك أيضاً أفضَل وأجمل.

سأل إيليّا، وهو يُحَدِّق في عيون كوزما:

ـ أين وجدْتَّهُنَّ، أنظف وأجمل؟

ـ وصلت أخت زوج رئيس مكتب البريد في عيد القديس.. ناستيا إيفانّا.. الفتاة كلها نشاط وحيوية، كنتُ سآخُذُها لنفسي، لكن يلزم مال.. الدم يتدفق في جميع أنحاء الخَدّ، وما إلى ذلك.. بل وهناك أفضل وأكثر حُسْناً. قد انتَظَروكم فقط يا صاحب السعادة. شابّة، لدنة، حيوية. صورة من بديع الحسن! يا لَهُ من جمال، يا صاحب السعادة، لا يمكن رؤية مثله في بطرسبورغ.

ـ من هي؟

ـ أولينكا، ابنة مهندس الغابة سكفورتسوف.

بدأ كرسي أوربينين يصرصر. نهض المدير ببطءٍ وهو يسند يديه على الطاولة، وقد أصبح لونُهُ قرمزيّاً، واستدار بوجهه إلى الرجل الأعور. وحلَّ الغضب الشديد محلّ التعبير عن التعب والملل.. وقال متذمِّراً:

ـ اخرس، أيها الجلف، الأعور الدنيء!.. قل ما يحلو لك، ولكن لا تجرؤ على المساس بالناس المحترمين!

قال كوزما بهدوءٍ:

ـ أنا لا أمسُّكُم يا بيوتر إيجوريتش.

ـ أنا لا أتحدث عن نفسي، أيها الأحمق!

وتوجَّهَ المدير نحو الكونت:

ـ على أيّ حال.. اصفح عني يا صاحب السعادة، سامحني على هذا المشهد، لكنني أطلب من سعادتكم منع ليبوريلو، كما تفضَّلْتُم بتسميَتِه، من أن يبذل جهوده على أشخاصٍ يستحقون كل الاحترام!

وتمتم الكونت الساذج:

ـ أنا لا شيء.. إنه لم يقُلْ شيئاً غريباً وخصوصيّاً.

ابتعد أوربينين عن الطاولة مستاءً ومضطرباً إلى أقصى حد، ووقف وجانبُهُ لنا. وشبَّكَ ذراعيه على صدْرِه وهو يرمش بعينيه، أخفَى وجهَهُ القرمزي عنّا خلف غصن شجرة وغرِقَ في التفكير.

ألـم يُرهص هذا الشخص بأنه سيتعيّن على شعوره الأخلاقي في المستقبل القريب التعرُّض للإهانات أكثر من ألف مرة؟

همس لي الكونت:

ـ لا أفهم لماذا استاءَ! يا لَهُ من غريب الأطوار! بعد كل شيء، لم يُقَلْ شيءٌ مُسِيءٌ..!

بعد عامين من الإقلاع عن المُسْكرِات، أسكَرَني قدحُ الفودكا قليلاً. سرى في دماغي، وفي جميع أنحاء جسدي الشعور بالخِفَّة والمتعة. وبالإضافة إلى ذلك، بدأتُ أشعر ببرودة المساء، التي حلَّت تدريجياً محل الشعور بالتعب في النهار. عرضتُ على الحاضرين الذهاب في نزهة، جلبوا من المنزل معاطف الكونت وصديقه الجديد ـ البولوني، وذهبنا. تبِعَنا أوربينين.

تستحق حديقة الكونت، التي مشينا فيها، بحكم نضارتها المذهلة، وصفاً خاصاً ومميزاً، من ناحية المجالات النباتية والاقتصادية، وفي العديد من النواحي الأخرى، فهي أغنى وأعظم من جميع الحدائق التي رأيتها على الإطلاق. بالإضافة إلى الدروب الشاعرية ذات الأقواس الخضراء الموصوفة أعلاه، ستجدون فيها كل ما يمكن أن تطلبه نظرة شخصٍ صاحب نزواتٍ ومدلَّل. هنا جميع أنواع أشجار الفاكهة، المحلية والأجنبية، تبدأ من الكرز والخوخ وتنتهي بأشجار ضخمة، مع بيض الإوز والمشمش. وفي كل خطوة تَرَوْنَ هناك التُّوت، والبرباريس، وأشجار البرغموت الفرنسية وحتى الزيتون الأسود. وهنا كذلك مغارات متهالكة مغطاة بالطحالب، ونوافير وبِرَك مصممة للأسماك الذهبية والشبوط

اليدوي، والجبال، والعرائش، والبيوت الزجاجية باهظة الثمن. لقد جرى إهمال هذه النعمة النادرة، التي جمَعَتْها أياذي الأجداد والآباء، وهذه الثروات الكبيرة المفعمة بالورود والمغارات الشاعرية والدروب اللانهائية، بصورة وحشيّة وسُلِّمَت لسلطة الأعشاب والفأس الوحشي والغربان، التي علقت أعشاشها القبيحة على الأشجار النادرة! وكان المالك الشرعي لهذه الممتلكات يسير بجانبي، ولم تجفل إحدى عضلات وجهه المخمور والمتخم عند رؤية انعدام الاهتمام، وسيادة الإهمال البشري الصارخ، كما لو أنه لم يكن صاحب الحديقة. أشار مرةً واحدةً فقط ـ لشعوره بالفراغ ـ على المدير أنه لن يكون سيئاً إذا تمَّ رَشّ الدروب بالرمل. ولفت الانتباه إلى انعدام الرمال، التي في الحقيقة لا يحتاجها أحد، ولم يلاحظ الأشجار العارية، التي ماتت خلال الشتاء البارد، والأبقار التي تتسكع في الحديقة. وردَّ أوربينين على ملاحظته أنه من أجل الإشراف على الحديقة، يجب أن يكون هناك عشرة عاملين، وبما أن صاحب السعادة لا يعيش في ضيعته، فإن تكلفة الحديقة بذخٌ غيرُ ضروريّ وغير مُنْتِج. وافق الكونت، بالطبع، على هذه الحجّة.

ولوَّح أوربينين بيده، وأردف:

ـ علاوةً على ذلك، أعترف بأنه ليس لديَّ وقتٌ للحديقة، ففي الصيف أكون في الحقل، وفي فصل الشتاء في المدينة، لبيْعِ الحبوب.

تجلّى في الدرب الذي يُسَمّى «الرئيسي» سِحْرُ الحديقة الذي تألّفَ من أشجار الزيزفون العتيقة العريضة، وكتلة الزنبق التي تمتد بكامل طولها بخطّين مرقّشَين، وانتهى على بُعْد ببقعةٍ صفراء. كانت هذه عريشة من الحجر الأصفر، حيث كان يوجد في السابق بوفيه مع منضدة بلياردو، ولعبة تسعة أوتاد ولعبة صينية. ذهبنا بلا هدف إلى هذه العريشة.. عند مدخلنا قابلنا مخلوقاً حيّاً، كَدَّرَ إلى حدٍّ ما أعصاب رفاقي اللّذَين تعوزهما الشجاعة.

فجأةً زعق الكونت وهو يمسك بيدي، وقد امتقع وجهه:

ـ ثعبان! انظر!

تراجَعَ البولوني خطوةً إلى الوراء، ونشر ذراعيه، كما لو كان يسد الطريق على شبح.. كان ثعباناً صغيراً من سلالة الأفاعي الروسية العادية، يتمدَّد على الدرجات العُليا من السُّلَم نصف المهدم. وعند رؤيتنا، رفع رأسه وطفق يتحرك.. زعق الكونت مرةً أخرى واختبأ خلف ظهري.

قال أوربينين بخمول بعد أن رفع قدمه إلى الخطوة الأولى:

ـ لا تخف يا صاحب السعادة!

ـ وإذا لدغني؟

ـ إنها لا تلدغ، وبالفعل، فإن الضرر الناتج عن لدغ هذه

الثعابين مبالغٌ فيه. لقد تعرضتُ للَّدْغِ من قِبَل أفعى عجوز، ولم أمُتْ، كما ترون.

لم يلبث أن قال أوربينين بنبرة الوعظ الأخلاقي وهو يتنهّد:

ـ اللدغة البشرية أخطر من لدغة الأفعى!

وحقاً؛ قبل أن يتمكن المدير من الصعود على درجتين أو ثلاث درجات، امتد الثعبان بكامل طوله، وبسرعة البرق اختفى في الفجوة بين اللوحين. عند دخولنا إلى العريشة، رأينا كائناً حيّاً آخر. حيث استلقى رجل عجوز قصير القامة في سُتْرَة راكب فرس في سباقات الخيل زرقاء وسروال مخطط، على طاولة البلياردو ذات القماش الممزّق، الذي تغيَّرَ لونُهُ. نام بهدوءٍ واطمئنان. وتصرَّفَ الذباب كما يشاء حول فَمِهِ ـ الخالي من الأسنان ـ الشبيه بالفوَّهَة وعلى أنْفِهِ الحاد. كان شبيهاً بهيكلٍ عظميٍّ بفمٍ مفتوحٍ وغير متحرِّك، بدا كجثةٍ أُحْضِرَت للتَّو من قبو الموتى لتشريح الجُثَّة.

دفَعَهُ أوربينين:

ـ فرانتس! فرانتس!

بعد خمس أو سِتّ صدمات، أغلق فرانتس فمَهْ، ونهض. مَسَحَنا جميعا بنظراته، واضطجع مرةً أخرى. بعد دقيقة، انفتح فمُهُ مرةً أخرى، وأزعج الارتجاف الطفيف من الشخير الذبابَ الذي حام حول أنفِهِ مرةً أخرى.

وتنهّد أوربينين:

ـ إنه نائم، الخنزير الداعر!

وسأل الكونت:

ـ يبدو أن هذا هو البستاني لدينا تريخر؟

ـ هو بالضبط، هكذا مثل كل يوم، ينام مثل الرجل الميت خلال النهار، ويلعب الورق طيلة الليل. اليوم، يقولون إنه لَعِبَ الورق حتى السادسة صباحاً.

ـ ماذا يلعب؟

ـ في القمار.. على الأغلب لعبة «ستوكولكا» التي تقضي بنقر اللاعب بإصبعه على المائدة مع كل حركة.

ـ حسناً، هؤلاء السادة لا يقومون بعملٍ نافعٍ. إنهم يحصلون على راتبٍ مقابل لا شيء.

قال أوربينين:

ـ لم أخبركم، يا صاحب السعادة بهذا، من أجل الشكوى أو التعبير عن عدم الرضا، ولكن بهذه الطريقة كنت فقط أُعْرِب عن الأسف على مثل هذا الشخص الموهوب الذي استحوذ عليه ولَعُ لَعِبِ القمار. إنه رجل كادح، لا بأس به. لا يأخذ راتباً من دون مقابل.

ألقينا نظرةً أخرى على المقامر فرانتس وغادرنا العريشة. وتوجّهنا من هنا إلى بوابة الحديقة التي تنفتح على الحقل الفسيح.

في أي رواية نادرة تلعب بوابة الحديقة دوراً رصيناً. إذا لم تكونوا قد لاحظتم ذلك بأنفسكم فاستشيروا خادمي بوليكارب، الذي ابتلع في حياته الكثير من الروايات المرعبة وغير المرعبة، وربما سيؤكد هذه الحقيقة غير المهمة، ولكنها لا تزال مميزة.

كما أن روايتي لم تتخلّص من البوابة. لكن بوابتي تختلف عن الأخريات في أنه سيتعيَّن على قلمي أن يرسم من خلالها العديد من الأحداث التَّعيسة، وليس ثمة واحدة منها سعيدة تقريباً، وهو ما يحدث في الروايات الأخرى فقط بالترتيب العكسي. والأسوأ من ذلك كله، كان عليّ أن أصِفَ ذات مرةٍ هذه البوابة، ولكن ليس كروائي، بل كمحقق في الطب الشرعي. وفي روايتي سيمر من خلالها المجرمون أكثر من العشّاق.

بعد ربع ساعة، ونحن نتوكّأ على العصيّ، صعدنا متثاقِلي الخُطَى على الجبل الذي يُطْلَق عليه لدينا القبر الحجري. هناك أسطورة تدور في القرى عن أن تحت هذه الكومة الحجرية تكمن جثة خان التتار، الذي كان يخشى من أن ينتهك الأعداءُ بعد وفاته حرمَةَ رُفاتِه، لذلك أوصى بردْم قبْرِهِ بجبلٍ من الحجر. لكن هذه الأسطورة بالكاد تكون حقيقيةً.. إنّ طبقات الحجر، وموقعها

وحجومها المتبادلة، تستثني تدخُّل الأيدي البشرية في أصل هذا الجبل. إنه يقف وحيداً في الحقل شبيهاً بقبَّعَةٍ مقلوبة.

عندما صعدنا عليه، شاهدنا البحيرة بأسْرِها، بكامل عرضها الساحر والجمال الذي لا يُوصَف. لم تعد الشمس تنعكس على سطحها، غربت وتركت خلفها شريطاً قرمزيّاً عريضاً، وعَمَّدَت المنطقة المحيطة بلون أصفر ورديٍّ بديع. عند أقدامنا امتدت ضيعة الكونت مع منزله وكنيسته وحديقته، وفي المسافة الأبعد، على الجانب الآخر من البحيرة، قامت قرية رمادية، كان فيها، بترتيب القَدَر، مكان إقامتي. كان سطح البحيرة لا يزال بلا حراك. انطلقت قوارب ميخا القديمة وهي منفصلة عن بعضها البعض، إلى الشاطئ.

على الجانب الآخر من قريتي خيَّمَ ظلام محطة القطار بدخان من القاطرة، وخلفَنا في الجانب الآخر من جبل المقبرة الحجرية اتسعت صورة جديدة. عند سفح المقبرة، امتدَّت طريقٌ اصطفَّت على جانبيها أشجار حور عتيقة، وأدّى هذا الطريق إلى غابة الكونت، التي امتدت حتى الأفق.

وقفت أنا والكونت على الجبل، فقد فضَّل أوربينين والبولندي ـ وهما شخصان ثقيلان ـ انتظارَنا في الأسفل، على الطريق.

ـ من هذ الشخص ذو المقام العالي؟ ـ سألت الكونت، وأنا أشير برأسي إلى البولندي ـ أين التقَطْتَهُ؟

طفقَ الكونت بالكلام قلِقاً:

ـ هذا رجلٌ لطيفٌ جداً، سيريوجا، لطيف جداً! ستقيمون صداقات معه قريباً!

ـ حسناً، هذا بعيد الاحتمال. لماذا هو صامت طيلة الوقت؟

ـ بطبيعته، صامت! لكن يا لَهُ من ذكي!

ـ أي نوعٍ من الرجال هو؟

ـ تعرَّفْتُ عليه في موسكو. إنه لطيفٌ للغاية. لاحقاً ستعرف كل شيء يا سيريوجا، لا تسأل الآن، لنهبط.

هبطنا من الجبل أو القبر، وذهبنا على طول الطريق إلى الغابة. خيَّمَ الظلام بشكلٍ ملحوظٍ. وترامى من الغابة صوت طائر الوقواق، وصوت مرتعش من عندليب مرهق، على الأرجح فتيّ.

وعند اقتربنا من الغابة، سمعنا صوتاً طفوليّاً رناناً:

ـ آو! آو، اقبضوا عليّ!

ركَضَتْ من الغابة فتاةٌ صغيرةٌ ذات رأس أبيض مثل كتّان في ثوب أزرق، لها حوالي خمس سنوات. عند رؤيتها لنا، ضحكت بصوت رنان، قفزت نحو أوربينين وعانَقَتْ رُكْبَتَهُ. رفعها أوربينين وطبَعَ قبلةً على خَدّها.

وقال:

ـ ابنتي ساشا!.. أقدِّمُها لكم.

لاحَقَ من الغابة نجلُ أوربينين، تلميذ الجيمنازيا، الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، أختَهُ ساشا. عند رؤيتنا، خلَعَ قبَّعَتَهُ بتردد، ووضعها على رأسه ونزعها مرةً أخرى. تحرّكت بقعةٌ حمراء بهدوءٍ خلفه. جذبت هذ البقعة انتباهنا على الفور.

هتف الكونت بصوت مندهش، وقد أمسك بيدي.

ـ يا لها من رؤية بديعة! ألْقِ نظرةً إليها! يا لها من فتنة! أيُّ نوعٍ من الفتيات هذه؟ لم أكن أعلم أن مثل هذه الحوريات تعيش في غاباتي!

رمقتُ أوربينين لأستفسر عن نوع الفتاة التي كانت، والغريب، في تلك اللحظة فقط لاحظتُ أن المدير كان مخموراً بشكل فظيع. كان أحمرَ كسرطانٍ نهريّ، تأرجَحَ وأمسَكَ بمِرْفَقي.

همس في أذني، وغمرني برائحة الكحول:

ـ سيرجي بتروفيتش! أتضرع إليكم، امنعوا الكونت من إبداء ملاحظاتٍ أخرى حول هذه الفتاة. فمن دأبه أن يقول الكثير، وهذه شخصية جديرة بمستوى رفيعٍ من الاحترام!

وكانت «الجديرة بمستوى رفيع» فتاةً لها من العمر حوالي

تسعة عشر عاماً، ذات شعر رأس أشقر جميل، وعينين زرقاوين ساحرتين، وشعر مجعّد طويل. ترتدي فستاناً أحمرَ ساطعاً نصْفُهُ طفوليّ، ونصفه لفتاة ناضجة. رشيقة القوام مثل رُمْح، تسربلت قدماها في جوارب حمراء، وحذاء صغير تقريباً للأطفال. وطيلة ما كنتُ أتطلّعُ إليها، كانت كَتِفَاها المستديرتان ترتعشان بغَنَج، كما لو إنهما مقرورتان، وكما لو أن نظري قد عضَّهُما.

وهمس لي الكونت الذي فقد في شبابِهِ القدرة على احترام النساء، والنظر إليهِنَّ حصراً من زاوية فسادِ خُلُقٍ حيوانيّ:

ـ بهذا الوجه الشاب، وهذا الشكل النامي!

لكنني، أتذكر، أن شعوراً كريماً غمر صدري. كنت ما أزال شاعراً، وكان بوسعي أن أنظر، في حضرة الغابات، وفي مساء من شهر مايو، وقد بدأ نجم المساء في الوميض، إلى امرأةٍ، نظرةً شعريةً فقط.. رمقتُ الفتاة في الأحمر بنفس التبجيل الذي اعتدتُ النَّظَر به إلى الغابات والجبال والسماء اللازوردية. في ذلك الوقت كان ما يزال لديَّ بعض المشاعر التي ورثْتُها عن أمي الألمانية.

سأل الكونت:

ـ من هذه؟

أوضَحَ أوربينين:

ـ هذه هي ابنة مدير الغابة سكفورتسوف، معاليكم!

ـ هل هذه هي أولينكا التي كان يتحدَّث عنها الرجل الأعور؟

أجاب المدير وهو ينظر بتوسُّلٍ بعيونٍ واسعةٍ:

ـ نعم، ذَكَرَ اسمها.

أفسحت الفتاةُ في الأحمر الطريقَ لنا، وعلى ما يبدو لم تُعِرْنا أيَّ اهتمام. شمَّرَت بعينيها إلى مكانٍ ما في الجانب، ولكنني، كرجلٍ عارفٍ بالنساء، شعرتُ بحديقَتَيها على وجهي.

سمعْتُها تهمسُ خلفنا.

ـ من منهم الكونت؟

أوضَحَ طالب المدرسة المتوسِّطَة:

ـ ذو الشارب الطويل.

وسمعنا خلفنا ضحكةً فضّيّة، كانت ضحكةً تنُمُّ عن خيبة أمل. ظنَّتْ أن الكونت، صاحب هذه الغابات الضخمة والبحيرة الواسعة، هو أنا، وليس هذا القزم ذا الوجه المخمور والشارب الطويل.

تناهى لي تنهُّدٌ عميقٌ يخرجَ من صدر أوربينين المترهّل. كان الرجل الحديدي بالكاد يتحرّك.

همستُ للكونت:

ـ اصرف المدير، إنه مريضٌ أو سكران.

التفت المدير إلى أوربينين:

ـ بيوتر إيجوريتش يبدو أنكم متعبون! أنا لستُ بحاجة لكم، لذلك بوسعكم أن تنصرفوا.

ـ لا تقلقوا يا صاحب السعادة. شكراً لكم على اهتمامكم، لكنني لست مريضاً.

جُلْتُ بالنظر من حولي.. البقعة الحمراء لم تتحرك، وراحت تتطلّع في أثَرِنا. يا للفتاة المسكينة ذات الشعر الأشقر! هل خطر على بالي في ذلك المساء الهادئ من شهر مايو، أنها ستصبح لاحقاً بطلة رواياتي المتوتِّرَة؟!

الآن، وفيما أنا أكتب هذه السطور، يطرق مطرُ الخريف بعنفٍ نوافذ منزلي الدافئة، فيما الريحُ تعوي في مكانٍ ما فوقي. أنظر إلى النافذة الداكنة، وعلى خلفية ظُلْمَة الليل، أحاول بقوة الخيال خلْقَ بطَلَتي العزيزة.. وأراها بوجهها الطفوليّ الساذج الطيب، وعينيها المُحِبَّتَين. وتستبد بي رغبةٌ في إلقاء الريشة ـ القلم، وتمزيق وحرْق كل ما كتبْتُهُ. لماذا ألمَسُ بذِكْرى هذا الكائن الفتيّ الطاهر؟

ولكن بجوار محبَرَتي مباشرةً تنتصب صورتها الفوتوغرافية. هنا الشعر الأشقر معروضٌ بكل بهرجة امرأةٍ جميلةٍ ساقطةٍ للنهاية. عيون، متعَبَة، ولكن فخورةٌ بالفسوق، بلا حراك. هنا هي بالضبط تلك الأفعى، التي بالكاد سيقول أوربينين إن ضرر لدْغِها مبالغٌ فيه.

إنها كزهرةٍ مَنَحَتْ العاصفةَ قُبلَةً، فقلعت العاصفة الزهرةَ من جذرها. لقد أخذتُ الكثير، ولكن بثمنٍ باهظٍ للغاية، ومدفوع. ليغفر القارئ لها خطاياها.

ذهبنا عبر الغابة.. أشجار الصنوبر مُمِلَّة بصمتها الرتيب. كلها بذات الارتفاع، متشابه مع بعضها البعض الآخر، تحتفظ بمظهرها في جميع فصول السنة، ولم تعرف الموت أو التجدُّد الربيعي. لكن من ناحية أخرى، إن كآبتها جذّابة: إنها جامدة بلا حراك، بلا ضوضاء، كما لو كانت تتفكَّر في فكرةٍ حزينةٍ.

واقترح الكونت:

ـ ألا ننقَلِبَ على أعقابنا؟

لم تكن هناك إجابة على هذا السؤال. وكان الأمر سيّان بالنسبة للبولوني، ولم يعتبر أوربينين أن صوتَهُ حاسمٌ، وأنا لم أُرِدْ العودة لأني كنت مسروراً جداً ببرودة الغابة والهواء المشبع بالقطران. بالإضافة إلى ذلك، كان من الضروري قتل الوقت حتى هبوط الليل بشيءٍ ما، على الأقل بنزهة بسيطة، وصاحبَ فكرة اقتراب الليل الموحش، معاناة قلب عذْبَة. اعترفتُ بخجلٍ، بأنني حلمتُ بها، وفكريّاً انتظرتُ متعتها مسبقاً. لذلك فإن نفاد الصبر الذي نظر فيه الكونت إلى ساعته، وشَى بأن الانتظار يُعَذِّبُهُ. لقد شعرنا بأننا نفهم بعضنا البعض.

قابلنا بالقرب من مدير الغابة، الكائن بين أشجار الصنوبر على مساحةٍ مربَّعَةٍ صغيرةٍ، نباحُ رنين رخيم لكلبين صغيرين من لون أصفر ـ ناريّ، إنها من سلالة غير معروفة بالنسبة لي، مرنة مثل ثعابين البحر ولامعة. وبعد أن عرَفَتْ أوربينين راحت تهزّ ذيولَها بمرحٍ وركضَتْ إليه، مما يُستَنتَج أن المدير غالباً كان يزور منزل مدير الغابة. هناك، بالقرب من المنزل، قابلنا رجلٌ حاسر الرأس حافي القدمين، منتَفِخ العينين، انتشر على وجهه المندهش، نَمَشٌ كبيرٌ. حدَّقَ بنا لمدة دقيقة من دون أن ينبسَ بكلمةٍ، ثم، على الأرجح عرف الكونت، فاندفع لاهثاً إلى داخل المنزل.

ضحِكَ الكونت:

ـ أعرف لماذا ركض.. أتذكَّرُهُ.. هذا ميتكا.

لم يُخطئ الكونت. عقب أقل من دقيقةٍ، خرج ميتكا من المنزل، حاملاً على صينيةٍ كوباً من الفودكا، ونصف كوبٍ من الماء.

قال وهو يقدّم ويبتسم بكامل وجهِهِ الأبلَه المندهش:

ـ بصحَّتِكُم الطيبة، يا صاحب السعادة.

شَرِبَ الكونت الفودكا، «وتمزَّزَ» بالماء، لكن هذه المرة لم يتقبَّض وجْهُهُ. على بُعْدِ مئة خطوة من المنزل كان هناك مقعدٌ حديديٌّ طويلٌ قديمٌ قِدَم الصنوبر. جلسنا عليه وبدأنا نتأمّل مساء

مايو بكل جمالِهِ الهادئ. طارت الغربان الخائفة فوق رؤوسنا، وهي تنعق، ومن مختلف الاتجاهات تناهَى غناءُ البلابل، وهذا فقط مزَّقَ الهدوء الشامل.

لا يعرف الكونت كيف يكون صامتاً حتى في أمسيةٍ ربيعيّةٍ هادئةٍ، عندما يكون الصوت البشري أقل لطفاً.. التَفَتَ إليَّ:

ـ لا أعرف إذا ما ستكون راضياً؟ طلبتُ للعشاء شوربة من فرخٍ نهريٍّ وطَيْر. بالنسبة لمَزَّة الفودكا، سيُقدَّم سمك الحفش البارد وخنزير صغير مع الفجل.

كما لو أنها غضِبَتْ من هذا الكلام العادي، بدأت أشجار الصنوبر الشاعرة فجأةً في تحريك قممها، معبِّرَةً عن تذمُّرٍ هادئٍ. وسرى نسيمٌ منعشٌ في ممرات الغابة، وتمايل العُشْب.

صاح أوربينين بالكلاب الصغيرة ذات اللون الناريّ، التي عرقلت بمداعباته، إشعالَ سيجارته:

ـ يكفي لَكُنَّ! ولكن يبدو لي أنها ستمطر اليوم. أشعر بهذا في الهواء.

كانت الحرارة مرتفعةً اليوم لدرجة فظيعة، ليس بالضرورة أن تكون بروفيسور وعالماً كي تتنبّأ بالمطر. وسيكون هذا جيداً بالنسبة لمزروع الحنطة. فكرتُ.. «لماذا تريد الحنطة، إذا كان الكونت سينفق عوائدها؟ ولا حاجة للمطر أن يكدح».

مرةً أخرى، هبَّت الريح عبر الغابة، ولكن هذه المرة بشكلٍ أكثر حِدَّة. غمغمت أشجار الصنوبر والعشب، بصوتٍ مرتفعٍ.

ـ لنذهب إلى المنزل.

نهضنا بتثاقُلٍ، وقفلنا عائدين إلى المنزل.

التفتُّ إلى أوربينين قائلاً:

ـ من الأفضل أن أكون محلَّ هذه الشقراء أولينكا، وأعيش هنا مع الحيوانات، من أن أكون محقِّقاً قضائيّاً وأعيش مع الناس. إن نمط الحياة هذا أكثر هدوءاً. أليس كذلك، يا بيوتر يجوريفتش؟

ـ مهما يكُنْ المرء، المهم أن تكون روحه مطمئنة، يا سيرجي بتروفيتش.

ـ وهل روح أولينكا الجميلة هذه مطمئنة؟

ـ الربُّ وحده يعرف، إنها روحٌ غريبةٌ، ولكن يبدو لي أنه ليس لديها ما يدعو للقلق. ليس لديها الكثير من الأحزان، وخطاياها كما هي لدى أيّ صبيَّة. هذه فتاة جيدة جداً! ولكن في النهاية، بدأت السماء تُنبئ بالمطر.

تردَّدَتْ قرقعةُ عربةٍ غير بعيدة، أو لعبة بولينج. دوّى رعدٌ في مكان بعيد الغابة. ميتكا، الذي كان يسير طوال الوقت في أثرنا، جفلَ ورسَمَ الصليبَ بسرعةٍ.

ـ عاصفة رعدية! ـ اختلج الكونت ـ ها هي مفاجأة! بهذه الطريقة سترافقنا الأمطار في الطريق.

وخيَّمَ ظلامٌ دامسٌ! قُلْتُ:

ـ دعنا نعُدْ!

ـ كلّا، نمضي للأمام..

اقترحتُ:

ـ لنتريَّث في المنزل حتى ينتهي المطر.

وتساءل أوربينين وهو يغمز بعينيه بطريقةٍ غريبةٍ:

ـ لماذا في المنزل؟ ستمطر طوال الليل، وهل سنجلس طوال الليل في المنزل؟ وأنتم من فضلكم لا تقلقوا.. اذهبوا بطريقكم، وسيذهب ميتكا راكضاً إلى الأمام، وسيرسل لكم العربة للقاء بكم.

ـ لا شيء، ربما ليس طوال الليل سيهطل المطر، عادةً ما تمر سُحُبُ الرعد بسرعة. وبالمناسبة، لم أتعرَّف بعدُ على مدير الغابة الجديد، وأوَدُّ أن أثرثر مع أولينكا. لمعرفة أيّ نوعٍ من الطيور هي.

وافَقَ الكونت:

ـ أنا لا أمانع!

وتمتم أوربينين مضطرباً:

ـ لكن كيف ستذهبون إلى هناك إذا لم يتم ترتيب المنزل؟ وستجلسون هناك في جَوٍّ خانقٍ يا صاحب السعادة، في الوقت الذي يمكنكم فيه أن تكونوا في منزلكم.. أنا لا أفهم ما هي المتعة من ذلك! والتعرُّف على مدير الغابة، إذا كان هو مريضاً.

كان من الواضح أن أوربينين لا يريد منا وبقوَّة، أن ندخل إلى منزل مدير الغابة. حتى أنه نَشَرَ يديه، كما لو أنه يريد أن يسدَّ علينا الطريق.. فهِمْتُ من وجهه أن لديه أسباباً لعدم السماح لنا بالدخول. أحترمُ أسباب الآخرين وأسرارهم، لكن هذه المرة دفَعَني الفضول. فأصررتُ، ودَلَفْنا المنزل.

لم يتكلَّم ميتكا حافي القدمين، بل إنه حشرَجَ بفرحٍ بطريقةٍ أو بأخرى:

ـ تفضّلوا إلى القاعة!

تخيَّلوا بأنفسكم أصغر قاعة في العالم بجدران خشبية غير مطليَّة. عُلِّقَت على الجدران وبكثافة نسخٌ للوحات زيتية «نهر النيفا». وصورٌ في محارات، أو كما نسمّيها، إطارات صدفيّة وشهادات؛ إحداها شهادة امتنانٍ من بارون على الخدمة التي استمرَّت طويلاً، والباقية صُوَرُ خَيْل.

في بعض الأماكن زحف اللبلاب على طول الجدران وأضاء لهيب شمعة أزرق بخفوتٍ أمام أيقونة، وانعكس بشكلٍ ضعيفٍ

في إطارها الفضّي. وعند الجدار رُكِنَت كراسٍ، على ما يبدو تم شراؤها مؤخّراً. تم شراء العديد من الكراسي غير الضرورية، ولكن تم وضْعُها بشكلٍ عشوائيٍّ: لا يوجد مكان آخر.. هنا يكتظ مقعد وثير مع أريكة ذات أغطية بيضاء كلون الثلج، وحواشي ودانتيل وطاولة مستديرة مصقولة. وعلى الأريكة يغفو أرنب أليف. كان الجَوّ مريحاً ونظيفاً ودافئاً. ويشعر المرء بحضور امرأةٍ في جميع الأنحاء. حتى خزانة الكتب تبدو بريئةً إلى حدٍّ ما، أنثوية، كما لو أنها تريد فقط أن تقول إنها ليس لديها سوى روايات خفيفة، وأشعار وديعة وهادئة. لا يشعر المرء بِسِحْر هذه الغرف الدافئة والمريحة في الربيع، كما في الخريف، عندما يبحث عن ملجأٍ من البرد والرطوبة.

أزَّ ميتكا نفسه، ونفخ وهو يحُكُّ عود الثقاب بصوتٍ عالٍ، وأضاء شمعتين ووضَعَهُما بعنايةٍ على الطاولة مثلما يضع الحليب. جلسنا على الأريكة، وتبادلنا النظرات، وغرِقْنا في الضَّحِك.

أوضَحَ أوربينين غياب أصحاب المنزل:

ـ نيكولاي إيفيميتش يستلقي مريضاً، ولا بد أن أولغا نيكولايفنا ذهبت في مرافقة أبنائي.

سمعنا من الغرفة المجاورة صوت تينور الضعيف:

ـ ميتكا، هل الأبواب مغلقة؟

أجاب ميتكا بصوتٍ أجَشّ، وهو يهرَعُ متَّجِهاً إلى الغرفة المجاورة:

ـ مغلقة يا سيدي، نيكولاي إيفيميتش!

وقال الصوت الضعيف نفسه:

ـ مرةً أخرى، انْظُر كي تكون جميع الأبواب مقفلة بالأقفال، بإحكام، وإذا ما تسلَّلَ اللصوص، فأخبرني.. أنا هؤلاء الأوغاد، سأرميهم بالبندقية.. هؤلاء الأنذال.

ـ بالتأكيد يا سيدي نيكولاي إيفيميتش!

ضحِكْنا ونظَرْنا إلى أوربينين بتساؤل. لقد تصبَّبَ خجلاً، ومن أجل أن يداري إحراجَهُ، بدأ في تعديل الستارة على النافذة.. ما يعني هذا؟ تبادَلْنا النظرات مرةً أخرى.

ولكن لم يكن هناك وقتٌ للحيرة، فقد تردَّدَتْ خُطَى مسرعةٌ في الفناء، ثم ارتفعت ضوضاء في السقيفة، وصُفِقَ الباب. دخلت الفتاة بالأحمر القاعة راكضةً. وكانت تُغَنّي بصوت سبرانو صارخٍ عالٍ، وقاطعتُ زعيقَها بالضحك:

ـ أنا أحب الر ـ عد في بدا ـ ية مايو.

ولكنها توقَّفَتْ فجأةً وصمتت، عندما رأتنا.

ارتبَكَتْ وبهدوءٍ، دلفت مثل نعجةٍ إلى الغرفة، من حيث تردَّدَ للتَّوِ صوتُ والدِها، وضَحِكَ أوربينين ضحكةً ساخرةً وأردَفَ:

ـ لقد فوجِئْتُ!

بعد فترةٍ وجيزةٍ دخَلَتْ علينا بهدوءٍ وجلَسَتْ على الكرسي الأقرب إلى الباب، وأنشأَتْ تتفحَّصنا. تطلَّعَتْ لنا بجرأةٍ، وثبَّتَت نظَرَها علينا، كما لو أننا لسنا بناسٍ جُدُدٍ عليها، وإنما حيوانات حديقة حيوان. بعد مرور دقيقة رُحْنا ننظُرُ إليها بصمتٍ من دون أن نتحرَّك. إلى أيّ حدٍّ كانت رائعةً في ذلك المساء، كنتُ مستعدّاً للموافقة على الجلوس لمدة عام من دون حراكٍ وأنا أتفرَّسُ بِها. طراوة كالهواء وحُمْرَة، وصدر يعلو كثيراً ويتنفَّسُ بعمقٍ، وشعرٌ مجعّدٌ منتَشِرٌ على جبهتها وعلى كتِفَيْها ويدها اليمنى التي تُسَوّي الياقة، وعيونها الواسعة اللامعة. كل هذا في جسدٍ واحدٍ صغيرٍ، يتم ابتلاعُهُ في لمحةِ نظرٍ واحدةٍ. ينظر المرء مرةً واحدةً إلى هذا الفضاء الصغير، ويرى أكثر مما لو نظر قرناً كاملاً إلى أفقٍ لا متناهٍ. نَظَرَت هي لي بجدّيَّة، من الأسفل إلى الأعلى، مستفسرةً، وعندما انتقلت عيناها عنّي إلى الكونت أو إلى البولوني، طفقتُ أقرأ فيهِنَّ العكس: نظرة من الأعلى إلى الأسفل وسخرية.

كنت أول من تحدَّثَ.. قلتُ:

ـ أقدِّمُ نفسي ـ نهضتُ وتوجَّهْتُ إليها ـ زينوفييف. وأقدِّم: هذا صديقي الكونت كارنيف. نعتذر لأننا اقتحمنا منزلكم الرائع جداً بدون دعوة.. بالتأكيد ما كنا لنفعل هذا لو لم تكن عاصفةً رعديّةً.

قالت وهي تضحك وتعطيني يَدَها:

ـ لكن منزلنا لن ينهار من هذا!

كشفت لي عن صَفّ أسنان جميل. جلستُ بجانبها على الكرسيّ، وحدَّثْتُها عن أن عاصفةً رعديّةً بغتةً اعترضَتْ طريقَنا. وبدأ حديث حول الطقس ـ بداية كل البدايات. وبينما كنا أتحدّث معها، أحضر ميتكا الفودكا والماء الذي لا ينفصل عنها، مرّتين.. واستغلَّ الكونت عدم نظري إليه، وتقَبّضَ وجْهُهُ بحلاوة، وهزَّ رأسَهُ.

ـ ربما ترغبون بوجبةٍ خفيفةٍ؟

سألتني أولينكا، وغادرت الغرفة دون انتظار الردّ.

طرَقَتْ قطراتُ المطر الأولى على الزجاج.. اقتربتُ من النافذة.. كان الظلام قد انسَدَلَ تماماً، ومن خلال الزجاج لم أرَ سوى قطرات المطر الزاحفة إلى أسفل وانعكاس أنفي. ومض الضوء من البرق وأنارَ عدّة أشجار صنوبر قريبة، وتناهى مرةً أخرى التينور الضعيف:

ـ هل الأبواب مقفلة؟ ميتكا تعال، يا لروحك الحقيرة، أغلق الأبواب! عذابي يا رب!

دخَلَتْ إلى القاعة امرأةٌ ذات بطنٍ مزدَوَجٍ مشدودٍ، وسحنَةُ وجْهٍ بليدٍ، مهمومٍ، وخرَّت منحنيَةً إلى أسفل للكونت، وغطت الطاولة بمفرشٍ أبيض. وتحرَّكَ ميتكا بحذرٍ خلفها، حاملاً وجبات خفيفة.

بعد دقيقة، كانت على الطاولة الفودكا والروم والجبن وصحن مع نوع من الطيور المقلية. وشرب الكونت قدحاً من الفودكا، لكنه لم يأكل. شمَّ البولوني الطيرة بعدم ثقةٍ وطفق بتقطيعها.

قلت لأولينكا التي دخلت:

ـ لقد بدأت تُمْطِر بالفعل! ألقوا نظرةً!

اقتربت الفتاة بالأحمر إلى النافذة حيث أقف، وفي تلك اللحظة بالذات تسلَّطَ علينا وهَجٌ أبيض.. دوَّت قرقعةٌ في الأعلى، وبدا لي أن شيئاً كبيراً وثقيلاً قد سقط من السماء وتدحرَجَ على الأرض مصحوباً بهدير.. اهتزَّ زجاج النافذة والأقداح أمام الكونت وأحدثت رنيناً زجاجيّاً.. كانت الضربة قويةً..

سألتُ أولينكا:

ـ هل تخافون من العاصفة الرعدية؟

ضغطَتْ خدّيها على كتِفِها المستديرة، ونظرَتْ إلي بمصداقيّة طفوليّة، وهمَسَتْ، بعد أن تفكَّرَتْ قليلاً:

ـ أخاف. فقد قتَلَتْ عاصفةٌ رعديةٌ والدتي.. حتى أنهم كتبوا عنها في الصحف. كانت والدتي تسير عبر الحقل وتبكي. عاشت بمرارةٍ شديدةٍ في هذا العالم.. أشفق عليها الربُّ وقتلَها بكهربائه السماوية.

ـ كيف تعرفون أن هناك كهرباء؟

ـ درست.. هل تعرفون؟ أولئك الذين قُتِلوا بسبب عاصفة رعدية، وفي الحرب، والذين يموتون بسبب الولادة الصعبة، يذهبون إلى الجنة.. لم تَتِمّ كتابة هذا في أي مكان في الكتب، ولكن هذا صحيح. والدتي الآن في الجنة. يبدو لي أن عاصفةً رعديةً ستقتلني في يوم من الأيام، وسوف أكون في الجنة.. هل أنتم شخصٌ مثقّف؟!

ـ نعم..

ـ إذن لن تسخروا منّي.. أوَدُّ أن أموت على هذا النحو. أرتدي أغلى فستان عصريّ، رأيت امرأةً غنيةً هنا قبل أيام ترتدي مثْلَهُ، صاحبة الأرض شيفر، وألبس أساور على يدي. ومن ثم أقف على قمة جبل قبر الحجر، وأمنح نفسي للبرق ليقتُلَني، حتى يرى جميع الناس الرعْدَ رهيباً كما تعرفون، وتحلّ النهاية.

ابتسمتُ، وأنا أحدج في عينين، مليئتين بالرعب المقدَّس قبل موتٍ رهيبٍ، ولكن مؤثّرٍ:

ـ يا لَهُ من خيالٍ غريبٍ! ولا تريدون أن تموتوا في فستان عاديّ؟

هزت أولينكا رأسها:

ـ كلا.. ولكي يرى جميع الناس.

ـ فستانكم الحالي أفضل من أيّ فساتين في الموضة، ومكلِّفٌ.. وهو يناسبكم، تبدون فيه مثل زهرة حمراء لغابة خضراء.

تنهَّدَتْ أولينكا بسذاجة:

ـ كلا، هذا ليس صحيحاً!، هذا فستان رخيص، ولا يمكن أن يكون جيداً.

جاء الكونت إلى نافذتنا بقصدٍ واضحٍ للتحدُّث إلى أولينكا المليحة. صديقي يتحدّث بثلاث لغاتٍ أوربّية، لكنه لا يجيد التكلُّم مع النساء. وقَفَ بالقرب منا بشكلٍ غير لائقٍ، وابتسم ببلادة، وغمغَمَ «أم... دا» وعاد إلى زجاجة الفودكا.

قلتُ لأولينكا:

ـ عندما دخلتم هذه الغرفة، غنّيتم «أحب العاصفة الرعدية في أوائل مايو»، فهل تحوَّلت هذه الأبيات الشعرية إلى أغنية؟

ـ كلا، أنا أغني بطريقتي كل الأشعار التي أعرفها.

نظرتُ بالصدفة إلى الوراء. كان أوربينين ينظر إلينا. قرأتُ في عينيه الحقد والخبث، اللذَين لا ينسجمان على الإطلاق مع وجهه الطيب اللطيف.

وفكّرتُ مع نفسي:

ـ هل يشعر بالغيرة، أم ماذا؟

التَقَطَ المسكين نظرتي المستفسرة، فنهَضَ من كرسيّه، وذهب لسببٍ ما إلى المدخل.. ومن الواضح حتى بمشْيَتِه، أنه كان قلِقاً. كانت ضربات الرعد بعضها أشد من الأخرى، وأكثر تدحرجاً، وأمست تتكرر أكثر فأكثر.. وصبغ البرْقُ في ضوئِه اللطيف المبهر السماء وأشجار الصنوبر والتربة الرطبة. ما زالت نهاية المطر بعيدة. انتقلتُ من النافذة إلى خزانة الكتب ورحتُ أُعاين مكتبة أولينكا. «أخبِرْني ما تقرأ، وسأقول لك من أنت»، ولكن كان من الصعب الخروج بأي استنتاج حول المستوى العقلي و«مؤهل تعليم» أولينكا من الكتب المصطفّة بشكلٍ متوازٍ في الخزانة، وكان من الصعب الخروج بأي استنتاجٍ عن المستوى الذهني و«الكفاءة التعليمية» لأولكينا.. كان هنا خليطٌ غريبٌ. ثلاثة مختارات، من كتاب واحد لبورن، تمارين يفتوشيفسكي، والجزء الثاني من أعمال ليرمنتوف، وشكلياريفسكي، ومجلة «العمل» وكتاب طبخ، و«الموائد المشتركة».. كان بإمكاني أن أستمر بإحصاء المزيد من الكتب لكم، ولكن في ذلك الوقت الذي أخذتُ من خزانة الكتب «الموائد المشتركة» وبدأتُ أتصفَّحُهُ، فتَحَ بابَ الغرفة الأخرى، شخصٌ، وصَرَفَ على التَّوِّ اهتمامي بأهلية تعليم أولينكا. كان هذا الشخص طويل القامة، معروق اليدين، يرتدي روب قطنيّاً وحذاءً ممزّقاً، ذا وجهٍ غير عاديّ تماماً، وجْهٍ مغطّى بالأورِدَة الزرقاء.. وجهٍ أصليٍّ إلى حدٍّ ما. كان وجهه، المغطّى بالأوردة الزرقاء، مزيّناً بشوارب فيديفيبل وسوالف شعر، وبشكلٍ عام يذكّرك بمحيّا

الطيور. كان الوجه ممطوطاً كله إلى الأمام، كما لو كان يسعى إلى طرف الأنف. كانت هذه الوجوه تسمّى لدينا «خرطوم الإبريق». كان الرأس الصغير لهذا الشخص على رقبةٍ رقيقةٍ طويلةٍ مع تفاحة آدم كبيرة، وتمايَلَ مثل بيت الطيور في مهَبّ الريح. نظر الرجل الغريب لنا بعيون خضراء موحلة، وحدج في الكونت، وسأل بصوتٍ متوسِّلٍ:

ـ هل الأبواب مقفلة؟

نظر الكونت إلَيَّ، وهزَّ كتِفَيه..

ـ لا تقلق يا أبتِ! ـ قال ميتكا ـ كل شيءٍ مغلَقٌ.. اذهب إلى غرفتك!

ـ هل المستودع مغلق؟

همس أوربينين، الذي ظهر من المدخل:

ـ إنه أحياناً يُصاب بعض الشيء بالجنون. يخاف من اللصوص، وها، كما ترون، مهتَمٌّ بكل ما يتعلَّق بالأبواب.. نيكولاي إيفيميتش ـ خاطب المدير الشخص الغريب ـ اذهبوا إلى غرفتكم وناموا! لا تقلقوا، كل شيءٍ مغلق!

ـ وهل النوافذ مقفلة؟

ركض نيكولاي إيفيميتش بسرعة حول جميع النوافذ، وعالج مزاليجها، ومن دون أن ينظر إلينا، خفَقَ بحذائه إلى غرفته.

بدأ أوربينين يشرح بعد مغادرته:

ـ المسكين، تُداهمه أحياناً هذه الحالة. إنه رجلٌ جيّدٌ ووقورٌ، هل تعرفون أَنَّهُ رجلٌ عائليٌّ، وهذه المصيبة! يَمَسُّهُ الجنون كل صيفٍ تقريباً.

نظرتُ إلى أولينكا. كانت محرَجَةً، وأخفت وجهها عنّا، وراحت ترتب كتبها المضطربة، يتبدّى أنها خَجِلَتْ من والدها المجنون.

ـ لقد وصل الطاقم، يا صاحب السعادة! ـ قال أوربينين ـ يمكنكم الرحيل إذا كنتم ترغبون في ذلك!

سألتُهُ:

ـ من أين أتى هذا الطاقم؟

ـ لقد أرسلتُ عليه.

بعد دقيقة كنت أجلس مع الكونت في العربة، وأستمع إلى هزيم الرعد، وقد ركِبَني الغضب. تذمَّرْتُ، وغضِبْتُ بالفعل.

ـ إن بيوتر يجوريتش هذا، أرغَمَنا على مبارحة المنزل، ليأخذه الشيطان! لم يَدَعْنا نتحدَّث مع أولينكا هذه، لن آخذها منه.. عجوزٌ أحمق! طوال الوقت ينفجر من الغيرة، هو يحب هذه الفتاة.

ـ نعم، نعم، نعم.. تخيَّل، ولقد لاحظتُ ذلك! ولم يسْمَح لنا بدخول المنزل بدافع الغيرة، وأرسل على الطاقم بدافع الغيْرَة.. ها ها!

ـ يُريد أن يبدو شاباً بعد أن شاخ.. ومع ذلك، يا أخي، من الصعب ألا تقع في حب هذه الفتاة بالأحمر، حين تراها كل يوم كما رأيناها اليوم! حسناء إلى حدّ اللعنة! فقط إنها لا تُناسِب خطمه، يجب أن يفهم هذا ولا يشعر بمثل هذه الغيرة الأنانية. يمكنك أن تحب، ولكن لا تزعج الآخرين، خاصة وأنك تعلم أنها لم تُقْسَم لك.. لمثل هذا العجوز الأحمق!

أطْلَقَ الكونت ضحكاً محبوساً وأردَفَ:

ـ أتذكُرُ كيف غلي عيضا، عندما ذكَرَ كوزما اسمَها على مائدة الشاي؟ اعتقدتُ حينئذٍ أنه سيقتُلُنا جميعاً.. لا يُدافعون بهذه الحرارة عن شرف اسم المرأة التي لا يُبالون بها.

ـ يدافعون، يا أخي.. لكن الأمر لا ينحصر في هذا، المهم هو إذا أمرنا اليوم بهذا الطريقة، ماذا يفعل مع الأشخاص الضئيلين، مع أولئك الذين هم تحت تصرُّفِه! أفترض، أنه لا يدع مأموري المستودعات والمشرفين على الشؤون الاقتصادية والصيادين وغيرهم من الضئيلين، الوصول لها حتى ولو بصعوبة! الحب والغيرة يجعلان الشخص ظالماً، وعديم القلب، يُبْغِض البشر. أراهن على أنه قد عرَّضَ العديد من مرؤوسيه من الموظفين للمتاعب بسبب أولينكا هذه. لذا، ستكون شخصاً عاقلاً، إذا قلَّصْتَ الثقة في شكاواه من الموظفين، وبالتقارير حول ضرورة طرد هذا أو ذاك. وبشكلٍ عام، تقليص سُلْطَتِه لفترةٍ من الوقت..

سوف يمرّ الحبّ ـ حسناً، حينها لن يَعودَ يخشى من شيء. إنه رجلٌ طيبٌ وصادقٌ.

وضحِكَ الكونت:

ـ وما رأيك بوالدها؟

ـ مجنون.. ينبغي له الرقاد في دار المجانين، وليس إدارة الغابات. وبشكلٍ عام، لن تكون كاذباً إذا علَّقْتَ على أبوابِ ضيعَتِكَ: «دار المجانين».. هنا مستشفى حقيقيٌّ للأمراض النفسية! مدير الغابة هذا، وسيشيخا، وفرانتس ـ المهووس بلعب الورق، والعجوز العاشق، وفتاة تشعر بالزهو وتفخيم الذات، والكونت المدمن.. فما أفضل من ذلك؟!

ـ غير أنَّ مدير الغابة هذا يتقاضى راتباً! فكيف يخدم إذا كان مجنوناً؟

ـ من الواضح أن أوربينين يُبقيه فقط بسبب ابنته.. يقول أوربينين إن نيكولاي يفيميتش يُصاب كل صيفٍ تقريباً بالجنون؛ ولكن هذا مُسْتَبْعَدٌ. حارس الغاربة مريضٌ باستمرار، وليس كل صيفٍ وحسب. لحسن الحظ، أن بيوتر يجوريتش نادراً ما يكذب ويفضح نفسه إذا كذب بشيءٍ ما.

ـ أبلغني أوربينين في العام الماضي أن حارس الغابة السابق أخميتييف أصبح راهباً في دير جبل آثوس، وأوصاني بـ

سكفورتسوف «المتمرّس والصادق والشريف».. بالطبع، وافقتُ، كما أعطيه موافقتي دائماً. بعد كل شيء، الرسائل ليست وجوهاً: فهي لا تفضح كذب كاتبها.

توجَّهَتْ العربةُ إلى الفناء وتوقَّفَتْ عند المدخل. خرجنا منها. لقد انتهى المطر. وسارعت السحابة الرعدية، وهي تبرق بتألُّقٍ وتُثير التذمُّر الغاضب، إلى الشمال الشرقي، وتكشف المزيد والمزيد عن سماء زرقاء مرصَّعَة بالنجوم. وتُبدي أنها القوة المدجَّجَة بالسلاح، وبعد أن قامت بالتخريب وأخذت فديَةً رهيبةً، تسعى جاهدةً لتحقيق انتصاراتٍ جديدةٍ. طاردت الغيوم المتخلفة وأسرعت وراءها، كما لو أنها كانت تخشى من عدم اللحاق بها.. الطبيعة تستعيد عالمَها.

وخُيِّلَ أنّ العالـمَ غارقٌ في هواء عطر هادئ مليء بالنعيم وبتغريد العنادل، في صمت حديقةٍ غافيةٍ لاطَفَها ضوءٌ صاعدٌ، واستيقَظَتْ البحيرة من قيلولة النهار، وفرضت نفسها على سمع البشر وهي تغمغم بخفوت.

في مثل هذا الوقت، من الأفضل التنزُّه راكباً في عربةٍ هادئةٍ في حقلٍ غافٍ أو تدفع بمجاديف قارب في البحيرة. لكننا ذهبنا إلى المنزل؛ كانت بانتظارنا طراز «شاعرية» مختلف.

من يُطْلِق رصاصةً في جبْهَتِه، تحت تأثير ألـمٍ نفسيٍّ، أو معاناة

من كآبة لا تُطاق، يُسمّى منتحراً. ولا يوجد مسمّى في اللغة البشرية لأولئك الذين في أيام الربيع والشباب المقدّس، يطلقون العنان لشهواتهم البائسة التي تفسد الروح. ويعقب الرصاصة هدوء القبر، وتلي تدمير الشباب، سنواتٌ من الكرب والذكريات المؤلمة. ويفهم أولئك الذين دنَّسوا ربيعَهم، حالة روحي الراهنة. أنا لستُ كبيرَ السِّنّ، ولم يشتعل رأسي شيباً، لكني لم أعُدْ حيّاً، يقول الأطباء النفسيون أن جنديّاً أصيب في معركة واترلو بالجنون، وأقنع بعد ذلك الجميع ونفسه، بأنه قُتِلَ في واترلو، وأن ما يرونه الآن مجرد ظِلٍّ له، وهو انعكاسٌ للماضي. والآن أنا أعاني شيئاً مشابهاً لذلك، في شعوري من الاقتراب من الموت هذا.

قال لي الكونت عندما دخلنا المنزل:

ـ أنا مسرورٌ جداً لأنك لم تتناول شيئاً من الطعام في منزل مدير الغابة، ولم تُفْسِد شهيّتَك للطعام، سنتعشّى بشكلٍ ممتاز.. كالسابق.

وأمَرَ إيليّا، الذي خلَعَ عنه السترة وناوَلَهُ الروب:

ـ قَدِّم الطعام.

ذهبنا إلى غرفة الطعام. حيث كانت «الحياة تغلي» على المائدة التي جرى تنسيقُها. هناك زجاجات من جميع الألوان، وتنوَّع الطول، مثلما على الرفوف في بارات المسارح، وانتظرَتْنا وهي تعكس أضواء المصابيح. وعلى مائدة أخرى المَزَّة من الخيار

المملَّح والمخلّل، مع وعاء فودكا وشراب إنجليزي. وبالقرب من زجاجات النبيذ كان هناك طبقان: واحدٌ من الخنزير المقدَّد، والآخر من سمك الحفش البارد. طفق الكونت يَصُبُّ ثلاثة أقداح، وانكَمَشَ كما لو أنَّهُ مقرور:

ـ حسناً ـ بصحَّتِنا! خُذْ قدَحك، يا كاتين كازيميرفتش!

شربتُ، فيما هزَّ البولوني رأسَهُ سلباً. وسحب سمك الحفش البارد لنفسه، وشمَّهُ وأخَذَ يأكل.

أرجو المعذرة من القارئ. يتعيَّن عليَّ الآن أن أصِفَ متخلّياً عن «الأسلوب الرومانسيّ».

قال الكونت وهو يصُبُّ القَدَحَ الثاني:

ـ حسناً.. إننا نشرب القَدَحَ الثاني.

أخذتُ قدحي، وحدجتُ إليه، ووضَعْتُهُ على المائدة.. وقُلْتُ:

ـ تبّاً، لم أشرَبْ منذ وقتٍ طويلٍ. لنتذكَّر الأيام الخوالي؟

ومن دون أن أفكِّر طويلاً، صبَبْتُ خمسة أقداح وسكَبْتُها في فمي. خلاف ذلك، لا أجيد الشرب. يتعلَّم أطفال المدارس الصغار تدخين السجائر من الكبار: نظَرَ الكونت لي وسكَبَ لنفسه خمسة أقداح، وانحنى على آخر، تقبض، وهزَّ رأسَهُ، وشرِبَها. خُيِّلَ له أنَّ قدحي الخامس من قبيل الإقدام، بيْدَ أنني شَرِبْتُ ليس من أجل

التباهي بموهِبَتي في الشرب، لكن رغبتُ في أن أثمل بسكْرَةٍ قويّةٍ جيدة، لم أمُرّ بها منذ زمنٍ طويلٍ وأنا أعيش في قريتي. وبعد أن شرِبْتُ جلستُ إلى المائدة وأنشأْتُ أتناول لحم خنزير فَتِيٍّ.

لم تُمْهِلْني حالةُ السُّكْر طويلاً. فسرعان ما شعرتُ بدوارٍ خفيفٍ. وشاعت في صدري برودةٌ لذيذةٌ ـ بداية حالة فورة عواطف بهيجة. وبغتةً ومن دون فترة انتقال ملحوظة، انتابني الشعور بالمرح والحبور. رحتُ أبتسم، فجأةً رغبتُ بالثرثرة، والضحك، والناس. وفيما أنا أمضغ لحم الخنزير الفتيّ، شعرتُ بامتلاء الحياة، تكاد تكون في أقصى حالة اكتفاءٍ بالحياة، وتكاد تكون السعادة.

ـ التفَتُّ إلى البولوني:

ـ لماذا لا تشربون أيَّ شيءٍ؟

ردَّ الكونت:

ـ إنه لا يشرب أيَّ شيءٍ.. لا تُجْبِرْهُ.

ـ ولكن مع ذلك، اشربوا شيئاً ما!

وضع البولوني قطعةً من سمك الحفش في فَمِهِ، وهزَّ رأسَهُ نفياً. شجَّعَني صمْتُهُ، فسألتُهُ:

ـ اسمعوا يا كايتان.. ما اسم والدك؟ لماذا أنتم طيلَةَ الوقت تلوذون بالصمت؟ لم تُتَح لي بعْدُ فرصةٌ للاغتباط بسماع صوتكم.

رفَعَ حاجبَيه، اللذين يُشْبِهان طائرة سنونو مُحَلِّق، وحدجني، ثم سألني بلكنةٍ بولنديَّةٍ قوية:

ـ هل ترغبون في أن أتكلم؟

ـ أرغب للغاية.

ـ وما حاجتكم منه؟

ـ اعذروني! يتجاذب الغرباء والذين لا يعرف بعضهم البعض أثناء العشاء على البواخر أطرافَ الحديث فيما بينهم، وأنا وأنت قد عرفنا بعضنا البعض لعدة ساعات، كنا ننظر إلى بعضنا البعض، ولم نتبادل كلمةً واحدةً! كيف يبدو هذا؟

لاذ البولوني بالصمت، وسألْتُهُ، بعد برهة انتظارٍ:

ـ لماذا أنتم صامتون؟ أجيبوا بشيءٍ ما!

ـ لا أريد أن أجيبك. أسمَعُ الاستهزاءَ في صوتك، وأنا لا أحبّ السخرية.

وقال الكونت منزعجاً:

ـ إنه لا يسخر على الإطلاق! من أين لك هذا، كايتان؟ إنه ودودٌ.

وقال كايتان عابساً:

ـ لم يتحدَّث الكونت معي بهذه النبرة، أنا لا أستسيغ هذه النبرة.

واصلتُ مضايَقَتَهُ وأنا أشرب قدحاً آخر وأضحك.

ـ إذن لا تشرِّفُني بالمحادثة؟

وقاطعني الكونت راغباً في تغيير المحادثة:

ـ هل تعرف لماذا جئت إلى هنا بالفعل؟ لم أقل لك عن هذا بَعْد؟ ذهبتُ في بيتربورغ، إلى طبيبٍ من معارفي، الذي أُعالَجُ عنده باستمرار، وشكوتُ من سوء صحَّتي. لقد استَمَعَ لي، ودقَّ، وجَسّ كل شيء كما تعرف، وقال: «ألست جباناً؟» على الرغم من أنني لستُ جباناً، ولكن، كما تعرف، شحبتُ، وقلتُ له: «لستُ جباناً». وردَّ: «باختصار يا أخي.. ملَلْت».

ـ لقد تنبَّأ باني سأموت عاجلاً، إذا لم أغادر بطرسبورغ ولم أذهب! إن كبِدي تالفٌ من الشراب لمدةٍ طويلةٍ.. قرَّرْتُ المجيء إلى هنا. من الغباء الجلوس هناك. هنا ضيعةٌ فاخرةٌ جداً وغنيَّةٌ. فالمناخ وحده يكفي للعلاج.. على الأقل يمكنني القيام بالأعمال! يمكنني مباشرة العمل، العمل هو الدواء الأفضل والأكثر جذريَّة. أليس كذلك، يا كايتان؟ سأشرع بمزاولة أعمال الضيعة، وأتخلَّى عن الشرب. أمرني الطبيب بعدم شُرْب قدحٍ واحدٍ.. ولا قَدَحٍ واحدٍ!

ـ حسناً، لا تشرب.

ـ لن أشرب.. اليوم أشرب للمرَّة الأخيرة، بمناسبة اللقاء معك

(مال الكونت نحوي وقبّلني على خدّي).. مع صديقي العزيز، غداً، ولا قطْرَة! آلهة الخمر باخوس ستقول لي اليوم وإلى الأبد وداعاً، سيريوجا لنشرب كونياك بمناسبة الوداع.. لنشْرَب؟!

شَرِبْنا الكونياك.

ـ سوف أتعافى، عزيزي سيريوجا، وأباشِرُ العمل في شئون الضيعَة.. عملٌ عقلانيٌّ! إن أوربينين طيبٌ ووديعٌ.. يفهم كلَّ شيءٍ، ولكن هل هو المالك؟ إنه روتينيٌّ ومحافظٌ! من الضروري الاشتراك في المجلّات، والقراءة، ومتابعة كل شيء، والمشاركة في المعارض الزراعية، ليس لديه تعليمٌ لهذا!.. هل هو حقاً واقعٌ في حب أولينكا؟ ها ها! سأُباشِرُ العمل بنفسي، وسأجْعَلُهُ مساعداً لي.. سأشارك في الانتخابات، وأُسَلّي المجتمع.. نعم؟ بعد كل شيء، هنا يمكن للمرء العيش بسعادة! ما رأيك؟ حسناً، ها أنت تضحك! وتضحك! حقّاً، لا يمكن التحدُّثُ معك عن أيّ شيء!

شعرتُ بالسرور، الأمر مضحكٌ. جعلني الكونت أضحك، وأضحكَتْني الشموع والزجاجات والأرانب الجصّية، ورسوم البَطّ التي تُزَيّن جدران غرفة الطعام.. لم يُضْحِكْني فقط وجه كيتان كازميروفيتش الصاحِ، أزعجني حضور هذا الرجل.

همستُ في أُذُن الكونت:

ـ هل يمكن أن يذهب هذا النبيل إلى الجحيم؟

تمتم الكونت، وأمسَكَ بكلتا يَدَيّ، كما لو كنتُ أستعد لضرب البولوني:

ـ ما خطبُك! في سبيل اللّٰه.. دعْهُ يجلس لحاله!

ـ لكن لا يمكنني رؤيته! اسمعوا!

التفتُ إلى بشيخوتسكي، لقد رفضتم التحدُّثَ معي، ولكن معذرةً، لم أفقد الأمل في أن أتعرّف عن قرب على مقدرتكم على التحدُّث.

سحب الكونت كُمّي:

ـ اتركْهُ! أتوسَّلُ إليك!

وتابعتُ أنا:

ـ سوف أضايقكم حتى تُجيبوني، لماذا أنتم عبوسون؟ والآن تسمعون السخرية في صوتي؟

وغمغم البولوني متذمّراً:

ـ لو كنتُ قد شربْتُ مثلك، كنت سأتحدث معك، وإلا فإننا لسنا ثنائيّاً.

ـ أنا وأنت لسنا ثنائيّاً، وهذا ما كنّا بحاجةٍ لإثباته، أردتُ أن أقول نفس الشيء بالضبط؛ الإوزّة ليست صديقة الخنزير، السكران لا

يمُتُّ بقرابةٍ للصاحي، السكران يزعج الصاحي، والصاحي مزعجٌ للثَّمِل، في غرفة الضيوف المجاورة أرائك ناعمة رائعة! يمكنك الاسترخاء عليها بعد أن تناولتَ سمك الحفش مع الفجل. صوتي هناك غير مسموع. هل توَدُّ الذهاب إلى هناك؟

ضرب الكونت كفاً بكفٍّ، وراح يذرّع صالة الطعام وهو يغمز بعينيه.

إنه جبانٌ ويخاف من الأحاديث «الكبيرة»، وعندما كنت في حالة سُكْرٍ، استولى عليَّ سوء الفهم والاستياء.

أشاحَ الكونت، وهو لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل.

ـ أنا لا أفهم! لا أفهم!

كان يعرف أنه من الصعب إيقافي.

وتابعتُ:

ـ إنَّ معرفتي بكم حتى الآن قليلة، ربما أنتم أروع شخص، وبالتالي لا أوَدُّ أن أتشاجر معكم مقدماً، أنا لا أتشاجر معكم، أدعوكم فقط لأن تفهموا أنه لا مكان للصاحي بين المخمورين؛ وجود الصاحي يزعج الكائن المخمور! هل تفهمون هذا!

تنهّد بشيخوتسكي:

ـ قولوا ما تريدون أيها الشاب، ليس بميسوركم استفزازي.

ـ كما لو أنه ليس بميسوري أن أستفزّكم بأي شيء، وإذا وصفتكم بالخنزير العنيد، ألن تشعروا بالإهانة أيضاً؟

احمرَّتْ سحنة البولوني؛ لا أكثر. اقترب الكونت مني، وارتَسَمَ على وجهه التضرُّع، وبسَطَ يديه.

ـ حسناً أرجوك، خفف من سلاطة لسانك.

كنتُ قد دخلت بالفعل بدوري كمخمورٍ وأردت الاستمرار، ولكن لحظ الكونت والبولوني، ترددتْ خطوات، ودخل أوربينين غرفة الطعام، وأنشأ يقول:

ـ شهية طيبة، جئت لأعرف من سعادتكم، هل لديكم أي أوامر أخرى؟

وردَّ الكونت عليه:

ـ لا توجد أوامر حتى الآن، ولكن هناك طلب. أنا سعيد للغاية، لأنك جئت يا بيوتر يجوريتش.. اجلسوا معنا لتناول العشاء، ودعونا نتحدث عن المزرعة والأعمال الأخرى.

أخذ أوربينين مكانه. وشرب الكونت كأس كونياك، وأنشأ يعرض عليه خطة أعماله المستقبلية في مجال العمل العقلاني في المزرعة. تحدّث الكونت طويلاً، وأتعبنا، ومن حينٍ لآخر كرر الموضوع وقلَّبَه، استمع إليه أوربينين، بخمول وانتباه، كما يُصغي

الناس الجادّون إلى ثرثرة الأطفال والنساء، وتناول شوربة سمك فرخ نهري ورَنَا بحزنٍ إلى الصحن.

وقال الكونت بالمناسبة:

ـ لقد جئتُ معي بتصاميم رائعة، بتصاميم ممتازة! لو ترغبون، سأطلعكم عليها.

انتفض كارنييف من مجلسه، وهرع إلى مكتبه لجلْبِ التصاميم. واستغلَّ أوربينين غيابَهُ، وسكب على جناح السرعة لنفْسِه نصف قدح كونياك، وشرِبَه من دون تناوُلِ مزَّة.

وقال وهو يتفرَّس بحقدٍ في الوعاء:

ـ مقْرِفَة هذه الفودكا!

وسألتُهُ:

ـ لماذا لا تشربون بحضرة الكونت، يا بيوتر يجوريتش، هل تخافون يا ترى؟

من الأفضل يا سرجي بيتروفتش أن يكون المرء منافقاً ويشرب سِرّاً، من أن يشرب بحضرة الكونت. أنتم تعرفون أنَّ الكونت ذا طبعٍ غريبٍ: عندما أسرق منه عمداً عشرين ألفاً، لا يُبالي بسبب تغافلِه وإهماله، لن يقول شيئاً، ولكن إذا نسيتُ أن أعطيه حساباً عن بنسٍ مفقودٍ، أو أشرب بحضرته فودكا، فسيطفق بالشكوى، من أن لديه مديراً لصّاً ووغداً. أنتم تعرفونه جيداً.

سكب أوربينين لنفسه نصف كوب آخر وشَرِب، وقُلْتُ له:

ـ يبدو لي يا بيوتر يجوريتش أنكم لم تشربوا الكحول سابقاً.

وهمس لي:

ـ نعم، والآن أشرب، أشرب بشكل رهيب، بفظاعة، ليلاً ونهاراً، لا أمنح لنفسي دقيقة واحدة للراحة! والكونت لم يشرب قَطّ إلى الحدّ الذي يشربه الآن. الوضع صعبٌ بشكلٍ رهيبٍ، سيرجي بيتروفتش! الرب وحده يعلم مدى ثقل الصعوبة في قلبي! أنا بالذات أشرب من الكرب. لقد أحببتكم واحترمتكم دائماً يا سيرجي بيتروفتش، وأخبركم بصراحة، سأكون سعيداً لو أنتَحِرُ شنقاً!

ـ لماذا هذا؟

ـ من غبائي. ليس الأطفال وحدهم من يكونون أغبياء، بل هناك حمقى في الخمسين. لا تسألوني عن الأسباب.

دخل الكونت وتوقف استرساله في الكلام.

ـ ليكر ممتاز! ـ قال الكونت، ووضع على الطاولة بدلاً من التصاميم «الرائعة»، زجاجةً ذات بطنٍ منتفِخ، مع ختم الشمع من «البينديكتين» ـ مررتُ عبر موسكو واشتريتُهُ من مخازن ديبري. هل ترغب به يا سيريوجا؟

قلت:

ـ غير أنك ذهبتَ لجلب التصاميم!

ـ أنا؟ أيّة تصاميم؟ أوه نعم! ولكن، يا أخي، الشيطان نفسه لن يفهم شيئاً مما في حقيبتي! لقد نبشْتُ، ونبشْتُ وتركتُ المسألة. الليكر لطيف جداً. هل تريد؟

جلس أوربينين معنا بعض الوقت، وودعنا وخرج. بعد مغادرته، بدأنا في تناول النبيذ الأحمر. لقد قام هذا النبيذ بتفكيكي بالكامل. نجَمَ عنه السُكْرُ الذي أردْتُهُ بالضبط عندما كنتُ أمتطي زوركا إلى الكونت. أصبحتُ خفيف الروح للغاية، ومنتشياً، ومَرِحاً بشكلٍ غير عادي. أردت القيام بمأثرة غير عادية، مُسَلّيَة، تذر الغبار في العيون. في تلك اللحظة، بدا لي أنني أستطيع عبور البحيرة بأكملها سابحاً، وحلّ أكثر القضايا الجنائية تعقيداً، والفوز بأيّ امرأة. قادَني إلى العالم بحيويَّتِه، إلى الانشراح، أحبَبْتُه، ولكن في نفس الوقت كنت أرغب في المماحكة، واللذع بنكاتٍ سامّة، والسخرية؛ كان لا بد من السخرية من البولوني ذي الحاجب الأسود والكونت، والانهيال عليهما بنكتة لاسعة، تُحَوِّلُهما إلى مسحوق.

وبدأت:

ـ لماذا أنتم صامتون؟ تكلّموا، أنا أصغي إليكم! هاها.. أنتشي بشكلٍ رهيبٍ عندما يتكلم الأشخاص ذوو الوجوه الجادة والرصينة بالتُّرهات الصبيانية! إن هذا هزؤٌ حقيقيٌّ وسخريةٌ حقيقيةٌ من العقول البشرية! الوجوه لا تتوافَق مع العقول! لكي لا يكْذِبَ المرء، يجب أن تكون لديه سحنَةُ غبيٍّ، بينما حظيتم بوجوه الحكماء اليونانيين.

لم أختم كلامي، تلعْثَمَ لساني من فكرة أنني أتحدَّثُ مع أناسٍ لا قيمةَ لهم، ولا يستحقّون نصف كلمة! كنت بحاجةٍ إلى قاعةٍ مكتظَّةٍ بالرجال والنساء اللامعات وآلاف الأضواء. نهضْتُ وأخذتُ قدَحي وذهبتُ للتجوّل في الغُرَف. عندما نندم، لا يطبق علينا الفضاء، ولا تقيّدنا غرفة الطعام وحدها فقط، ولكننا نأخذ المنزل بأكمله وغالباً حتى الضَّيْعَة بأكملها.

في غرفة الضيوف «الفُسَيْفسائية» اخترتُ أريكةً تركيةَ، استلقيتْ عليها وسلَّمْتُ نفسي لقوة الخيال والقلاع الهوائية. كانت الأحلام مخمورةً، ولكن كانت الواحدة أفخم من الأخرى وغير محدودة، اجتاحت دماغي الفتيَّ. تكوَّنَ عالمٌ جديدٌ، مفعمٌ بالفتنة المخدِّرة والجمال الذي لا يُوصَف. كل ما كان ينقصني هو أن أتحدَّثَ بالقوافي وأرى الهلوسة.

جاء الكونت لي وجلس على حافة الأريكة. كان يرغب في أن يخبرني شيئاً ما. هكذا بدأتُ أقرأ الرغبة في عينيه في إخباري بشيءٍ خاص، بعد فترة وجيزة من الأقداح الخمسة المذكورة أعلاه. كنت أعرف ما يريد التحدث عنه.. قال لي:

ـ لقد شربتُ اليوم كثيراً! هذا يُضِرُّ بي أكثر من أيّ سُمّ. ولكن للمرة الأخيرة اليوم، كلمة شرف للمرة الأخيرة، لديَّ الإرادة.

ـ حسناً، حسناً.

ـ لآخرة مرة، سيريوجا، صديقي، للمرة الأخيرة، ألا نبْعَث ببرقيَّةٍ إلى المدينة لاستدعاء فرقة الغجر؟

ـ أُرَجِّح أن تبعَث.

ـ لنندم كما يجب أن يكون للمرة الأخيرة، حسناً، انهَضْ، واكتُبْ.

الكونت لا يعرف كيفية كتابة البرقيات؛ تظهر بقلَمِهِ طويلةً وغيرَ مكتملة. نهضتُ وكتبتُ:

«أس... مطعم «لندن». لصاحب فرقة كاربوف. اتركوا كل شيء، وتوجهوا على الفور لنا، على القطار الذي يستغرق ساعتين. الكونت».

قال الكونت: «الآن الحادية عشرة إلا الربع»، يحتاج الإنسان للوصول إلى المحطة مدة ثلاثة أرباع الساعة، كحدٍّ أقصى للساعة. سيتلقى كاربوف البرقية في بداية الساعة الواحدة، لذا فإن «س» سيلحق بالقطار، وإذا لم يلْحَق القطار، فسيأتي مع قطار الشحن، نعم؟

أُرسلت البرقية مع كوزما أحادي العين، وصدر أمرٌ لإيليا بإرسال الطاقم إلى المحطة في غضون ساعة. ولكي أقتُلَ الوقت، بدأتُ في إنارة المصابيح والشموع في جميع الغرف ببطء، ثم جربّتُ مفاتح البيانو.

لم أتذكّر أنني كنت مستلقياً على الأريكة نفسها، ولم أفكر في أي شيء وبصمتٍ أبعدتُ بيدي الكونت الذي كان يزعجني بالمحادثات. كنت أهيم في ضربٍ من النسيان، نصف خدر، أشعر فقط بالضوء الساطع للمصابيح والمزاج البهيج والهادئ، صورة الفتاة بالأحمر وهي تميل برأسها علي كتفها، بعيون مفعمة بالرعب أمام موتٍ مؤثرٍ، انتصَبَتْ أمامي وهددتني بهدوءٍ بإصبع صغير؛ وصورة فتاة أخرى، في ثوب أسود ووجه شاحب ومتكبّر، مرَّت بالقرب مني ونظرت إليّ؛ إمَّا بضراعةٍ وإمَّا بعتاب.

بعد ذلك سمعتُ ضجيجاً، وضحكات، وركضاً، حجَبَتْ عينان سوداوان الضوءَ عنّي. رأيتُ تألُّقهما، وضحكهما، وابتسامة سعيدة تلعب على الشفاه المثيرة. كانت هذه غجريَّتي تينا، ابتَسَمَتْ لي.

ـ هل هذا أنت؟ سأل صوتُها.

ـ هل أنت نائم؟ استيقِظ عزيزي! لم أرَكَ منذ وقتٍ طويلٍ.

صافحت يدها بصمتٍ وسحبتُها نحوي.

ـ دعنا نذهب إلى هناك. وصلنا جميعاً.

ـ ابقَيْ، أنا بخير هنا، تينا!

ـ لكن هناك الكثير من الضوء، أنت مجنون! قد يدخلون.

ـ من يدخل سأكسر رقبته. أشعر بالارتياح، تينا. لقد مرَّت سنتان بالفعل، لم أركِ خلالهما. في القاعة بدأ العزف على البيانو.

«آه، موسكو، موسكو،

موسكو... الحجر الأبيض».

صاحت بعض الأصوات.

ـ كما ترين، جميعهم يغنون هناك، لن يأتيَ أحد.

ـ نعم.. نعم.

أخرجني اللقاء مع تينا من النسيان. بعد ذلك بعشْر دقائق قادَتْني إلى القاعة، حيث وقَفَت الفرقة في نصف دائرة، وجلس الكونت في الشرفة، على الكرسي وضرب الإيقاع بيديه. وقف بشيخوتسكي خلف كرسيّه، ونظر إلى الطيور المغرِّدَة بعيون مندهشة. انتزعتُ من يدي كاربوف آلتَهْ الموسيقية، البالالايكا، ولوَّحْتُ بيدي ورحت أعزف عليها.

أسفل ب الأ ـ مـــــــة... با ـ آ ـ فو ـ أو ـ أو

ـ التَقَطَتْ الجوقة الكلمات...

آه، احرق، قُلْ... قُلْ...

لوَّحْتُ بيدي، وعلى الفور مع سرعة البرق، جاءت نقلة جديدة.

ليالٍ مجنونة، ليالٍ ممتعة...

لا شيء أكثر إزعاجاً ودغدغة لأعصابي من مثل هذه الانتقالات المفاجئة. ارتجفتُ من شدّة البهجة والفرح العظيم، واحتضنتُ

تينا بيدٍ واحدةٍ، ولوَّحْتُ بـ«بالالايكا» باليد الأخرى، وأدَّيْتُ حتى النهاية أغنية «الليالي المجنونة». اصطدَمَتْ البالالايكا بالأرض وتطايَرَتْ إلى قطعٍ صغيرةٍ.

ـ مذنب!

وهكذا دواليك تقترب ذكرياتي عن تلك الليلة من الفوضى. كل شيءٍ اختَلَطَ، وتشوَّشَ، كل شيءٍ كان غائماً، غيرُ واضحٍ؛ أتذكَّرُ السماء الرمادية في الصباح الباكر. نسيرُ على متْنِ قوارب، كانت البحيرة متموِّجَةً قليلاً، وكأنّها متذمِّرَة، وهي تتطلّع إلى شغبِنا. أنا أقف في منتصف القارب وأتأرجَح، وتينا تؤكد لي، يمكن أن أسقط في الماء، وتطلب مني أن أجلس. أُعَبِّر بصوتٍ عالٍ عن الأسف لعدم وجود موجات عالية في البحيرة مثل جبل قبر الحجر، وأُثيرُ بصراخي مخاوِفَ البجع، التي تخُطُّ بقعاً بيضاء على السطح الأزرق للبحيرة. ويلي ذلك يومٌ حارٌّ طويلٌ مع وجبات الإفطار التي لا نهاية لها، وأنواع النبيذ المعتق، والبونش، والشِّجار. من هذا اليوم أتذكر بضع لحظات فقط: أتذكر نفسي أتأرجح مع تينا في الحديقة على أرجوحة. أقف في أحد طرفي اللوحة، وهي في الطرف الآخر. أعمل بعنف، بكل جسمي، بكل ما لديَّ من قوة، ولا أعرف ما أحتاج إليه حقاً: كي تسقط تينا من الأرجوحة وتتحطم حتى الموت، أم تصعد حتى الغيوم؟ تقف تينا شاحبةً مثل الموت، لكنها امرأةٌ متشامخةٌ وعزيزةُ النفس، أطبَقَتْ بشدَّة على أسنانها

حتى لا يَشِي أيُّ صوتٍ بخَوْفِها. نحن نطير أعلى فأعلى ولا أتذكَّرُ كيف انتهى الأمر. ثم يتْبَعُ التنزُّهَ مع تينا إلى ممرٍ بعيدٍ ذي قوسٍ أخضر يُخَبِئ من الشمس؛ شَفَقٌ شعريّ. الضفائر السوداء، الشفاه الفاتنة، الهمس، ثم بجانبي تمشي صاحبة صوت الكونترالتو، شقراء ذات أنْفٍ حادّ، وعيون أطفال، وخصْرٍ رقيقٍ للغاية. أمشي معها حتى تينا، التي تتعقَّبُنا، لا تثير لي مشكلة. الغجرية شاحبة ومحتَدِمَة غيظاً؛ تصفني بـ«الملعون»، مستاءة، وتستعد للرحيل إلى المدينة. كان الكونت شاحباً، يركض حولنا بأيادٍ مرتجفة، كدَأبِه، لا يجد أي كلماتٍ لإقناع تينا بالبقاء. أخيراً أعطتني صفعةً على وجهي. شيءٌ غريب! أنا أحتَدِمُ غيظاً من أدنى كلمةٍ بالكاد تكون إهانةً يقولُها رجلٌ، وغيرُ مبالٍ تماماً بالصفعات التي تمنَحُني إيّاها النساء. مرةً أخرى، «بعد الغداء» فترة طويلة، مرةً أخرى ثعبان على الدَّرَج، ومرةً أخرى فرانتس النائم، والذباب بالقُرْبِ من فَمِه، ومرةً أخرى بوابة، والفتاة بالأحمر تقِفُ على جبل قبر الحجر، ولكن عندما ترانا، تختفي مثل سحليّة.

مع حلول المساء، أصبحتُ وتينا أصدقاء مرةً أخرى. وتلي ليلة عاصفة كذلك، مع الموسيقى والأغاني الرنانة المرحة للغاية، والانتقالات التي تدغدغ الأعصاب، وبلا دقيقة واحدة من النوم!

ـ هذا تدميرٌ ذاتيّ! هَمَسَ لي أوريبنين، الذي مالَ للحظةٍ للاستماع إلى غنائنا.

هو بالطبع على حقّ. علاوةً على ذلك، أتذكَّرُ أنني والكونت نزعق، ونقف في الحديقة مقابل بعضنا البعض، ونتجادل. كان كيتان ذو الحاجب الأسود طوال الوقت يمشي من حولنا، ولا يشارك في أي مرح، ولكن مع ذلك، لم يَنَمْ، وظلَّ يتمشى طوال الوقت خلفنا مثل الظل. ابيضَّت السماء، وعلى قمة أعلى شجرة، لاحَتْ أشعة ذهبية للشمس الصاعدة. وفي كل مكانٍ تعالت ضجّة العصافير، وغناء الزرزور، وحفيف رفرفة الأجنحة التي ثقُلَت أثناء الليل، وتردَّدَ مُواء القطيع وصراخ الرعاة. وبالقرب منا طاولة ذات لوحٍ رخاميٍّ. وعلى الطاولة شمعة تشاندور بلهيبٍ شاحبٍ، وأعقاب السجائر، وقِطَعٌ من الورق من الحلوى، ونظارات مكسورة، وقشور برتقال.

ـ عليك أن تأخذ هذا! أقولُ، وأنا أعطي للكونت حزمةً من بطاقات الائتمان.

ـ سأجعلك تأخذها!

ـ غير أني دعوتك، وليس أنت! ـ يحاول الكونت إقناعي، محاولاً الإمساك بزرّي.

ـ أنا السيد هنا.. لقد ضيَّفْتُك، فلماذا تدفع أنت؟ اِفْهَم أنك تُهينني بهذا!

ـ لقد استأجرتُهم أيضاً، لذلك أدفع النصف. لا تأخذ؟ أنا لا أفهم

هذا الفضل! هل تعتقد حقاً أنه إذا كنت غنياً كشيطان، فلديك الحق في أن تُسدي إليَّ مثل هذا الفضل؟ اللعنة، لقد استأجرتُ كاربوف، سأدفع له! لا تحتاج النصف الخاص بك! أنا كتبتُ البرقيَّة!

ـ سيريوجا بوسْعِك أن تدفع في المطعم بقدر ما تريد، ولكنَّ منزلي ليس مطعماً! وبعد ذلك بالتأكيد لا أفهم ما الذي تسعى إليه، لا أفهم نشاطك. ليس لديك الكثير من المال، لكن لديَّ منه ما لا يُحْصَى، العدالة نفسها في جانبي!

ـ إذن لن تأخذ؟ لا؟ لا حاجة.

حملتُ أوراق الائتمان إلى لهيب شاندور الباهت، وأشعلتُها ورميتُها على الأرض. انبعَثَ فجأةً تأوّهٌ من صدر كايتان. اتَّسَعَتْ عيناه، وشحبَ لونُهُ وتهاوى بجسَدِهِ الثقيل على الأرض محاوِلاً براحة يديه إطفاء النار التي التَهَمَتْ الأوراق، ونجح.

وقال وهو يضع بطاقات الائتمان المحروقة في جيبه:

ـ أنا لا أفهم! حرق المال؟! كما لو أنها حُطام تبن العام الماضي، أو رسائل حب! الأفضل أن أعطيها لشخص فقير على إعطائها للنار.

ذهبتُ إلى داخل المنزل، هناك، في جميع الغرف، وعلى الأرائك والسجّاد، نام المغنّون المنهكون، الذين أعياهم التعب. كانت صديقتي تينا تنام على أريكة في «غرفة المعيشة الفسيفسائية».

إنها ممدودةٌ وتتنفَّسُ بصعوبةٍ، أسنانها مشدودة، وجهُها شاحبٌ، ربما تحلم بالأرجوحة. تتجوَّل العجوز سيشيخا في جميع أرجاء الغرف، وتتطلَّع بعينها الحادة بغضبٍ إلى الأشخاص الذين كسروا فجأةً صمتَ الموتى للضَّيْعَة المنسيَّة. إنها تمشي بدون جدوى، وتُتْعِب عظامها القديمة.

هذا كل ما تبقّى في ذاكرتي بعد ليلتين طائشتين، ولم يتم الاحتفاظ بالباقي في الأدمغة المخمورة، أو إنَّ وصفها غير مريحٍ. ولكن هذا يكفي!

لم تحملني زوركا أبداً في أي وقتٍ آخر بحماسةٍ شديدةٍ كما في الصباح الذي أعقَبَ حرْقَ أوراق الائتمان؛ أرادت أيضاً العودة إلى المنزل. دحرجَتْ البحيرة بهدوء موجاتها المكللة بالزَّبَد، وانعكست فيها الشمس المشرقة، استعددتُ لقيلولة نصف النهار.. وقَفَتْ الغابات وأشجار الصفصاف الساحلية بلا حراكٍ، كما لو كانت تؤدي صلاة الصباح. من الصعب وصْفُ حالة روحي في ذلك الوقت. دون أن أفصح كثيراً، لا يسعني إلا أن أقول أنني كنت سعيداً بشكل لا يُصَدَّق، وفي نفس الوقت اشتعلتُ خجلاً، عندما رأيت عند الانعطاف من ضيعة الكونت على الشاطئ الوجْهَ النوراني للعجوز الصياد ميخا المرهق بالعمل النزيه، وبالأمراض. يبدو ميخا مثل الصيادين التوراتيين: إنه أشيب وملتحٍ وينظر إلى السماء بتأمل، وعندما يقف بلا حراكٍ على الشاطئ ويراقب بعينيه

السحب الراكضة، قد يعتقد المرء أنه يرى ملائكةً في السماء.. أنا أحب تلك الوجوه.

عند رؤيته، أوقفتُ زوركا وأعطيته يدي، كما لو كنت أرغب في أن أتطهَّر بلمس يَدِه النزيهة الغليظة. رفع لي عينيه الصغيرتين، الفَطِنَتَين وأطلق ضحكةً ساخرةً.

قال وهو يَمُدُّ يَدَهُ لي بشكلٍ أخْرَق:

ـ مرحباً أيها السيد الطيّب! ما الخطب هل قُمْتَ بعملية اقتحام؟ أم جاء ذلك التنبل؟

ـ وصل.

ـ هذا كل شيء، أرى من خلال ملامح وجهك، أما أنا فأقف وأنظر من هنا، العالم هو العالم. بهرجة باطلة، انظروا! على الألماني أن يموت، لكنه يهتمّ بتوافه الحياة، أترون؟

وأشار الرجل العجوز بعصاهُ إلى حوض مسبح الكونت. خرج من المسبح قاربٌ مسرعٌ. جلس فيه رجلٌ في قبَّعَة فارس، وسُتْرَة زرقاء. كان هذا هو البستاني فرانتس.

ـ كل صباح يحمل المال إلى الجزيرة ويُخْفيه. لا يوجد مفهومٌ في رأسِهِ الأحمق بأن ليس هناك فرق بين الرمال والمال، ثمنها واحد؛ سيموت ولن يأخذ معه شيئاً منها. أعطِني سيجارة!

أعطيتُهُ علبة السجائر. أخذ ثلاث سجائر ووضعها في حضنه.

ـ هذه لابن أخي سأُضَيِّفُه.. دعْني أدخِّنْ.

تحرَّكَتْ زوركا التي نفَدَ صبرُها واندفعت. انحنيتُ تحيةً للرجل العجوز، شاكراً له أنه منَحَ عيوني الفرصةَ لترتاح على قسمات وجهه. تطلَّعَ في أثري لفترة.

استقبلني بوليكارب في المنزل، نظر لهيئتي الأرستقراطية بنظرة احتقارٍ ساحقةٍ، كما لو كان يريد معرفة ما إذا كنتُ قد سبَحْتُ هذه المرة بالبحيرة في بذلتي بالكامل أم لا؟

وغمغم:

ـ مبروك! هل حصلتم على المتعة!

قلت:

ـ اخرس، أحمق!

أغضبَتْني سحنَتُهُ البليدة. خلعتُ ملابسي بسرعة، وغطَّيْتُ نفسي ببطانية، وأغلقتُ عيني.

كان رأسي يدور، وكان العالم قد تلفَّفَ في الضباب. ومَضَتْ صورٌ مألوفةٌ في الضباب: الكونت، والأفعى، وفرانتس، الكلاب ذات اللون الناري، والفتاة بالأحمر، والمجنون نيكولاي يفيميتش.

ـ قتل الزوج زوجته! أوه كم أنت غبيّ!

وهددتني الفتاة ذات اللون الأحمر بهَزّ إصبعها، وحجَبَتْ تينا النور بعينيها السوداويين و... وأخذني الوَسَن.

ـ كيف يرقد بلذَّةٍ واطمئنانٍ! انظر إلى هذا الوجه الشاحب المُتْعَب، إلى هذه الابتسامة الطفولية البريئة، وأنصِتْ إلى هذا التنفُّس المتَّسِق، يمكن أن تعتقد أن هنا ليس محققاً قضائياً بل الضمير الهادئ بنفسه، يرقد على السرير! يمكن أن تعتقد أن الكونت كارنيف لم يصل بعد، وأنه لم تكن هناك حفلة سُكْر، ولا غجريات، ولا فضائح في البحيرة.. انهضوا، أيها الماكر! أنتم لا تستحقون نعمة سعادة النوم الهادئ! انهضوا!

فتحتُ عيني وتمدَّدتُ بلذَّةٍ، اخترق النافذة شعاعُ شمسٍ عريضٍ إلى سريري، تلاحقت فيه الواحدة تلو الأخرى، بُقَع بيضاء، وتطايرت قلِقَةً ذرات الغبار البيضاء، مما جعل الشعاع يبدو وكأنه مغطّىً باللون الأبيض الباهت. اختفى الشعاع من عيني مرةً وظهر مرةً أخرى، بقدر ما دخل أو خرج من منطقة الشعاع طبيبُ المقاطعة المحبوب بافيل إيفانوفيتش فوزنيسينسكي، الذي كان يذرّع غرفة نومي، مرتدياً معطفاً طويلاً مفتوح الأزرار غير مرتب، يتدلى عليه مثلما هو على علّاقة ثياب، ويداه في جيوب سرواله الطويل على غير العادة، سار الطبيب من الزاوية إلى الزاوية، من الكرسي إلى الكرسي، من لوحة بورتريه إلى لوحة بورتريه، وضيَّقَ عينيه قصيرةَ

النظر على كل ما وقع في طريق بصَرِه. مستسلِماً لعادته في حشر أنْفِه وإطلاق «عينيه» حيثما سنحت الفرصة، وهو ينحني مرةً ويستقيم بقوةٍ مرةً أخرى، ناظراً إلى المغسلة، وفي طيّات الجانب السفلي للستائر، وفي فتحات الباب، وفي المصباح.. كما لو كان يبحث عن شيءٍ، أو يريد التأكُّدَ من أن كل شيءٍ على ما يرام. وفيما حدج باهتمامٍ من خلال النظارات في بعض الشقوق أو ببقعةٍ على ورق الحائطِ، تجهَّمَ واتَّخَذَ وجهُهُ تعبيراً قلِقاً، واستنشق بأنْفِه الطويل، وحكَّها بعنايةٍ بظفره. قام بكل هذا تلقائيّاً، من دون وعيٍ وبالعادة، ولكن ومع ذلك تنقَّلَ بنظراتِهِ بسرعةٍ من شيء إلى آخر، كان لديه مظهرُ خبيرٍ يُجري الفحص.

روَّحَ عليَّ بصوتِهِ التينور، وهو ينظر إلى الصبَّانة، ويزيل بظفره الشعرَ من الصابون.

ـ انهض، يقولون لك!

تثاءبتُ وأنا أراه ينحني فوق المغسلة:

ـ آه... آه... آه... مرحباً، السيد شور! لقد مضى وقتٌ طويلٌ دون أن نلتَقي!

شاكسَتْ المقاطعة كلها الطبيبَ بتسميتِه بـ«بشور» لتضيق عينُهُ دائماً، وأنا أيضاً. وحينما رأى أنني استيقظت، اقترب فوزنيسينسكي مني، وجلس على حافة السرير، وسحب على الفور علبة الكبريت لعَيْنَيْه التي قام بتضييقها، وابتدر بالقول:

ـ على هذا النحو ينام الكسالى، والناس مرتاحو الضمير، وبما أنك لست هذا ولا ذاك، سيكون من المناسب لك، يا صديقي، أن تستيقظ مبكراً قليلاً.



ـ كم الساعة الآن؟

ـ تقترب من الحادية عشرة.

ـ ليأخذكم الشيطان ياشور! لم يطلب منكم أحدٌ إيقاظي مبكّراً! هل تعرفون أنني غفوتُ اليومَ فقط في الساعة السادسة، ومن دونكم، كنت سأنام حتى المساء.

وتناهى لي صوتُ بوليكارب من الغرفة المجاورة:

ـ إذن! ناموا قليلاً! ينامون لليوم الثاني على التوالي، ومع ذلك لم يكْفِهم! هل تعرفون ما هو اليوم؟

سأل بوليكارب، ودخل غرفة النوم وهو ينظر إليَّ مثلما ينظر الأشخاص الأذكياء إلى الحمقى، قلْتُ:

ـ الأربعاء.

ـ حسناً، بدون شك. لقد جعلوا ذلك عن قصد لكي يكون لديكم يومَيْ أربعاء في الأسبوع.

ـ اليوم الخميس! ـ قال الطبيب ـ إذن هكذا هو الأمر، يا عزيزي،

إنكم تفضلتم بالنوم طيلة يوم الأربعاء؟ جميل.. جميل جداً! إذن كم شربتم، اسمحوا لي أن أسألكم؟

ـ لم أَنَمْ لمدة يومين، أمّا كم شَرِبت.. لا أتذكَّر كم شَرِبْت.

بعد أن أبعدتُ بوليكارب، أنشأتُ أرتدي ملابسي وأصف للطبيب ما عانَيْتُه مؤخّراً من «الليالي المجنونة، والخُطَب غير المترابطة» التي تبدو رائعة وحساسة في أغاني الرومانس وقبيحة جداً في الممارسة. حاولتُ في توصيفي، ألا أتجاوز حدود «النوع السهل»، والتمسُّك بالحقائق، وعدم الانسياق في الأخلاقيات، بالرغم من أن كل هذا مخالفٌ لسجيّة إنسانٍ شغوفٍ بالنتائج والاستنتاجات. تحدثت وتظاهرت بأني أتحدث عن تفاهات، لا تقلقني مطلقاً. ورأفةً بتعفُّف بافل إيفانوفيتش ومعرفتي باشمئزازه من الكونت، خبّأتُ الكثير، وتناولتُ الكثير دون أن أغوص بالتفاصيل، ولكن، على الرغم من نبرتي المداعبة، ونمط خطابي الكاريكاتوري، كان الطبيب طوال قصتي يرنو بوجهي بجدية، وبين الحين والآخر يهز رأسه وبفارغ الصبر. لم يبتسم أبداً، كما يبدو أن «نوعي السهل» ترك عليه انطباعاً ثقيلاً.

سألته وقد أنهيتُ توصيفاتي:

ـ لماذا لا تضحكون، يا شورنكا؟

ـ لو لم ترووا لي أنتم كل هذا، وإن لم يكن هناك حدثٌ قد وقع، لَما كنتُ أصدِّق كل هذا. إنه تصرفٌ قبيحٌ بشكلٍ مؤلمٍ، يا صديقي!

ـ ما الحادث الذي تتحدّثون عنه؟

ـ مساء أمس كان لديَّ الرجل، الذي ضربتموه بالمجاديف بشكلٍ غير لائق، إيفان أوسيبوف.

قُمْتُ بهَزّ كتفيّ وقلت:

ـ إيفان أوسيبوف! أول مرة أسمع به!

ـ طويل القامة، أشقر، ذو نمشٍ على وجهه، تذكَّر! ضربتموه بالمجداف على رأسه.

ـ أنا لا أفهم أي شيء! لا أعرف أوسيبوف، لم أضرب أحداً بالمجداف، حلُمْت بكل هذا يا عمّ!

ـ بمشيئة الرب، أن يكون قد راودني هذا الحلم.. جاء إليَّ بطلب من إدارة منطقة «كارنيفسكي فولوست» وطلب مني شهادةً طبيةً فيما يتعلق بما هو مكتوبٌ في الطلب، هو نفسه لا يثق بأنكم أنزلتم الجرح به، والآن ألا تتذكّرون؟ جرح وكدمات، أعلى الجبين، على الحدود مع فروة الرأس، بلغَتْ حتى العظم، يا صديقي!

همستُ:

ـ لا أتذكَّر! من هو؟ ما مهنته؟

ـ رجل عادي من العاملين لدى كارنييف، كان جدّافاً هناك في البحيرة، لديكم، عندما تسامرتم.

ـ ربما! لا أذكر! ربما كنتُ في حالة سُكْرٍ، وبطريقة غير مقصودة...

ـ لا يا سيدي، ليس عن طريق الصدفة. يقول إنكم غضبتم عليه لسبب ما، وقمتم بشتْمِه لفترة طويلة، ثم احتدمتم غيظاً، ووثبتم عليه، وقمتم بضربه بشدة على مرأى شهود. علاوةً على ذلك، صرختم به: «سأقتلك، أيها الماكر المحتال!».

شعرتُ بالخجل ورحتُ أذرع الغرفة من الزاوية إلى الزاوية.

ـ اقتلني.. ولكنّي لا أتذكر! ـ قلت، وانا أجهد ذاكرتي بكل قوتي ـ لا أتذكر! تقول: «احتدمتُ غيظاً»، عندما أسكر، أكون نذلاً بشكلٍ لا يُغْتَفَر!

ـ ما هو الأفضل!

ـ من الواضح أن الرجل يريد إثارة فضيحة، لكن هذا ليس مهمًّا، المهم هو حقيقة الضربة: هل أنا قادرٌ حقّاً على الشِّجار؟ ولماذا ضربتُ الرجل المسكين؟

ـ نعم يا سيدي.. بالطبع، لم أستَطِع ألا أعطيه شهادة، لكنني عاجلتُ في نُصْحِه بالاتصال بك. ستلتقي به بطريقةٍ ما، الضرب خفيف، ولكن، أقول لك بشكلٍ غير رسميّ، إن جرح الرأس يخترق الجمجمة وهذا أمرٌ خطيرٌ. غالباً ما تكون هناك حالات، يبدو فيها

أن الجرح الطفيف جداً، الذي يُعْزَى إلى الضرب الخفيف، قد ينتهي بنخْرِ عظام الجمجمة، وبالتالي، رحلة الوداع.

ونهض «شور» المنفعل، وسار حذاء الجدران، ولوَّحَ بذراعيه، وبدأ عرض معرفته في علم الأمراض الجراحية أمامي: نخر عظام الجمجمة، والتهاب الدماغ، والموت، وأهوال أخرى تتدفق من فمه مع تفسيرات لا نهايةَ لها للعين المجهريّة والميكروسكوبية، والعمليات المرافقة لهذا التخفّي الضبابي، وغير المثير للاهتمام بالنسبة لي.

أوقفتُ ثرثرتَهُ الطبّية قائلاً:

ـ يكفي لغواً! يا ترى ألا تعرفون أن كل هذا يبعث على الملل؟

ـ هذا ليس مملاً.. أنتم تستمعون وتُبينون لأنفسكم. ربما في مرةٍ أخرى ستكون أكثر حذراً ولن تقوموا بتصرفات غير ضرورية بسبب أوسيبوف الماكر هذا. إذا لم تتفقوا معه، فقد تفقدون وظيفتكم! ثم إن آلهة العدل تُقاضي على الضرب؛ إنها فضيحة!

إن بافِل إيفانوفيتش هو الشخص الوحيد الذي أسمع مواعظه بروح منفتحة، ولا أقطّب جبيني منه، وأسمح له أن يرنو في عيني بنظرة استفهام، وأن يدُسَّ يده لاستقصاء مجاهل روحي. نحن أصدقاء معه بأفضل معنى للكلمة، ونحترم بعضنا البعض، على الرغم من أن بيني وبينه حسابات غير سارّة. مرَّت امرأة بيني وبينه،

مثلما تمر «قطة سوداء». هذه هي الذريعة الأبدية للحرب، بيننا حسابات لكننا لم نتخاصم، وما زلنا في حالة سِلْم. إن «شور» هو شخص لطيف للغاية، أحبُّ وجهه البسيط، الذي يعوزه الانسجام، بأنفه الكبير وعينيه الضيقتين ولحيته الرقيقة الشقراء. أحب قوامه الطويل والرقيق ذا الأكتاف الضيقة، التي تتدلى عليها السُّتَر والمعاطف، كما لو كانت على علّاقة.

يجمع بنطالهُ، الذي تمَّت خياطَتُهُ بصورةٍ مشوَّهَةٍ، في ثنايا قبيحة في الركبتين ويتلملَمْ بصورةٍ فاضحةٍ تحت الأحذية. ورابطة عنقه البيضاء تتدلى خارج مكانها، ولكن لا تعتقدوا أنه قذِرٌ ومتحشّف، فبعد أن تنظروا مرةً واحدةً إلى وجهه الذي يمعن النظر، ستفهمون أن ليس لديه وقت للاهتمام بشأن مظهره، وحتى لا يعرف كيف. إنه شاب، صادق، غير مغرور، يحب مهنته كطبيب دائم التنقُّل والترحال، وهذا يكفي لتفسير كل عثرات هندامه غير المبهرج، في صالحه. إنه كفنان، لا يعرف قيمة المال ويضحّي برصانة ورباطة جأش براحته وبخيرات الحياة من أجل أهوائه، ولهذا يترك انطباعاً بأنه رجل فقير، بالكاد يفي بحياته، وهو لا يدخن، ولا يشرب الخمور، لا يدفع للنساء، ولكن، مع ذلك، فإن الألفي روبل التي يستلمها لقاء الخدمة، والممارسة الطبية، تغادره بالسرعة التي تغادرني بها أموالي عندما أمر بفترة ولائم الشرب والمنادمة. عاطفتان تسلبانه المال: شغفه بمنح القروض للآخرين، وشغف

استجلاب الأشياء التي يجري الإعلان عنها في الصحف: إنه يمنح القروض لكل من يسأل، دون أن يقول كلمة ولو متلعثماً حول استردادها، وليس من الممكن بأي مسبارٍ اجتثاث إيمانه المتهوّر بنزاهة الإنسان، ويتجلّى هذا الإيمان أكثر وضوحاً في طلبه المستمر للأشياء التي تروِّج لها الإعلانات الصحفية. يطلب كل ما هو ضروري وغير ضروري؛ يطلب الكتب، والتلسكوبات والمجلات الفكاهية، أدوات المائدة، «تتكون من 100 وحدة»، والساعات. ولا عجب أن المرضى الذين يأتون إلى بافِل إيفانوفيتش يتعاملون مع غرفته كترسانة أو متحف؛ خدعوه وما زالوا يخدعونه، ولكن الإيمان لا يزال قوياً ومتهوراً. إنه شخص رائع، وسنلتقي به أكثر من مرة في صفحات هذه الرواية.

تذكر بغتة، وقال وهو يلقي نظرة على ساعته الرخيصة ذات الغطاء، التي استجلبها من موسكو «بضمان 5 سنوات»، ولكن مع ذلك، تم إصلاحها مرتين.

ـ لقد أمضيتُ فترةً طويلةً لديكم، حان الوقت يا صديقي! وداعاً وخذ حذرك! إن ولائم الشرب هذه لدى الكونت لن تنتهي بخير! ناهيك عن صحتك.. آه، نعم! هل ستأتون إلى «تينيف» غداً؟

ـ ما سيكون هناك غداً؟

ـ عيد راعي الكنيسة! ستكون عليّة المجتمع بأكملها هناك،

وأنتم تعالوا! ضروري أن تأتوا! لقد أعطيتُ كلمةً تعهَّدْتُ فيها بأنكم ستأتون بالتأكيد، لا تجعلوني كاذباً..!

لمن تَعَهَّد؟ لم تكن هناك ضرورةٌ أن أسأله. لقد فهمنا بعضنا البعض. بعد أن ودَّعني، لبس الطبيب معطفه الرثّ، وبارح منزلي، بقيتُ وحدي. ومن أجل إخماد الأفكار غير السّارة التي بدأت تعج في رأسي، ذهبت إلى مكتبي، محاولاً ألا أفكر، ولا أحسب لشيء، تناولت الأوراق التي تلقّيْتُها، لفت نظري أول مظروف، يحتوي على الرسالة التالية:

«عزيزي سيرويجا! آسف لأني أزعجك، لكنني مندهشة جداً لدرجة أنني لا أعرف لمن أتوجَّه، لا يبدو لهذا نظير. بالطبع، لا يمكن أن أسترجع كل شيء الآن، ولست آسفة، لكن احكم بنفسك إذا ما جرى التساهل مع اللصوص، فعندئذٍ لا يمكن أن تشعر أيّ امرأةٍ محترمةٍ بأمان في أي مكان. بعد أن غادرت، استيقظتُ على الأريكة ولم أجد الكثير من الأشياء عليّ. سرقوا سواراً، وزرّاً من الذهب، وعشرة أطواق من اللآلئ، وأخذوا من الحافظة مئة روبل. كنت أرغب في الشكوى عند الكونت، لكنه كان نائماً، وغادرت. هذا ليس جيداً. في منزل الكونت، ويسرقون كما في حانة. أخبِرْ الكونت. أنا أقبِّلُكَ وأنحني تحيةً لك. تينا المُحِبَّة».

كَوْن منزل الكونت يغصُّ باللصوص لم يكن خبراً جديداً لي، وقد ألحقتُ رسالة تينا بالمعلومات التي لديّ عن هذا الموضوع،

في ذاكرتي. عاجلاً أم آجلاً ـ يجب عليَّ أن أُدْخِل هذه المعلومات في القضيَّة؛ كنت أعرف اللصوص.

كانت رسالة تينا ذات العيون السوداء، بخطّها الغليظ المعبّر، قد أعادت للذاكرة غرفة الضيوف الفسيفسائية، وأثارت في نفسي رغبةً في الذهاب إلى منزل الكونت، على غرار الرغبة في الحصول على كسر الخمارة، لكنني تغلبتُ على نفسي وأجبرتُ ـ بإرادتي ـ نفْسي على العمل. في البداية شعرتُ بالملل بشكلٍ لا يُوَصف، لتميُّز الخطوط العريضة لمحاضر المحكمة، ولكن بعد ذلك تمَّ تركيز اهتمامي تدريجياً على السطو المصحوب بالعنف، وبدأت أعمل بمتعة. جلست في مكتبي طوال اليوم، وظل بوليكارب يسير بجانبي وينظر إلى عملي بارتياب. لم يؤمن برصانتي، وفي كل دقيقة كان ينتظر أن أقوم من على الطاولة وأطلب تسريج زوركا. لكن في المساء، بعد أن رأى مثابرتي، آمَنَ واستبدل تعبير الكآبة على وجهه بتعبير عن الرضا. بدأ في المشي على أطراف الأصابع، وتحدَّثَ بصوتٍ هامسٍ، عندما مرَّ الرجال مع هارمونيكا من النوافذ، خرج وصاح بهم:

ـ لماذا بحق الجحيم أنتم تثيرون الضجيج هنا؟ سيروا في الشارع الآخر! يا صعاليك أنتم لا تعرفون أي شيء، إن السيد يعمل!

في المساء، أثناء تقديم السماور في غرفة الطعام، فتح بابي بهدوء ودعاني بمودة لشرب الشاي. وقال، وهو يتنهد بلطف، ويبتسم باحترام:

ـ تفضَّلوا لتناول الشاي!

وعندما كنت أشرب الشاي، اقترب من خلفي بهدوء وقبَّل كتفي، وتمتم:

ـ هكذا أفضل، يا سيرجي بتروفيتش ابصقوا على هذا الشيطان الأشقر لكي... هل ممكن ممارسة الأعمال الشائنة مع ما تتمتعون به من إدراك رفيع وتعليم؟ إن عملكم نبيل، من الضروري أن يكون الجميع ممتنون لكم ويخشونكم، وإذا ما قمتم مع هؤلاء الناس الشياطين بتحطيم رؤوس الناس، والسباحة في البحيرة بملابسكم، فسيقول الجميع: «إنه من دون عقل! رجل تافه!»، وسيشاع عنكم صيتٌ سيّئ! إن هرج التاجر يناسبه، وليس للنبيل... النبيل يحتاج للعلم، للخدمة.

ـ حسناً، يكفي، يكفي.

ـ سيرجي بتروفيتش.. لا تخالطوا الكونت! وإذا كنت تريد أن تصادق، فلماذا ليس مع الدكتور بافل إيفانوفيتش؟ فقط إنه رثّ الثياب، ولكن يتمتع بعقل كبير!

أثَّر صدق وإخلاص بوليكارب في عواطفي، أردتُ أن أقول له كلمة رقيقة فسألته:

ـ ما هي الرواية التي تقرؤها الآن؟

ـ الكونت مونتي كريستوف. إنه كونت! كونت حقيقي! على عكس «كونتكم» القذر!

عقبَ الشاي، جلست مرةً أخرى للعمل، وعمِلْتُ حتى تعِبَ جفني، وأغلقت عينيَّ المتعبتين. عندما ذهبت إلى الفراش، أمرت بوليكارب بإيقاظي في الخامسة.

في اليوم التالي، في السادسة صباحاً، رحتُ أصفر بمرح، ضارباً رؤوس الزهور بعصاي، وأنا أمشي على الأقدام إلى بلدة تينيف، حيث يجري في ذلك اليوم عيد راعي الكنيسة الذي دعاني له صديقي شور، بافل إيفانوفيتش. كان الصباح بديعاً. بدت السعادة نفسها معلقة فوق الأرض، منعكسة في قطرات الندى الماسية، واستمالت لها روحَ عابر السبيل، وكانت الغابة المتدثرة في ضوء الصباح هادئةً وبلا حراك، كما لو تستمع إلى خطواتي وتغريدة الأخوة الطيور التي قابلتني ـ بتعابير عدم الثقة والخوف. كان الهواء مشبعاً بأبخرة الربيع الأخضر، الذي داعبَ برقَّتِه رئتي المتمتعة بالصحة. كنت أتنفسه، وأنظر بعيون مبتهجة الى الفضاء الفسيح، وشعرت بالربيع والشباب، وبدا لي أن أشجار البتولا الفتية، والعشب على جانب الطريق، والحشرات التي تطن، تشاطرني شعوري هذا.

«ولماذا، هناك، في العالم» ـ فكرتُ بذاتي ـ «يكتظ البشر في أكواخهم الضيقة، في أفكارهم الضيقة والمزدحمة، إذا كان هنا مثل هذه الرحابة للحياة والفكر؟ لماذا لا يأتون إلى هنا؟».

ولم تُرِدْ مخيلتي الشعرية أن تزعج نفسها بالفكرة عن الشتاء والخبز، وهما الغمّان اللذان يقودان الشعراء إلى بطرسبورغ الباردة وموسكو الفاسدة، حيث يدفعون مكافأة على الشعر، لكنهم لا يُعطون الإلهام.

مرّت بجواري قوافل الفلاحين، وعربات مُلّاك الأرض، مسرعةً إلى القدّاس والبازار، وكان عليَّ بين الحين والآخر أن أخلع قبعتي وأجيب على إيماءات التحية من الرجال والمعارف من مُلّاك الأراضي. عَرَضَ علي الجميع «الركوب» في عرباتهم، ولكن كان من الأفضل أن أذهب ماشياً على الأقدام من أن أذهب راكباً، وفي كل مرةٍ كنت أرفض العروض. وبالمناسبة مرّ بمحاذاتي فرانتس ـ بُستاني الكونت، مرتدياً سترة زرقاء وقبعة فرسان، نظر إليَّ بخمولٍ بعيونٍ ناعسة وخامدة، وجَعَلَتْهُ حافةُ القبّعة يبدو أكثر كسلاً. كان برميلٌ بسعة خمسة سطول مشدوداً خلفه بأطواق حديدية، من الواضح أنها فودكا.أزعج وجه فرانتس الكَريه مزاجيَ الشِّعري إلى حدٍّ ما، ولكن سرعان ما انتصرت الشاعرية مرةً أخرى، عندما سمعت ضجيج الطاقم ورائي، وعندما التفتُّ رأيتُ عربة ركوب ثقيلة تجرُّها فرسا كميت، وكانت تجلس في عربة الركوب الثقيلة على مقعدٍ جلديٍّ، بهيئة صندوق، إحدى معارفي الجدد: «الفتاة بالأحمر» التي تحدثت معي قبل يومين عن «الكهرباء» التي قتلت والدتها. وجه أولينكا الجميل الناعس بشكل خفيف، تهلَّلَ وتورَّدَ

قليلاً عندما رأتني ماشياً على الحافة الفاصلة بين الغابات والطريق. أومَأَتْ إليَّ برأسِها بمَرَحٍ، وابتسمت بحرارة، مثلما يبتسم المرء لأحد معارفه القدامى فقط. وصرخت لها.

ـ صباح الخير!

أومأت لي بيدها، واختفت مع عربتها، من مجال بصري ولم تُتح لي النظر إلى وجهها الجميل الغَضّ. هذه المرة لم تكن بالأحمر، كانت ترتدي بذلةً خضراء داكنة على هيئة إطار بأزرار كبيرة، وتعتمر قبعة من القَشّ ذات حواف عريضة، ولكن مع ذلك، أعجبتني ليس أقل من ذي قبل. كنت أودّ بكل سرور التحدث معها والاستماع إلى صوتها. أود أن أنظر في عينيها العميقتين، كما رأيت السماء فيهما في ذلك المساء، عند البرق المتلألئ. كنت أرغب في أن تنزل من العربة غير الجميلة، وأدعوها للذهاب إلى جانبي في بقية الطريق، وهو ما كنت سأفعله لولا «تقاليد» عليَة القوم. بدا لي لسببٍ ما، أنها ستوافق عن طيب خاطر على هذا الاقتراح، وليس عبثاً أنها التفتَت إليَّ مرتين عندما استدار الحنطور خلف أشجار الحور!

تبعد بلدة تينيف عن مكان إقامتي ستة فيرست ـ وتكاد تكون المسافة غير محسوسةٍ لشابٍّ في صباح جيد. كنت في بداية الساعة السابعة، وصلت من بيَن العربات والأكشاك الى كنيسة تينيف. كان ضجيج البيع والشراء يسود الجو، على الرغم من الصباح الباكر، وأن صلاة النصف الأول من النهار لم تنْتَهِ بعد. إنَّ صرير العربات،

وصهيل الخيول، وخوار الأبقار، والنفخ في أبواق صغيرة؛ كل هذا تداخَلَ مع صرخات السيدات الغجريات وغناء الرجال الذين تمكَّنوا من «الشرب حتى الثمالة». كان تنوع الأشخاص بعدد المَرِحين والمحتفلين! كم من السحر والحركات في هذه الكتلة البشرية المبهرة بألوان زاهية من الفساتين، التي يغمرها ضوء شمس الصباح! كل هؤلاء الآلاف من الناس، كانوا يحتشدون، يتحركون، يصخبون، من أجل القيام بعملهم في غضون ساعات قليلة والتفرُّق في المساء، تاركين وراءهم في الساحة، كما لو للذكرى، حطام القش، وفي بعض الأماكن الشوفان وقشور الجوز المتناثرة. دخل الناس في حشود كثيفة إلى الكنيسة وخرجوا منها.

بعث صليب الكنيسة أشعة ذهبية، مشرقة مثل الشمس نفسها. وتألَّقَ وبدا كأنه يلتهب بالنار الذهبية. والتهبت تحته قمة الكنيسة بنفس النار، ولمعت القبة الخضراء المطليَّة حديثاً في الشمس، وخلف الصليب المتلألئ ظهر لون أزرق شفّاف وبعيد. بعد أن عبرتُ سياجاً اكتظَّ بالناس، بلغتُ الكنيسة. كانت الصلاة قد بدأت للتَّوّ، وعندما دخلتُ، كانوا قد قرؤوا فقط الحواري، ران الصمت على الكنيسة، وكدَّرَتْ خطوات الشمّاس الذي يُوقِدُ البخور، القراءة. وقف الناس بهدوء، بلا حراك، يتأملون بتبجيلٍ في أبواب مملكة الرب المفتوحة، ويستمعون إلى القراءة الطويلة. آداب القرية، أو بالأحرى، الاستقامة القروية، تلاحق بدقةٍ كل محاولة لخرْق الصمت المبجَّل في الكنيسة.

لطالما شعرتُ بالخجل عندما اضطررتُ إلى الابتسام أو التحدُّث في الكنيسة. لسوء الحظ، غالباً ما أقابل أصدقائي في الكنيسة، الذين، للأسف، كان لديَّ الكثير منهم. وعادةً وبمجرد أن أدخل الكنيسة، يجيء لي على الفور واحدٌ من «المثقفين» وبعد مقدمة طويلة عن الطقس يطفق بالتحدث عن شؤونه التافهة. أجبت بـ«نعم» و«لا»، كنتُ دقيقاً لدرجة أنني لم أتمكَّن من عدم إيلاء الانتباه الكامل لمحاوري. وقد كلَّفني هذاالقدر من الدقة ثمناً باهظاً: لقد تحدثتُ وحوَّلْتُ عيني بإحراجٍ إلى الجيران المصلّين، خشية أن أهينهم بثرثرتي الخاملة.

ولم تكن هذه المرة من دون معارف. دخلتُ الكنيسة، رأيتُ عند المدخل بَطَلَتي، «الفتاة بالأحمر» التي التقيتُ بها بينما كنتُ في طريقي إلى تينيف.

وقفَتْ المسكينة وسط الحشد، حمراء كالسرطان، وتصبَّبَ العرق منها، وحوَّلَتْ وجهها بالكامل بعيون متوسلة، كأنها تبحث عن مُنْقِذ. كانت عالقةً في حشدٍ مزدحمٍ، وبَدَتْ، دون أن تتحرَّك ذهاباً وإياباً، وكأنها طائر، ضغطوا عليه بقوةٍ في قبضة. حينما رأتني، ابتَسَمَتْ بمرارة، وأومَأَتْ لي بذقنها الجميل.

قالت، وهي تمسك بكُمّي:

ـ رافِقوني إلى الأمام، لوجه الرب! هنا جوٌّ خانقٌ بشكلٍ فظيع.. ازدحام.. أرجوكم!

قلت لها:

ـ لكن في الأمام مزدحمة أيضاً!

ـ ولكن هناك أشخاص بملابس نظيفة ولائقة، وهنا أناس عاديّون، لقد خُصِّصَ لنا مكانٌ في المقدمة، ويجب أن تكونوا هناك.

إذن لم تكن حمراء؛ لأن الكنيسة كانت مزدحمة والجو خانقٌ فيها. لقد عذبَّتَ رأسها الصغير فكرةُ المكان غير المناسب! أصغيت إلى تضرعات الفتاة المتضايقة، ودفعتُ الناس بحذر، قُدْتُها إلى المنبر، حيث تجمَّعَت بالفعل نخبة مجتمع بلدتنا الأرستقراطي. وضعت أولينكا في المكان المناسب للادّعاء بكونها أرستقراطية، ووقفتُ وراء النخبة وانشغلتُ في الملاحظة.

الرجال والسيدات كالعادة تهامسوا وتضاحكوا. تحدث قاضي محكمة الصلح كالينين، وهو يحرك أصابعه ويهز رأسه، بصوت خافت، عن مرضه، لصاحب الأطيان ديريف. ووبَّخَ ديريف بصوتٍ عالٍ تقريباً، الأطباء، ونصح القاضي بالمعالجة عند طبيب اسمه يفسترات إيفانوفيتش. وعندما رأت السيدات، أولينكا، تناولْنَها كموضوعٍ جيدٍ، وأحدثن ضجةً. على ما يبدو أنَّ فتاةً واحدةً فقط، كانت تصلّي.. خرَّتْ على ركبتيها، وصوَّبَتْ عينيها السوداوين إلى الأمام، وحرَّكَتْ شفتيها. لم تلاحظ كيف سقطت خصلةُ شعرٍ من تحت قُبَّعَتِها، وتعلَّقَتْ بشكلٍ عشوائيٍّ على صدغها الشاحب، ولم تلاحظ كيف وقفتُ أنا وأولينكا بالقرب منها.

كانت هذه ابنة قاضي الصلح كالينين، ناديجا نيكولايفنا. إنني تحدَّثْتُ عنها عندما قلتُ سابقاً إنَّ «قطة سوداء» مرت بيننا، والدكتور أحبها بطريقة لا يتمكن منها إلا الاشخاص الجيدون، الذين لديهم قدرة على الحب على هذا النحو، مثل عزيزي بافل إيفانيتش.

والآن وقَفَ مثل الصاري بالقرب منها، وقد تهيّأَ لتلبية أيّ طلبٍ لها، ومَدَّ رقبَتَهُ، ومن حينٍ إلى آخر يرمي عينيه المُحِبَّتَين الضارعتين على وجهها الممعن في النظر، كما لو أنه حرس صَلاتَها، وأضاءت في عينيه رغبة جامحة، ومشتاقة ليكون موضوع صلاتها. ولكن لتعاسَتِه، عرَفَ من أجل مَن تُصَلّي، ليس من أجله.

أومأتُ لإيفان إيفانوفيتش، حينما نظر لي، وخرجنا معاً من الكنيسة.

واقترحتُ عليه:

ـ دعنا نتجوَّل في البازار.

دخَّنّا السجائر وذهبنا إلى الأكشاك.

سألتُ الدكتور، ونحن نصل إلى الكشك الذي كانت تُباع فيه اللُّعَب:

ـ كيف حال ناديجدا نيكولايفنا؟

وردَّ عليَّ الدكتور وهو يُضَيّق عينيه ليرى جنديّاً صغيراً ذا وجهٍ بنفسجي وفي بذلة قرمزية:

ـ لا بأس بها، أعتقد أنها حسنة جداً.. سألَتْ عنكم.

ـ عن أي شيءٍ سألَتْ؟

ـ هكذا، بشكل عام، غاضبة لأنكم لم تزوروهم منذ فترة طويلة. ترغب في الالتقاء بكم لتسألكم عن سبب هذه البرودة المفاجئة تجاه عائلتها؛ كنتم تزورونهم كل يوم، ومن ثم وما يبعث على الدهشة، بدا كما لو أنكم قررتم مقاطعتهم، حتى أنك لا تسلِّم عليها.

ـ أرجو أن تثقوا يا شور فعلاً، لقد توقَّفْتُ عن زيارة عائلة كالينين لعدم وجود وقت فراغ. إن علاقتي بهذه العائلة وكالسابق ممتازة، ودائماً أسلم بانحناءة عندما ألتقي بأحد أفرادها.

ـ يبْدَ أنكم التقيتم بأبيها في الخميس الماضي، ولسببٍ ما لم تجدوا ضرورةً بالرَّدّ على انحناءاته.

فقلت له:

ـ أنا لا أحب قاضي الصلح البليد هذا، ولا أستطيع النظر الى وجهه السمج، ولكن مع ذلك ما زال لدي ما يكفي من القوة للانحناء تحيةً له، ومدّ يدي للمصافحة. ربما لم ألاحظه الخميس أو لم أعرفه. إنكم اليوم يا شورا بمزاج سيئ وتتحاملون ظلماً.

تنهَّد بافل ايفانوفيتش:

ـ أحبكم يا عزيزي، ولكنني لا أثق بكم.. «لم ألاحظ.. لم أعرف». لا أحتاج لتبريراتكم، ولا لذرائعكم، ما النفع منها، إذا كان فيها قليلٌ من الحقيقة؟ إنكم شخص غِرّ وطيب، ولكن ثمة في دماغكم المريض، مختَلَف الفظائع.

ـ شكراً لكم بتواضع.

ـ لا تغضبوا يا عزيزي. أدعو الرب أن أكون مخطئاً، ولكن يُخَيّل لي، أنكم تعانون بعض الشيء من مرضٍ نفسيٍّ. أحياناً وعلى خلاف إرادتكم وطبيعتكم الجيّدة، تنطلق منكم رغبات وتصرفات، تجعل كل من يعرفكم كشخصٍ شريفٍ ومستقيمٍ في مأزق. أستغرب كيف تتلاءم مبادئكم الرفيعة الأخلاق والتي أتشرف بمعرفتها، مع دوافعكم المفاجئة التي تُسْفِر في النهاية عن هذه السفالة الصارخة.

وفجأةً، توجَّهَ بافل إيفانوفيتش إلى البائع مغيّراً نبرَتَهُ ورفع إلى عينيه الحيوان الخشبي ذي الأنف البشري، وعلى ظهره عِرف وخطوط رمادية وسأله:

ـ أي وحشٍ هذا؟

وقال البائع بصوتٍ رنّان:

ـ أسد، أو ربما حيوانٌ ما آخر. الشيطان يميّز بينهم!

ومن سرادق اللعب اتجهنا نحو الأكشاك «الحمراء» حيث تغلي التجارة.

وقال الدكتور:

ـ إن هذه الألعاب تخدع الأطفال فقط، إنها تمنحهم مفاهيم باطلة عن حيوانات بمنطقة ما، خُذْ هذا الأسد مثلاً: مخطط، وقرمزي ويصأصئ، يا ترى هل الأسد يصأصئ؟

قلتُ:

ـ أصغوا لي يا شور، على ما يبدو، تريدون أن تقولوا لي شيئاً، وكأنكم مترددون! تحدثوا، يطيب لي أن أستمع إليكم، حتى عندما تتفوهوا بأشياء غير سارّة.

ـ طيب، سارّة، أو غير سارّة، إذن استمعوا، أوَدُّ التحدث معك كثيراً.

ـ هيا تحدّثوا، إنني أتحوَّل إلى أُذُنٍ واحدةٍ كبيرةٍ جداً.

ـ لقد قلت لكم عن افتراضي بصدد أنكم تعانون من مرض نفسي. والآن، هل ترغبون في الاستماع إلى الأدلّة؟ سأتحدث بصراحة، ربما في بعض الأحيان بشكلٍ حادٍّ قليلاً، ستبعث كلماتي فيكم الكرب، ولكن لا تغضبوا يا صديقي، أنتم تعرفون مشاعري نحوكم: أنا أحبكم، أكثر من أي شخص آخر في المقاطعة، وأحترمكم. أنا أقول لكم ليس من أجل اللوم والإدانة، وليس من أجل طعنكم. سنكون على حدٍّ سواء موضوعيين يا صديقي. دعنا نتأمل في نفسيَّتِكم بعين محايدة، مثلما نعاين كبداً أو معدة.

أبديتُ موافقتي:

ـ حسناً، لنكن موضوعيين.

ـ ممتاز! دعنا نبدأ على الأقل بعلاقتكم بكالينين، إذا كان بإمكانكم التحكم بذاكرتكم، فستخبركم أنكم بدأتم بزيارة عائلة كالينين فور وصولكم إلى مقاطعتنا التي أنقذها الرب، لم يبحثوا عن التعرُّف بكم. منذ المرة الأولى لم تُعجِبوا قاضي الصلح بمظهركم المتغطرس، ونبرة الاستهزاء، وصداقتكم مع الكونت القميء، وما كان بإمكانكم أن تكونوا لدى القاضي، لو لم تقوموا بزيارته. هل تذكرون؟ وتعرفتم على ناديجدا نيكولايفنا، وبدأتم في الذهاب إلى القاضي كل يوم تقريباً. ورأيتُ في أي وقتٍ آتي به، كنتم دائماً هناك، واستقبلوكم بحفاوة بالغة. داعبكم هؤلاء الناس بكل ما يستطيعون، الأب والأم والأخوات الصغار تعلقوا بكم كقريب: إنهم أُعْجِبوا بكم، وحملوكم على الأيدي، وضحكوا على أقل مُلْحَةٍ منكم. فأنتم بالنسبة لهم مثال للذكاء، والنبل، والشرف. يبدو أنكم تفهمون كل هذا، وتدفعون على التعلُّقِ بكم ـ التعلُّقَ بهم، وتذهبون كل يوم، حتى في أيام الاستعداد للأعياد والجلبة التي تصاحبها. وأخيراً، ليس سرّاً بالنسبة لكم الحب التَّعِس الذي أثرتموه لنفسكم في قلب ناديا. أليس سرّاً؟ أنتم، تعرفون أنها تحبكم بشدة، وواصلتم الذهاب إليهم، وماذا يا صديقي؟ قبل عام، ودون سبب، أوقفتم زياراتكم فجأة. لقد انتظروكم لمدة أسبوع،

شهر،... إنهم ينتظرون إلى اليوم، لكنكم لم تظهروا! إنهم يكتبون لكم ولا تجيبون، وأخيرًا حتى لا تنحنون للتحية! وبالنسبة لكم، كشخصٍ يُعَلِّق أهمية كبيرة على اللياقة والأدب، يجب أن تبدو تصرفاتكم هذه غاية في الفظاظة! لماذا بهذه الصورة فجأةً وبشكلٍ مباغت ابتعدتم عن عائلة كالينين؟ هل أساؤوا لكم؟ لا. هل شعرتم بالملل منهم؟ في هذه الحالة، كان يمكنكم الابتعاد تدريجياً، بدون هذه الحدّة المهينة، التي لا سبب لها.

ابتسمتُ ابتسامةً عريضة:

ـ توقفت عن الزيارة، وأصبحتُ في عداد المرضى النفسيين. كم أنت ساذج، يا شورنكا! أليس سيان، أن تنهي الصداقة على الفور أم تدريجياً؟ على الفور أكثر صدقاً وأقلّ نفاقاً. ولكن ما كل هذا الهراء!

ـ لنفترض أن كل هذا هراء، أو أنك اضطررت إلى الانعطاف بشدة لأسباب خفيَّة، التي لا تهم الغرباء. ولكن كيف نفسّر تصرفاتكم اللاحقة؟

ـ على سبيل المثال؟

ـ على سبيل المثال كنتم ذات مرة في إدارتنا المحلّيَّة ـ لا أعرف أي عملٍ كان لديكم هناك ـ وفي ردّكم على سؤال المدير عن سبب عدم رؤيتكم عند عائلة كالينين، قلتم له ـ تذكرون ما قلتم! ـ:

«أخشى أن يزوِّجوني!»، إليك ما انفلَتَ من لسانكم! وقد قلتم هذا أثناء الاجتماع، وبصوتٍ عالٍ، وواضح، حتى سمعك 100 شخص متواجدين في قاعة الاجتماع! هل هذا جميل؟ وفي الجواب على كلماتكم تردَّدَتْ الضحكات، والأقوال الخَشِنَة الحادّة، بصدد موضوع صيد الأزواج. التقط أحد الأنذال عبارتكم، وذهب إلى عائلة كالينين وحملها إلى نادينكا أثناء الغداء. سيرغي بيتروفيتش! ما سبب هذه الإهانة؟

اعترضني بافل إيفانوفيتش، وقف أمامي وواصل، وهو يحدج بي بوجهٍ متوسِّلٍ، وعيون تكاد تكون باكية:

ـ ما سبب هذه الإساءة؟ على ماذا؟ هل لأن هذه الفتاة المليحة تحبكم؟ لنفترض أن لدى والدها، ومثل أي أب، تحفظاً على شخصكم، فهو وبروح أبوية يعني الجميع: أنت وأنا، وفلان، وعلّان...؛ إن الآباء متماثلون، وليس ثمة شكٌّ أنها تحبكم حبّاً عميقاً، ربما حداها الأمل أن تكون زوجتكم، فهل لهذا توجِّهون مثل هذه الصفعة الرنانة؟ يا رجل! يا رجل! ألم تحرّضوا بأنفسكم، على التحفظ على شخصكم. كنتم تذهبون كل يوم إلى عائلة كالينين، الضيوف العاديون لا يذهبون بهذه الكثافة. في ما بعد الظُّهر كنتم معها تصيدون السمك، وفي المساء تتنزهون في الحديقة، وتحرصون بغيرَةٍ على لقاءاتكم بانفراد، عرفتم أنها تحبكم، ولم تغيّروا سلوككم قيْدَ أنملة، فكيف بعد هذا لا يخامرنا الشك في

نواياكم الحسنة؟ كنتُ على يقين من أنكم سوف تتزوَّجونها! فيما أنتم.. أنتم رحتم تشتكون، وتسخرون! على ماذا؟ ما فعلت لكم؟

قلت، وقد تجاوزتُ بافل إيفانوفيتش:

ـ شورنكا لا تتكلّموا بصوتٍ عالٍ، الناس ينظرون إلينا، أنهوا هذا الحديث. إنه حديثٌ نسائيٌّ. سأقول لكم ثلاثة سطور فقط، وسيكفي هذا لكم: كنت أذهب الى عائلة كالينين لأني شعرت بالملل، وأثارت نادينكا اهتمامي؛ إنها فتاة جذابة جداً. كان من الممكن أن أتزوَّجها، بيْدَ أني عرفت أنكم تنافسونني على قلْبِها، عرفت أنكم لستم غير مبالين بها، وقرَّرْتُ التضليل، من القسوة بالنسبة لي وضع العراقيل أمام شخص لطيف مثلكم.

ـ شكراً على هذا الفضل المعروف! لم أطلب منكم هذه الصدقة الكريمة، وبقدر ما بوسعي الحُكْم على تعبير وجهكم، فإنكم لم تقولوا الحقيقية الآن، وتتحدَّثون عبثاً، ولا تتمعنون في كلماتكم، ومن ثم فإن حقيقة كوني شخصاً لطيفاً لم تعرقلكم، في أن تطلبوا، في إحدى زياراتكم الأخيرة وأنتما في التعريشة، يد نادينكا، التي لم يكن بوسعي أنا الشاب اللطيف كما تسمونني، أن أخمِّنَهُ لو تزوَّجْتُها.

ـ أها.. ها! شورينكا، من أين عرفتم عن هذا الطلب، إذن أموركم تسير على ما يرام، ما دام قد أصبحوا يأتمنونكم على مثل

هذه الأسرار! ولكن مع ذلك غدوتَ شاحباً من الغضب وتستعدون لضربي تقريباً، مع أنكم اتفقتم أن نكون موضوعيين! أنتم مضحك يا شورينكا! حسناً، كفّوا عن هذا الهراء، لنذهب إلى البريد.

توجّهنا إلى مكتب البريد الذي كان يُطِلُّ بنوافذه الثلاثة مبتهجاً على السوق، مضينا من خلال سياج جنينة موظف البريد مكسيم فيدوروفيتش، مختلفة الألوان، المعروف عنه في مقاطعتنا بالمهارة في تنظيم أحواض وحدائق الزهور والأعشاب وما إلى ذلك.

وجدنا مكسيم فيدوروفيتش يقوم بعمل ممتع جداً: جلس خلف طاولته الخضراء وقد احمرَّ من شدة السرور، ومبتسماً وتصفَّح حزمة أوراق نقدية سميكة من فئة المئة روبل مثلما يتصفَّح كتاباً. وكما يبدو، حتى نقود الآخرين يمكن أن تؤثر على مزاجه.

ألقيتُ عليه التحية.

ـ مرحباً يا مكسيم فيدوريتش، من أين لكم هذه الكمية من النقود؟

ابتسم الموظف بلطفٍ وأشار بذقنِهِ الى الزاوية حيث جلستْ على الكرسي الوحيد الذي لدى مكتب البريد، قامة بشريَّة داكنة.

ـ ذلك السيّد يُحَوّلها إلى سانت بطرسبورغ.

عندما رأتني هذه القامة نهضَتْ واقتربَتْ مني. عرفتُ أنه أحد

معارفي الجدد، عدوّي حديث العهد، الذي أهنْتُهُ حينما أسرفتُ في الشرب عند الكونت.

وقال:

ـ احترامي.

وأجبْتُهُ متظاهراً بأني لم أرَ يدَهُ ممدودةً للمصافحة:

ـ مرحباً يا كايتان كازيميروفتش، هل الكونت بصحة جيدة؟

ـ الحمد للرب.. فقط يشعر بالقليل من الملل.. ينتظر في كل دقيقة زيارتكم له.مكتبة

قرأتُ في وجه بشيخوتسكي الرغبة في التحدث معي. من أين يمكن أن تأتي هذه الرغبة بعد الإساءة التي «أطعمتهُ» بها في ذلك المساء، ومن أين هذا التغير في التعامل معي؟

وقلت له وأنا أرنو إلى حزمة الأوراق النقدية التي يقوم بتحويلها إلى سانت بطرسبورغ

ـ لديكم مالٌ كثيرٌ.

وكما لو أن هزّةً جعلت دماغي يصحو! رأيت أن حافة إحدى أوراق المئة روبل محروقةٌ بعض الشيء، فيما ابتلعت النار زاويةَ ورقةٍ أخرى تماماً.. كانت تلك هي أوراق المئة روبل التي أرَدْتُ

حرْقها في النار حينما رفَضَ الكونت أن يأخذها مني لدفع أجور الغجر، والتي رفعها بشيخوتسكي، حينما رميتُ بها على الأرض.

وقال حينها:

ـ من الأفضل أن أعطيها لأحد الفقراء، على أن تلتهمها النار.

لأيّ فقراء يا ترى أرسلها الآن؟

وأعلن مكسيم فيدورريتش وهو يمُدُّ في كلامه:

ـ سبعة آلاف وخمسمئة روبل، صحيح تماماً.

من المحرج الاطلاع على الأسرار الغريبة، بيْدَ أن رغبةً فظيعةً ساورتني لأعرف إلى مَن يرسل ذو الحواجب السوداء البولوني النقود في بطرسبورغ، ولمن تعود تلك النقود؟ ففي كل الأحوال هذه ليست نقوده، وليس هناك من يحوِّل له الكونت.

وفكرتُ «اختَلَسَ مال الكونت..! إذا كانت العجوز سيتشيخا تستطيع اختلاس الكونت، فما يمنع هذا من دَسّ يدِهِ في جيبه؟».

وتذكَّرَ بافل إيفانوفيتش فجأةً:

ـ أووه.. أنا أيضاً سأرسل نقوداً، هل تعرفون أيها السادة، حتى لا يمكن أن تصدقوا! خمسة أشياء مع قيمة شحنها، بقيمة 15 روبل! ناظور وكرونومتر والتقويم بالإضافة الى أشياء أخرى.. مكسيم فيدوريتش، أعطِني ورقةً ومظروفاً!

أرسل شور الخمسة عشر روبل، واستلمت أنا الجرائد والرسائل، وغادرنا مكتب البريد.

توجَّهْنا إلى الكنيسة. كان شورنكا يتبَعُني شاحباً ومكتئباً مثل يوم خريفي. وعلى عكس التوقعات، أثارت قلقه المحادثة التي حاول فيها أن يُظْهِر نفسه «موضوعياً».

كانت أجراس الكنيسة ترِنّ. ونزل من الشرفة حشدٌ كثيفٌ من الناس، لاح وكأنه من دون نهاية. ارتفعت من الحشد رايات متداعية وصليب داكن، سبقت المكَبّ الكنسي. وتراقصت أشعة الشمس ببهجة على ثياب القساوسة، وانبعث من أيقونة «أم الرب» أشعة شمس.

وقال الدكتور مشيراً إلى نخبة مقاطعتنا، التي انفصلت عن الحشد ووقَفَتْ جانباً:

ـ ها هم معارفنا.

وقلت له:

ـ معارفكم، وليس معارفي.

ـ لا فرق.. لنذهب إليهم...

ذهبت إلى المعارف، وأنشأت أنحني تحيةً لهم. وقف قاضي الصلح كالينين، وهو رجل طويل عريض الكتفين، ذو لحية بيضاء

وعيون منتفخة جاحظة، أمام الجميع، وهمس بشيءٍ ما في أذن ابنته. وتظاهر بأنه لم يلاحظني، ولم يَرُدَّ على انحناءاتي «للجميع» الموجَّهة في اتجاهه.

وقال بصوت باكٍ، وهو يطبع قبلةً على جبهة ابنته الشاحبة:

ـ وداعاً يا ملاكي الصغير، عودي إلى المنزل بمفردك، وسأرجع أنا عند المساء، لن تستمر زياراتي طويلاً.

قبَّلَ ابنتَهُ مرةً أخرى، وابتسم بلطف للنخبة، وقطَّبَ حاجبيه بشكلٍ صارمٍ، واستدار بسرعة على فردة حذائه نحو الرجل الواقف وراءه الذي تقلَّدَ إشارة واحدة من الرتب الدنيا للشرطة في القرية. وكقاعدة، يقوم بواجباته مجاناً، بطريقة الخدمة التطوعية.

وقال بصوت مبحوح:

ـ هل سيعطونني ـ قريباً ـ في نهاية المطاف جياداً؟

جفل الشرطيّ وطوَّح بيديه:

ـ احترس!

استدار الحشد الذي سار خلف الصليب، واقتربت من كالينين عربة القاضي بهيبة وبرنين الأجراس. وجلس وانحنى بوقار وأزعج الحشد بـ«احترس» واختفى عن الأنظار، من دون أن يمنحني نظرةً واحدةً.

وهمست في أذن الدكتور:

ـ أيّ خنزير وقور، لنذهب من هنا!

وسألني بافل إيفانوفيتش:

ـ يا ترى.. لا ترغبون في الحديث مع ناديجدا نيكولايفنا؟

ـ حان وقت عودتي للمنزل. ليس عندي وقت.

تطلَّع بي الدكتور غاضباً، وتنهَّدَ وذهب. انحنيتُ تحيّةً للجميع، وتوجَّهْتُ إلى السرادق. وإذ كنتُ أشُقُّ طريقي من خلال الحشد الكثيف، استدرتُ وألقيتُ نظرةً على ابنة قاضي الصلح. تطلَّعَت بأثري، كما لو أنها تجسُّ هل سأتأثر أنا أم لا، بنظَرِها الصافي الثاقب المفعم بالمرارة والاستياء واللوم. وقالت عيناها:

ـ على ماذا؟

تحرَّكَ شيءٌ ما في صدري، وشعرتُ بالألم والخجل من تصرُّفي الأحمق. وفجأةً استولت عليَّ الرغبة في أن أعود وبكل قوة روحي الرقيقة، التي لم ينلها العطب، لملاطفة وتدليل هذه الفتاة التي تحبّني بحرارة وأسأت لها، وأقول لها إنني مذنبٌ، وأن كبريائي اللعينة لا تدعني أحيا، وأتنفس، وأخطو خطوة. إن الكبرياء حمق وطيش، مفعمةٌ ببهرجةٍ باطلةٍ. فهل بميسوري، أنا الإنسان الفارغ، أن أمُدَّ يد المصالحة لها، لو عرفتُ ورأيتُ، أن عيون نساء مقاطعتنا

النمّامة و«العجائز الشريرات»، رصدت كل حركة من حركاتي؟ من الأحسن أن أدعَهُنَّ يَصْبُبْنَ عليها نظرات الازدراء والبسمات، من أن ينصرفن عن اعتقادهن في «ثبات» طبعي وكبريائي، التي هي أكثر ما يعجب النساء الحمقاوات فيَّ.

لم أكن صريحاً ولا دقيقاً تماماً حينما قلتُ سابقاً لبافل إيفانوفيتش عن الأسباب التي دعتني إلى قطع زياراتي لعائلة كالينين. أخفيتُ السبب الحقيقي، أخفيته لأني خجلت من تفاهته. كان السبب صغيراً كبارود، ينحصر في التالي: في آخر زياراتي بعد أن سلَّمْتُ فرسي زوركا إلى السائس، ودخلتُ إلى دار عائلة كالينين، ترامَتْ لآذاني عبارة:

ـ أين أنتِ يا نادينكا؟ جاء خطيبك!

قال هذا والدها، على الأرجح لم يحسب قاضي الصلح أنَّ بوسعي أن أسْمَعَهُ، بيْدَ أنني سمعْتُهُ، وطفِقَتْ عزة النفس بالكلام. وفكرتُ:» أنا خطيب؟ من سمح لك تسميتي بالخطيب؟ وعلى أيّ أساس؟».

وكأنه قد انقطع ما في صدري، تحركت الكبرياء في دخيلتي، نسيتُ كل شيء تذكرته وأنا قادمٌ على عائلة كالينين: نسيتُ أنني جذبتُ الفتاة لي، وبدأتُ بالولع بها إلى حدٍّ لم أستطع أن أمضي مساءً واحداً من دون صحبتها؛ نسيتُ عيونها الجميلة، التي لم

تغرب نهاراً أو ليلاً عن ذاكرتي، وابتسامتها اللطيفة، وصوتها الرخيم؛ نسيتُ الأماسي الهادئة، الصيفية، التي لن تُعاد لا بالنسبة لي ولا لها. لقد هدم ضغط التكبُّر الشيطاني كل شيء، أهاجتني العبارة الغبية للوالد البسيط، فانقلبتُ عائداً من المنزل حانقاً، وامتطيت زوركا وانطلقت، وقد أقسمتُ لنفسي على «تخطّي» كالينين، الذي جرُؤ، ومن دون أن أسمح له، بتسجيلي في قائمة خاطِبي ابنته.

«بالمناسبة، فوزنيسينسكي يحبها»... ـ برَّرْتُ قطع زيارتي بصورة مفاجئة، وأنا ذاهبٌ إلى منزلي ـ فهو بدأ قبلي يهتم بها، واعتبروه خطيباً لها، حينما تعرفت عليها. لن أعرقله!».

ومنذ ذلك الحين لم أحلّ ضيفاً على عائلة كالينين، على الرغم أن لحظاتٍ مرَّت بي، مزَّقَتْ أوصال روحي، وعانيتُ فيها من الشوق لناديا، وتحرَّقْتُ شوقاً إلى استئناف الماضي، بيْدَ أن المقاطعة بأسْرِها عرفت عن القطيعة التي وقعت، عَرفتْ بأنني «هربتُ من الزواج...». لم تستطع كبريائي التنازل.

من يعرف؟ لو لم يتفوَّه كالينين بتلك العبارة، ولو لم أكن أنا بهذا الغباء والاستعلاء والحساسية، ربما لم أحتج للتلفُّت حولي، ولم تكن لديها حاجة للنظر لي بمثل هذه العيون، ولكن من الأفضل لتكن مثل هذه العيون، وتكون مشاعر الاستياء والملامة هذه، من ذلك الذي رأيته في هذه العيون بعد مُضِيّ عدة أشهر من لقائي بها

عند كنيسة تينيف! فالحزن الذي لمَعَ الآن في أعماق هذه العيون السوداء، لم يكن سوى بداية لتلك الكارثة الرهيبة، التي كانت مثل قطارٍ انطلق بغتةً، ومحت هذه الفتاة عن وجه الأرض. إن تلك كانت أموراً طفيفة مقارنة بما حدث لاحقاً ونال جسدها الهشّ، وروحها المشتاقة!

عندما خرجتُ من تينيف، ذهبتُ في ذات الطريق التي سِرْتُ بها في الصباح. أبانت الشمس أن النهار مازال في منتصفه. شنَّفَت عربات الفلاحين وحناطير أصحاب الأراضي ـ سمعي بصريرِها وزمجرة أجراسها المعدنية. مرَّ البستانيُّ فرانتس مع برميل الفودكا مرةً أخرى، وعلى الأرجح أن البرميل ممتلئ في هذه المرة. نظر أيضاً إليَّ بعيونه الشَّرِسَة، وأرسل لي تحيةً بحافة قبّعته. شعرت بالنفور من وجهه المقزز، ولكن هذه المرة أزالت ابنة حارس الغابة أولينكا، التي لحقت بي بعربتها الصغيرة، الانطباعَ الثقيلَ الذي تركه اللقاء به، وهتفتُ لها:

ـ هل يمكن أن تُوصِليني؟

أومأَتْ لي برأسها ببهجة، وأوقَفَتْ العربة. جلستُ بالقرب منها، وسارت العربة مع فرقعةٍ على الطريق التي امتدت خطاً منيراً عبر ممر غابة تينيف البالغ طوله ثلاث فيرستا. تطلَّعْنا لبعضنا البعض بصمتٍ لمدة دقيقة أو دقيقتين.

فكرتُ وأنا أنظر إلى جِيدها وذقنها النافر قليلاً.. لو اقترحوا علي

أن أختار بينها وبين نادينكا، لوقع اختياري على هذه؛ إنها طبيعية، نضرة، طبيعتها أوسع وأعرض، لو وَقعَت بيد رجلٍ ماهرةٍ ـ فيمكن أن يصنع الكثير منها! أما تلك فهي كئيبة، وحالمة... وذكية.

كانت عند أقدام أولينكا قطعتان من القماش، وعدة حُزَم. فقلت لها:

ـ لديكم عدد كبير من المشتريات! ما حاجتكم إلى الكثير من القماش؟

وردَّت أولينكا:

ـ هذا القدر لا يسُدُّ حاجتي بعد! بالمناسبة، اشتريتُ لا على التعيين، لا يمكنكم أن تتخيّلوا، مقدار المتاعب! تجوَّلْتُ اليوم في البازار طوال ساعة، ويتعيَّن عليَّ الذّهاب غداً إلى المدينة للتسوّق، ومن ثم الخياطة. استمعوا، هل هناك بين معارفكم من النساء، واحدة يمكن أن تخيط لقاءَ أجْر؟

ـ لا أظن.. كلّا، ولكن ما حاجتكم لهذه الكمية من المشتريات، لماذا الخياطة؟ فعائلتكم ليست كبيرة: واحد، اثنان.. لا غير.

ـ إلى أيّ حدٍّ أنتم أيها الرجال غريبو الأطوار! ولا تفهمون أي شيء! عندما تتزوجون، ستغضبون لو تأتيكم زوجتكم بعد عقد القران شعثاء الشعر. أعرف أن بيوتر يجوريتش لا يحتاج لكل

ذلك، ومع ذلك فمن المحرِج أن أُظْهِرَ نفسي لستُ بربَّةِ بيتٍ منذ المرة الأولى.

ـ ما شأن بيوتر يجوريتش هنا؟

وقالت أولينكا وقد احمرَّتْ قليلاً:

ـ هل.. تسخرون؟ حقاً لم تعرفوا؟

ـ أنتم أيتها السيدة تتحدّثون في الألغاز.

ـ يا ترى ألم تسمعوا؟ سأتزوَّج من بيوتر يجوريتش!

استغربتُ، وأوسَعْتُ من عيوني:

ـ زواج؟ على شخص يُدْعَى بيوتر يجورتش؟

ـ يا إلهي! على أوربينين!

حدجتُ ـ مبتسماً ـ في وجهها الذي اصطبغ باللون الأحمر.

ـ أنتم.. تتزوجون؟ على أوربينين؟ إنها بالطبع مزحة!

ـ ليس في هذا أيّ مزاح.. أنا حتى لا أفهم، ما هي المزحة في ذلك؟

وقلت، وقد شحبتُ دون أن أعرف لماذا:

ـ أنتم تتزوجون.. من أوربينين، إذا لم تكن مُزحة، فما هي؟

قالت أولينكا، وهي تنفخ شفتيّها:

ـ أي مُزَح! حتى لا أعرف ما المُدْهِش والغريب هنا!

مرَّتْ دقيقةُ صمتٍ.. رنَوْتُ إلى الفتاة الجميلة، إلى وجهها الفتِيّ الطفوليّ تقريباً وتساءلت: كيف تُسَوِّل لنفسها مثل هذا المزاح الرهيب؟ وتخيَّلْتُ على الفور أوربينين العجوز السمين ذا الوجه المعوَجّ، يقف إلى جوارها بأذنيه الناتئتين ويديه الخشنة، التي عند اللمس يمكن فقط أن تخدش الجسد الأنثوي الذي بدأ يحيا توّاً في حورية الغابة الحسناء، التي تتمتع بقدرة النظر إلى السماء بشاعرية، حينما يتراكض عليها البرق ويتذمر الرعد بغضب؟ يا ترى ألا تبعث مثل هذه الصور الرعب، ساورني الخوف!

تنهدت أولينكا:

ـ حقاًإنه عجوز قليلاً، ولكنه بعد ذلك يُحِبّني.. إن حُبَّهُ موثوق.

ـ المسألة ليست في الحب الموثوق، بل في السعادة.

ـ سأكون معه سعيدةً؛ إنه ثريّ ـ والحمد للّٰه أنه ليس داعراً ما، ولا متسوِّلاً، بل نبيلاً. بالطبع لم أقَعْ في حُبِّهِ، ولكن هل الذين يتزوجون بالحب سعداء؟ أعرفُ زيجات الحب هذه!

سألتها، وأنا أرمق برعب عينيها الصافيَتَيْن:

ـ بُنَيَّتي، متى تمكنتم من حشو رأسكم المسكين في هذه الحكمة

الدنيوية الفظيعة؟ لنفترض أنكم تمزحون معي، ولكن أين تعلمتم المزاح بهذه الفظاظة على طريقة العجائز؟ أين؟ ومتى؟

رمقتني أولينكنا بدهشة وهزَّتْ كتفيها، وقالت:

ـ لا أفهم ما تقولون، لا يطيب لكم أن تتزوج فتاةٌ شابّةٌ من عجوز؟ أليس كذلك؟

انفجرت أولينكا فجأةً وهي تهز ذقنها بعصبية، وقبل أن تنتظر ردّي، تحدَّثَتْ بسرعة:

ـ هذا لا يعجبكم؟ إذن تفضّلوا واذهبوا بأنفسكم إلى الغابة في هذا الملل، حيث لا يوجد أحدٌ سوى الصقور الجارحة والأب المجنون، والزموا العيش هناك، حتى يأتي عريسي الشّاب! هل أعجبكم في ذلك المساء، لو تسنّى لكم النظر في الشتاء، حينما يكون المرء سعيداً، لو كان الموت على وشك المجيء.

ـ آه، كل هذا سخف، كل هذا حماقة! لو لم تمزحوا.. فأنا لا أعرف ما أقول! اصمتوا ولا تُهينوا الهواء بالكلام! لو كنت مكانكم، سأخنق نفسي على أشجار الحور، وأنتم تشترون القماش وتبتسمون! ها.. ها!

وقالت بهمسٍ:

ـ على الأقل سوف يُعالَج والدي على نفَقَتِه.

وصرختُ بها:

ـ كم تحتاجون لعلاج الوالد؟ أنا أعطيكم! مئة؟ مئتان؟ ألف؟ أنتم تكذبون، يا أولينكا! لستم بحاجة لمعالجة الوالد!

لقد أقلقني الخبر الذي أبلغَتْني به أولينكا، لدرجة أنني لم ألاحظ، كيف أن العربة مرَّتْ حذاءَ قريتي، وكيف أنها دخلت في فناء الكونت، وتَوَقَّفتْ عند سقيفة المدير، وعندما رأيتُ الأطفال الراكضين، ووجْهَ أوربينين المبتسم، الذي هرعَ لمساعدة أولينكا على النزول، قفزتُ من العربة، من دون أن أوَدِّعَ أحداً، وهرعتُ نحو منزل الكونت. كان ينتظرني هنا خبرٌ جديدٌ في الوقت المناسب! في الوقت المناسب ـ استقبلني الكونت، وهو يخدش خدّي بشارِبِهِ الطويل. لم تستطع اختيار وقتٍ أفضل! جلسنا للتَّوّ لتناول الإفطار. من دون شكٍ أنت قد تعرَّفْتَ عليّ.. لا بد وأن تكونوا قد التقيتم خلال عملكم القضائي.. ها..ها!

أشار لي الكونت بيديه إلى شخصين، يجلسان على الكراسي الوثيرة ويأكلان لساناً بارداً. عرفتُ من دون ارتياح أن أحدهما كان القاضي كالينين، والآخر عجوز قصير أشيب ذو صلعةٍ على هيئة هلال، كان بابايف وهو من معارفي الجيدين، مالك أراضي ثريَّاً، يشغل منصب العضو الدائم. في مجلس مقاطعتنا، نظرتُ وأنا أنحني إلى كالينين مندهشاً.. فقد كنتُ أعرِفُ أنه يكره الكونت، وأعرف ما هي الشائعات التي روَّجَها في المقاطعة عن الذي يأكل

الآن عنده بشهيّةٍ بالغةٍ لساناً من إناءٍ خزفيّ، ويكرع مشروباً معتّقاً لعشر سنوات. كيف بوسْع شخصٍ شريفٍ أن يفسِّرَ هذه الزيارة؟ التقط القاضي نظري، وعلى الأرجح فهِمَهُ.

قال لي:

ـ لقد كرَّسْتُ اليوم للزيارات. درْتُ في جميع أنحاء المقاطعة، ومِلْتُ على صاحب السعادة، كما ترون.

جلب إيليا طقم صحون رابع. جلستُ وشربتُ قدحاً من الفودكا، وبدأتُ أتناول الفطور.

وواصل كالينين حديثَهُ الذي قطَعَهُ وصولي:

ـ ليس جيداً، يا صاحب السعادة.. ليس جيّداً! إنها ليست خطيئتنا نحن الناس الصغار، لكنكم شخصٌ نبيلٌ وغنيٌّ ولامعٌ. إن إغفالها هي خطيئتكم.

ووافق باباييف بالقول:

ـ صحيح أنها خطيئتكم.

وسألتُ:

ـ ما الأمر؟

أومأ الكونت برأسه إلى القاضي:

ـ أعطاني نيكولاي إغناتيتش فكرة جيدة! جاء لي، وجلس لتناوُل الإفطار، وأنا أشكو له من الملل،

وقاطع كالينين الكونت:

ـ يشكون لي من الملل، ملل وكآبة.. ثم نعم.. قصارى القول، خيبة أمل.. بطريقةٍ ما مثل حالة بطل بوشكين في رواية «يفجيني أونيغين».. وأنا أقول له، فخامتكم أنتم المذنبون.. كيف ذلك؟ الأمر بسيط للغاية.. أنا أقول لكي لا تشعروا بالملل، اخدموا.. انشغلوا في أمور المزرعة.. المزرعة ممتازة، رائعة. يقولون إنهم ينوون الانشغال بالمزرعة، ولكن مع ذلك هناك شعورٌ بالملل؛ ليس لديهم، إذا جاز التعبير، عنصرٌ ترفيهيٌّ ومنشِّطٌ. لا يوجد هذا، كيف يمكن التعبير.. آه.. مشاعر قوية.

ـ حسناً، وما الفكرة التي أعطيتموها؟

ـ في الواقع، لم أُعْطِ أيّ فكرةٍ، ولكنني تجرأتُ فقط على لَوْمِ سعادته. قلتُ له كيف لسعادتكم، أنتم الشّاب المتعلّم والرائع، أن تعيشوا في عزلةٍ كهذه؟ وأقول، أليست هذه خطيئة؟ أنتم لا تذهبون إلى أيّ مكان، ولا تستقبلون أحداً، ولم يَرَكُمْ أحدٌ في المحافل الاجتماعية: تنكمشون مثل رجلٍ عجوزٍ أو ناسكٍ. وقلت له يستحق الأمر إقامة حفلات استقبال في قصركم، في يوم ثابت من أيام الأسبوع، إذا جاز التعبير!

وسألته:

ـ لأي غرضٍ تقوم الاحتفالات في هذه الأيام الثابتة؟

ـ كيف لأي غرض؟ أولاً، إذا كانت لديه أمسيات، سيتعرف سعادته خلالها على المجتمع، وسيدرس المجتمع، إذا جاز التعبير. وثانياً: سيحظى المجتمع بشرف التعرُّف عن قربٍ على أحد أغنى مُلّاك الأراضي لدينا، وإذا جاز التعبير، يجري تبادل الأفكار، والأحاديث، والمرح. وكم لدينا من الشابات المتعلمات، والمرافقين للنساء! ويمكن ترتيب مختلف أشكال الأمسيات الموسيقية، والرقصات والنزهات! القاعات هنا ضخمة، والعرائش في الحديقة وغيرها. يمكن تقديم عروض مسرحية وحفلات موسيقية، لم يحلم بها أحد في المقاطعة. تاالله! احكموا بأنفسكم! الآن كل هذا يضيع من دون جدوى تقريباً، مدفون في الأرض، وحينها ما عليك سوى أن تفهم! لو كان لديَّ مثل هذه الإمكانات التي لدى سعادته، لكنت قد أظهرت كيف ينبغي العيش! ويقولون: ملل! إن الاستماع لهذا أمرٌ مثيرٌ للسخرية حتى إنه مُخْجِلٌ.

ورمش كالينين بعينيه، راغباً في التظاهر بأنه يشعر بالخجل حقّاً.

وقال الكونت، وهو ينهض داسّاً يديه في جيوبه:

ـ هذا صحيحٌ تماماً. يمكن أن تُقام لدي أمسيات رائعة، حفلات وعروض مسرحية للهواة، كل هذا يمكن ترتيبه بشكل رائع. وإلى

جانب ذلك، فإن هذه الأمسيات لن تسلّي المجتمع فحسب، بل سيكون لها أيضاً تأثير تعليمي! أليس كذلك؟

قلتُ موافقاً:

ـ حسناً، نعم، عندما ستنظر فتيات المقاطعة إلى وجهك المغطّى بالشوارب، ستتغلغل على الفور روح الحضارة.

ـ أنت طوال الوقت تمزح يا سيريوجا ـ انزعَجَ الكونت مني ـ لكنك لم تقدِّم لي أبداً نصائح ودّية! تسخر من كل شيء! حان الوقت يا صديقي لترك هذه العادات الطلابية!

كان الكونت يذرع الصالة من زاوية إلى أخرى، وبافتراضات طويلة ومملة، أنشأ يصف لي الفوائد التي يمكن أن تجلبها أمسياته للإنسانية: الموسيقى، والأدب، وخشبة المسرح، وركوب الخيل. الصيد وحده يمكن أن يرصّ وحدةً أفضل وأقوى للمقاطعة!

قال الكونت لكالينين، وهو يودِّعُهُ عقب الفطور:

ـ سنتحدث أكثر عن هذا!

وسأل القاضي:

ـ إذن اسمح يا صاحب السعادة للمقاطعة أن تعقد الأمل عليكم.

ـ بالطبع، بالطبع، سأُطَوِّر هذه الفكرة، سأحاول.. أنا سعيد.. حتى للغاية، لذا أخبر الجميع.

كان من الضروري رؤية ذلك الانشراح المكتوب على وجه القاضي عندما جلس في حنطوره وأمَرَ: «لنذهب!»، كان مسروراً جداً لدرجة أنه نسيَ الخصومة بيننا وقال لي وداعاً، وصافحني بشدة.

عند مغادرة الزوار، جلستُ أنا والكونت على الطاولة وواصلنا تناول وجبة الإفطار. تناولنا الفطور حتى الساعة السابعة مساءً عندما أُزيلَتْ الأطباق من طاولتنا وقُدِّمَ لنا الغداء. إن الشباب المخمورين يعرفون كيفية قضاء فترات الاستراحة الطويلة. لقد شربنا وأكلنا قطعاً صغيرةً طوال الوقت، وبهذا دعمنا الشهيَّة التي كنا سنفقدها إذا توقفنا تماماً عن تناول الطعام.

سألت الكونت، وقد تذكَّرْتُ تلك الحزم النقدية من مئة روبل التي رأيتُها في الصباح في مكتب بريد تينيف:

ـ هل أَرْسَلْتَ اليوم أموالاً إلى أيّ شخصٍ في بطرسبورغ؟

ـ كلا لم أرسل لأي أحد.

ـ قل لي، من فضلك، هل هذا رجلكم؟ ما اسمه؟ صديقكم الجديد، كازيمير كيتانيش أو كيتان كازميروفيتش، رجلٌ غنيٌّ؟

ـ كلا، سيريوجا. إنه فقير، ولكن أيَّةُ روحٍ لديه، ويا لَهُ من قلب! من الظلم أن تتحدَّثَ بازدراء عنه وتهاجمه. يجب علينا، يا أخي، أن نتعلَّم التمييز بين الناس. لنشرب قدحاً ثانياً..!

عاد بشيخوتسكي عند فترة الغداء. وعندما رآني أجلس على الطاولة وأشرب، تغضَّنَ وجهُهُ، واستدار بالقرب من طاولتنا، ووجد أن من الأفضل أن ينعزل في غرفته. وامتنع عن تناول الغداء معنا، بحجة شعوره بصداع في رأسه، لكنه لم يعترض عندما نصحه الكونت بتناول الغداء في غرفته، في السرير.

خلال تناولنا الطبق الثاني، دخل أوربينين. لم أتعرف عليه منذ الوهلة الأولى. تألق وجهه الأحمر الواسع بسرور. وأشرقت عليه ابتسامة راضية، كما لو كانت تتراقص حتى على الأذنين البارزتين، وأصابعه السميكة التي كان يعدِّل بها رابطة العنق الأنيقة.

وأبلغ الكونت:

ـ البقرة مريضة لدينا يا صاحب السعادة. لقد أرسلت إلى طبيبنا البيطري، ولكن اتَّضَحَ أنه مسافرٌ. هل ترسل معاليك إلى الطبيب البيطري في المدينة؟ إذا أرسلت أنا، لن يطيع، ولن يأتي، وإذا كتبتُ له سعادتك، فهذه مسألة أخرى. ربما البقرة ليست مريضة، وربما تعاني من شيءٍ آخر.

ودمدم الكونت:

ـ حسناً، سأكتب.

مددتُ يدي للمدير، وأنا أنهض:

ـ أهنّئكم يا بيوتر يجورتش.

وتساءَلَ بهمسٍ:

ـ على أي شيء؟

ـ على زواجكم!

ـ وأخذ الكونت بالتكلُّم وهو يرمش بعينيه نحو أوربينين المحمرّ:

ـ نعم، نعم، تخيّل، يتزوّج، من أية طينة هو؟ ها ـ ها ـ ها! لقد فكّرنا وإياك في ذلك المساء! نحن حينها قررنا أن قلبكم يضطرم بشيءٍ غير حسن. تفرّسنا فيكم وفي أولينكا، وقلنا لقد وقع الرجل في الحب! ها ـ ها! اجلسوا معنا لتناول الغداء يا بيوتر إيجورتش!

جلس أوربينين بحذر ووقار، واستدعى إليّا بعينيه، وأمره بجلْبِ الحساء. سكبتُ له كوباً من الفودكا.

قال:

ـ أنا لا أشرب.

ـ يكفي، أنتم تشربون أكثر منا.

ابتسم المدير:

ـ لقد شربتها، لكني الآن لا أشربها. الآن لا أستطيع الشرب، لا يوجد سبب، الحمد للرب أن كل شيء يسير على ما يرام، لقد انتظَمَتْ جميع الأمور، وهذا ما أراده قلبي، حتى أكثر مما كنت أتوقع.

قلت:

ـ حسناً، اشرب هذا للفرح، صببتُ له شراب شيري.

ـ هذا الشراب، ربما مناسب. فعلاً لقد شربتُ كثيراً. الآن يمكنني أن أعترف أمام صاحب السعادة. أحياناً من الصباح حتى الليل. وعندما أستيقظ في الصباح، أتذكر هذا جيداً.. وبطبيعة الحال، إلى الخزانة حالاً لمواصلة الشرب. الآن، الحمد للرب، لا يوجد شجنٌ أُخْمِدُهُ بالفودكا.

شرب أوربينين قدحاً من شراب شيري. وسكبتُ له آخر. شرب هذا وسَكِرَ بشكلٍ طفيف،

وقال وهو يطلق فجأةً ضحكةً طفوليةً سعيدةً:

ـ لا أستطيع أن أصدق ذلك! أنا أنظر إلى هذه الدبلة، وأتذكّر كلماتها التي عبَّرت بها عن موافقتها، ولا أثق.. إنه حتى لأمرٌ مضحكٌ.. حسناً، هل يمكنني أن أعقد الأمل في سنواتي هذه، وبمثل هذا المظهر، أن هذه الفتاة الفاضلة لم تأنف من أن تصبح زوجتي وأمّاً لأبنائي اليتامى؟ بعد كل شيء، إنها حسناء، كما رأيتم، إنها ملاك في جسد! معجزة وحسب! لقد سكبتم لي من الشراب أكثر من اللازم؟ على الأرجح هذه هي المرة الأخيرة التي أشرب فيها. لقد كنت أشرب من الكرب، أما الآن فمن الفرح. كم عانيتُ أيها السادة، وتجشَّمْتُ الكثير من الحزن! رأيتها منذ عام وهل

تصدّقون أم لا؟ منذ ذلك الحين لم أنم ليلةً واحدةً بهدوء، ولم يكن هناك يومٌ لم أصُبَّ لنفسي فيه هذه الفودكا. الضعف أحمق، لم أوبِّخ نفسي على الغباء، كنت أحياناً أنظر إليها من خلال النافذة، وأتطلع لها، و... وأمزّق شعر رأسي. حينَها تمنَّيْتُ أن أشنق نفسي، ولكن، الحمد للرب، غامرتُ، وطلبتُ يدها، أتعلمون، لقد صُعِقْتُ! ها ـ ها ولم تصدق أذناي وهي تقول: «أوافق»، ولاح لي أنها تقول: «اغْرُب عن وجهي، أيها العجوز اللعين». بعد ذلك اقتنعت، عندما طبعَتْ قبلةً على خدّي.

عندما تذكَّرَ أوربينين البالغ من العمر خمسين عاماً أول قُبلَةٍ مع أولينكا الشاعرية، أغلق عينيه، وتضرَّج من الخجل مثل صبيّ، بدا لي أن هذا مقززٌ!

قال، وهو يتفرَّس بنا بعيون سعيدة ولطيفة:

ـ أيها السادة، لماذا لا تتزوّجون؟ لماذا تضيعون، وترمون حياتكم خارج النافذة؟ لماذا أنتم خائفون مما هو أفضل الخيرات التي على وجه الأرض؟ فبعد كل شيء، إن الملذات التي يمنحها الفِسْق، لا تعطي نسبة ضئيلة مما تعطيها لكم حياة عائلية هادئة! أيها الشباب! يا صاحب السعادة، وأنت، يا سيرجي بتروفيتش، أنا سعيد الآن، ويشهد الرب، كيف أحبكما كليكما! سامحوني على نصائحي الغبية، ولكن أتمنى السعادة لكما! لماذا لا تتزوجون؟ الحياة الأسرية خير، إنها واجب الجميع!

أصبحت أمقت هذا العجوز السعيد ذا المظهر المتأثر، الذي يتزوج على شابّة، وينصحنا بتغيير حياتنا الفاجرة، إلى حياةٍ عائلية هادئة.

فقلت له:

ـ بلى، إن الحياة العائلية واجب. متفق معكم. بالتالي، إنكم تنفّذون هذا الواجب للمرة الثانية؟

ـ نعم، للمرة الثانية. على العموم أنا أحب الحياة العائلية. بالنسبة لي إن المرء يعيش نصف حياة إذا كان أعزب أو أرمَل. ومهما قلتم أيها السادة إن الحياة الزوجية قضية عظيمة!

ـ بالطبع، حتى لو أن الزوج كان يكبر زوجته بثلاثة أضعاف عمرها تقريباً؟

تضرَّج أوربينين. وارتعشت يداه التي حملت الملعقة مع الشوربة إلى فمه، وانسكبت الشوربة في الصحن.

وغمغم هو:

ـ أنا أفهم ما تبغون قوله يا سيرجي بتروفتش، أشكركم على الصراحة. أنا أسأل نفسي: ألا يعني ذلك خِسَّة، وأتعذب! ولكن ليس ثمة وقت لأن أسال نفسي، وحلّ مختلف القضايا في هذه الأثناء، حينما أشعر في كل دقيقة بأنني سعيد، عندما أنسى شيخوختي، إنه

قُبح.. هذا كل شيء! أنا إنسان، يا سيرجي بتروفتش! وعندما يخطر على بالي السؤال عن الفرق في السن، لن أدُسَّ يدي في جيبي بحثاً عن إجابة، وأطمئن نفسي، قدر الإمكان. ويبدو لي أنني منحتُ أولغا السعادة. أعطيتُها أباً، وأعطيت أبنائي أمّاً، ومع ذلك كل هذا يشبه رواية، وأشعر بالدوار. عبثاً سكبتم لي شراب شيري.

نهض أوربينين، ومسح وجهه بمنديل، وجلس ثانيةً. بعد دقيقة تجرّع قدحاً بجرعة واحدة، وتفرّسَ فيَّ بنظرةٍ طويلةٍ متضرعةٍ، كما لو كان يطلب مني الرحمة، ومن ثم اهتزَّت كتِفُهُ بشكلٍ مفاجئٍ، وبغتةً انتحب مثل صبيّ.

ودمدم وهو يتغلَّب على النحيب:

ـ لا شيء، لا شيء أيها السادة، لا تقلقوا. لقد عصر قلبي هاجسٌ بعد كلماتكم. ولكن لا شيء في هذا أيها السادة.

لقد تحقَّقَ هاجس أوربينين، وبدرجة سريعة، لدرجة أنه لم يكن لديَّ الوقت الكافي لاستبدال ريشة القلم التي أكتب بها الآن قصَّتي، والبدء بصفحة جديدة. ومن الفصل التالي يستبدل ملاكُ إلهامي الهادئ، بالتعبير المسالم على ملامح وجهه، تعبيرَ الغضب والكرب. لقد انتهت المقدمة، وتبدأ المأساة.

إرادة الإنسان المجرمة تباشر في تجسيد نفسها.

أتذكر صباح يوم أحد جيد. تراءت من نوافذ كنيسة الكونت، سماء زرقاء شفافة، واخترق شعاع باهت الكنيسة بأكملها، من القبة المطليَّة إلى الأرض، تراقصت فيه بمرحٍ أعمدة دخان البخور، وترامت من خلال النوافذ والأبواب المفتوحة تغاريد طيور الشحرور والزرزور. كان هناك عصفورٌ واحدٌ جريء، على ما يبدو، بمخلب كبير، طار إلى الباب، ودار وهو يغرد فوق رؤوسنا، وغطس عدة مرات في الشعاع الباهت، ومن ثم خرج طائراً من النافذة. وفي الكنيسة أيضاً صدح الغناء، غنّوا بانسجام وبشعور بالحماس الذي يتمكَّن منه مُغنُّونا في روسيا الصغرى، عندما يشعرون بأنهم أبطال اللحظة، وعندما يرون أنهم محط الأنظار. كانت الألحان مرحَةً وبهيجةً، مثل «أرانب» مضيئة شمسيّة تلعب على جدران وملابس المستمعين. التقَطَتْ أذني في اللحن غير المتْقَن ـ ولكن الناعم والنَضِر على الرغم من كونِهِ لحنَ زفاف مَرِحاً ـ وتراً ثقيلاً ومملّاً، كما لو أن هذا التينور أسِفٌ لأنه بجوار أولينكا الشاعرية المليحة، كان يقف أوربينين الثقيل، يشبه دُبّاً، وقد عفا عليه الزمن؛ وحتى ليس في التونير وحده يجري النظر بأسف إلى هذا الثنائي غير المتكافئ، فحتى الغبيّ يمكنه أن يقرأ شعور الأسف الذي ارتسم على العديد من الوجوه التي تنتشر في مدى رؤيتي، ومهما حاولَتْ أن تظهر بمظهر المبتهجة وغير المبالية.

كنتُ مرتدياً بذلةَ مساء كاملة، وأقف خلف أولينكا، حاملاً

بيدي إكليل زهور فوق رأسها. شاحباً ولستُ بصحة جيدة، رأسي يُوجِعُني من شراب أمس، والنزهة في البحيرة، وطول الوقت أُلْقي نظرةً لأرى إذا ما كانت يدي التي تمسك الإكليل، ترتجف أم لا. أشعر بداخلي أن حالتي سيئةً وفظيعةً، كما هو الحال في غابةٍ في ليلة خريفٍ ممطرةٍ. يساورني الشعور بالأسف، والقرف، والحقارة. قطط تخدش قلبي، تذكِّرُني بشيءٍ من تأنيب الضمير. هناك، في الأعماق، في قاع روحي، يجلس شيطان ويهمس لي بعناد وإصرار أنه إذا كان زواج أولينكا مع أوربينين الأخرق خطيئة، فعندئذ أنا مذنبٌ بهذه الخطيئة، من أين تأتي هذه الأفكار؟ يا تُرى هل كان بإمكاني أن أنقذ هذه الشابة الغبيّة من مجازفتها غير المفهومة، وخطئها الذي لا شكّ فيه؟

يهمس لي في داخلي الشيطان الصغير:

ـ من يعرف! ربما كان بإمكانك أن تَحُولَ دون هذا الزواج، أنت أفضل من يعرف ذلك!

لقد رأيتُ في حياتي العديد من الزيجات غير المتكافئة، ووقفتُ مراتٍ عديدةً أمام لوحة فاسيلي بوكيروف «زواج غير متكافئ»، وقرأت العديد من الروايات المستندة إلى التناقضات بين الزوج والزوجة، وأخيراً عرفت علم وظائف الأعضاء الذي يحرّم الزيجات غير المتكافئة بشكل قاطع، لكنني لم أعانِ أبداً من مثل حالتي الروحية المثيرة للاشمئزاز التي أستطيع بأيّ قوّةٍ أن أُفْلِتَ

منها، وأنا واقف الآن وراء أولينكا والعمل وكيلاً للعريس. إذا كان الأسف وحده يُقَلْقِلُ روحي، فلماذا لم ينتابني مثل هذا الأسف قبل ذلك، عندما حضرتُ حفلات الزفاف الأخرى؟

وهمس الشيطان الصغير:

ـ لا يوجد أسف، إنها الغيرة.

ولكن الغيرة تكون فقط على أولئك الذين تحبُّهم، فيا ترى هل أُحِبُّ أنا بالفعل الفتاة بالأحمر؟ إذا سأُحبُّ كل الفتيات اللواتي ألتقي بِهِنَّ وأنا على قيد الحياة، فلن يكون قلبي كافيا، إنَّ عددهن كبيرٌ جداً.

وقَفَ صديقي، الكونت كارنيف، خلف باب الكنيسة، خلف خزانة الخدمة، ويبيع الشموع. إنه مُلَمَّع، وأَملَس، ومطليّ، وتنبعث منه رائحة عطور مخدِّرَة وخانقة. واليوم يبدو ساحراً ولطيفاً لدرجة عندما تبادلتُ معه تحيته في الصباح، لم أستطع أن أكبح نفسي لأقول له:

ـ اليوم، أليكسي، تبدو مثالياً مثل راقص في رقصة الكرديل!

كان يرافق كل شخصٍ يدخل ويخرج بابتسامةٍ عذبةٍ، وأنا أسمع كيف أنه يمنح كل سيدةٍ تشتري منه شمعةً، كلمات مجاملة غزيرة. وهو، المدلل بالولادة، الذي لم تكن لديه أبداً نقود نحاسية، ولا يعرف كيف يتعامل معها، الآن كانت العملات من خمسة وثلاثة،

تسقط من يده. وبالقرب منه، كان يقف متكئاً على الخزانة كالينين المهيب مع وسام ستانيسلاف على عنقه. كان وجهه يلمع ويضيء. إنه سعيدٌ لأن فكرته عن «إقامة أمسيات في يوم ثابت من أيام الأسبوع» سقطت في تربة جيدة، وبدأت بالفعل تؤتي ثمارها. ويكنُّ كالينين في أعماق وجدانه جزيل الشكر لأوربينين: بالرغم من سخافة حفل زفافه، ولكن مع ذلك، من السهل استخدامه كذريعة، من أجل ترتيب أمسية الأسبوع الأولى.

كان من المفترض أن تكون أولينكا المغرورة مبتهِجَةً؛ فمن طاولة تسجيل عقد القِران إلى بوابات الرّبّ، امتد صفّان من السيدات اللواتي يمثلن حديقة زهور منطقتنا. كان الضيوف يرتدون ملابس، كتلك التي كانوا سيرتدونها لو أنهم احتفلوا بزواج الكونت: لا يمكنك أن تتمنّي أفضل من هذه البذلات، الأغلبية من العوائل الأرستقراطية.

ليس بينهم زوجة قِسّ أو من عائلات التُّجّار، هناك حتى من اللواتي لم تفكّر أولينكا في السابق أن من حقها الانحناء بالتحيّة لهن. عريس أولينكا ـ مدير، خادم مميز، ولكن لا يمكن أن يقلّل هذا من غرورها. إنه نبيل، ويمتلك عقاراً في مقاطعة مجاورة. وكان والده رئيس نبلاء المقاطعة، ولتسع سنوات كان قاضيَ صُلْح في بلدته الأم، فماذا يريد طموح ابنة مدير الغابة؟ حتى وكيل العريس، معروف في المحافظة بأسْرِها بأنه شخصٌ مرِحٌ، ودون جواني،

ويمكنه أن يدغدغ كبرياءها، ينظر جميع الضيوف إليه، إنه مؤثّر، يعادل أربعين ألفَ وكيل عريس مجتمعين، والأهم من ذلك أنه لم يرفض أن يكون لديها هي الساذجة وكيل عريس، بينما المعروف أنه يرفض حتى للأرستقراطيين حينما يدعونه ليكون وكيل عريس.

بيْدَ أن أولينكا الطموحة لا تبتهج. إنها شاحبة، مثل لون القماش الذي حملته مؤخّراً من سوق بلدة تينيف. يدها التي تحمل الشمعة، ترتجف قليلاً، وذقنها يرتعد في بعض الأحيان. كان هناك شيءٌ من البلادة في عينيها، كما لو أنها اندهشت فجأةً من شيء ما، ارتاعت، ليس هناك أيُّ أثرٍ للضحك الذي لمع في عينيها عندما ركضت أمس في الحديقة، وتحدَّثَتْ بحماسٍ عن نوعية ورق الجدران الذي سيُغَطّي غرفة الضيوف، وفي أي يوم ستدعو الضيوف، وما إلى ذلك. وجهها الآن جدّيّ للغاية، أكثر مما يطلبه الاحتفال الرسمي.

كان أوربينين في بذلةٍ جديدةٍ. بملابس أنيقة، لكن تسريحة شعْرِهِ كانت على طريقة التسريحة التي قام بها الأرثوذكس في عام 1812. وكالعادة كان وجهُهُ أحمرَ وجدِّياً. وعيناه تصلّيان، وعلامات الصليب التي يرسمها بعد كل ابتهال «ربنا ارحمنا»، ليست تلقائية بل من الصميم.

يقف ورائي ابن أوربينين من زواجِه الأوّل: تلميذ الجيمنازيا، جريشا، وأخته ساشا الفتاة الشقراء. ينظران إلى قفا والدهما، وأذنيه البارزتين، ويعبّر وجهيهما عن إشارة استفهام. لم يُدْرِكا لماذا

استسلَمَتْ العمّة أولغا لأبيهما، ولماذا يأخذها إلى منزلهما. كانت ساشا مستغربةً وحسب، فيما تجهَّم جريشا ذو الأعوام الأربعة عشر، وهو يسترق النظر. ربما كان سيرُدُّ بالرفض، لو أن والده قد سأله السماح بالزواج.

اختُتِمَت طقوس عقد القران باحتفالية خاصة، كان يؤدي الخدمة الدينية فيها ثلاثة قساوسة وشمّاسان يؤديان الخدمة الدينية لفترة طويلة، طويلة إلى حد أنّ يديَّ تعبتا من حمل الإكليل، وكفَّتْ النساء، اللواتي على العموم يُحْبِبْنَ التطلُّع إلى طقوس عقد القِران، عن النظر إلى العروسين. ويقرأ الشمّاس المرتل الصلوات مع توقُّفات، من دون أن يتخطّى واحدةً منها، والمغنّون في الخور الكنائسي يعزفون نوتة طويلة، ويستغل الشمّاس الفرصة للتباهي بطبقة صوته الثامنة، فيتلو أعمال الحواريين مع «تمديد مضاعف» للكلمات. وها هو الشمّاس المرتّل يأخذ من يدي الإكليل، يتبادل العروسان القُبَل. الضيوف يضطربون، وينتظمون في صفوف مستقيمة، تتردد التهاني، والقبلات، والآهات. ويأخذ أوروبينين، المتألق والمبتسم يدَ العروس الفتية تحت إبطه، ونحن نخرج وراءهما إلى الهواء.

إذا وجدَ أحدٌ من الأشخاص الذين كانوا معي في الكنيسة، أن هذا الوصف غير مكتمل، وغير دقيق تماماً، فدَعْهُ ينسُبْ هذه العثرات إلى الصداع الذي ألَمَّ برأسي، وإلى ما يُسمّى بالمزاج

العاطفي، الذي أعاقني عن الملاحظة والانتباه. بالطبع، لو علمتُ حينها بأنه سيتعيَّن عليَّ كتابة قصة، لما نظرتُ إلى الأرض كما في ذلك الصباح الذي أصِفُهُ، ولم أنتَبِهْ إلى الصداع!

يُسَوِّلُ القدَرُ لنفسه أحياناً القيام بنكات جارحة وسامّة! فما إن خرج العروسان من الكنيسة، حتى وقعت لهما مفاجأة غير سارّة ولم يتوقعاها: حينما تحرَّكَ موكب الزفاف الذي كان تحت الشمس، زاهياً بمئات الألوان والظلال، من الكنيسة إلى منزل الكونت، فجأةً تراجعت أولينكا خطوةً إلى الوراء، توقفت وسحبت كوع زوجها حتى أنه تأرجَحَ. وقالت بصوتٍ عالٍ وهي تنظر لي برعب:

ـ سمحوا له بالخروج!

يا للمسكينة! جاء والدها المجنون مدير الغابة سكفورتسوف، نحو الموكب راكضاً على طول الطريق. كان يلوِّح بذراعيه، ويتعثّر، ويحرّك عينيه بجنون، كان صورة غير جذّابة إلى حدٍّ ما. ما زال كل هذا ربما لائقاً، لو لم يكن قد جاء في روبٍ قطنيٍّ وحذاء ـ شبشب، الأزياء التي لم تتناسب رثاثتها مع فخامة فستان ابنته. وكانت الريح تلعب بشعْرِه، وعليه قميصُ نومٍ مفكَّك الأزرار.

وتمتَمَ وقد لحق بهم وسار إلى جانبهم:

ـ أولينكا! لماذا غادرتِ؟

تضرَّجَت أولينكا بالخجل، وهي تنظر بطرف عينيها إلى السيدات المبتسمات. لقد احترقت المسكينة خجلاً.

وواصل مدير الغابة مخاطبَتَنا:

ـ ميتكا لم يُوصِدْ الباب، ليس من الصعوبة على اللصوص في هذه الحالة أن يتسلّقوا؟ أخذوا السماور من المطبخ في السنة الماضية، هكذا يريد أن يسرقونا الآن!

وهمس أوربينين لي:

ـ لا أعرف من الذي سمح له بالخروج، لقد أمرتُ بحجْزِه. عزيزي، سيرغي بيتروفتش، كُنْ رحيماً، خلِّصْنا بطريقةٍ ما من هذا الوضع المحرِج! بطريقةٍ ما!

توجَّهْتُ لمدير الغابة:

ـ أعرف من الذي سرق السماور، تعالوا معي، سأريكم.

احتضنتُ سكفورتسوف من خصْرِه، وقُدْتُهُ إلى الكنيسة، وعندما أوصلتُهُ إلى السياج، تحدثتُ إليه، وحينما كان موكب الزفاف قد وصل إلى منزل الكونت، وفق تقديري ـ تركتُهُ، من دون أن أُريه مكان السماور الذي سُرِقَ منه.

ولكن سرعان ما تمَّ نسيان اللقاء بالمجنون، على الرغم من أنه لقاءٌ غير متوقَّع وغير عاديّ، وكانت المفاجأة التالية للعروسين، أكثر غرابة!

بعد ساعةٍ، جلسنا جميعاً على موائد طويلة وتناولنا العشاء.

إن الذين اعتادوا على أنسجة العنكبوت، والعفن، وأبراج الغجر التي سادت غرف الكونت، كان من الغريب لهم النظر إلى هذا الحشد غير العادي، الذي كسر بثرثرته العادية صمت الغرف القديمة المهجورة. كان هذا الحشد المتنوع الصاخب، مثل قطيع من طيور الزرزور، التي حطَّت بسرعة خاطفة للراحة في مقبرة مهجورة، أو ـ دع هذا الطائر النبيل يغفر لي هذه المقارنة! ـ إلى قطيعٍ من طيور اللقالق ينزل في شفق أحد أيام موسم الهجرة، على أنقاض قلعة مهجورة.

جلستُ وكنت أضمر الحقد لهذا الحشد، وبدافع الفضول الغريب تطلعتُ إلى ثروة عائلة الكونت كارنيف المتعفنة. أثارت فسيفساء الجدران، ونُحوتُ الأسقف والسجّاد الفارسي الفاخر وأثاث الروكوكو البهجةَ والاندهاش.

كان وجه الكونت ذو الشوارب الكثّة، يكشِّر عن ابتسامة متعجرفة، واستقبل التملُّق المبتهج من ضيوفه، على أنه استحقاق، على الرغم من أنه من حيث الجوهر لم يكن له دورٌ في ثروة وفخامة العُشّ الذي هجَرَهُ، بل على العكس من ذلك، يستحق اللوم المرير، وحتى الازدراء على اللامبالاة البليدة والوحشية للتعامل بهذا الشكل مع النعمة التي جمعها والده وأجداده، جُمِعَتْ ليس في عدة أيام، ولكن على مدى عشرات السنوات! فقط الأعمى

والفقير روحياً لا يرى على كل لوحٍ رخاميٍّ، أصبح لونه رماديّاً، وفي كل لوحةٍ، وفي كل زاويةٍ مظلمةٍ من زوايا حديقة الكونت ـ الدموعَ وأورامَ أقدامِ الناس، الذين يتكدّس أطفالهم الآن في أكواخ قرية الكونت. ولم يوجد شخص واحد، من بين العدد الكبير من الجالسين وراء مائدة الزفاف، الأغنياء، والأحرار الذين ليس هناك ما يمنعهم من قول أكثر الحقائق حدّة، أن يقول للكونت، إن ابتسامته المتعجرفة بليدة وغير مناسبة. لقد وجد كل واحدٍ منهم أن عليه أن يبتسم بتملُّق، وأن يغدق عليه بإفراط الثناء الرخيص! واذا كان هذا من دواعي المجاملة «العادية» (يحبون لدينا تبرير الكثير بالمجاملة واللياقة) فإني أفضِّل عليهم الجهلة، الذين يتناولون الطعام بأيديهم، ويأخذون الخبز من صحن جارهم في المائدة، ويتمخّطون بأصابعهم.

ابتسم أوربينين، ولكن كان لديه دافعٌ خاصٌ لذلك. ابتسم تملُّقاً واحتراماً، وكان سعيداً كالأطفال. كانت ابتسامته العريضة على شاكلة سعادة كلب، كلب مخلص ومحبوب لاطفوه وداعبوه، وأسعدوه، والآن كرمزٍ للامتنان يهزُّ ذيلَهُ بمرحٍ وبإخلاص.

وكان مثل ريسلير ـ الأب في رواية ألفونس دوديه، يلمع ويفرك يديه بسرور، وينظر إلى زوجته الشابّة، ولا يتيسر له ضبط نفسه من فيض المشاعر، ويطرح سؤالاً بعد سؤال:

ـ من كان بوسْعِهِ أن يظنَّ أنَّ هذه الحسناء الشابة ستقع في حب

رجلٍ عجوزٍ مثلي؟ ويا تُرى ألم يكن في وسعها العثور على شخصٍ آخر أكثر شباباً وأناقة؟ لا يمكن للمرء فهْمُ كُنْهِ قلب المرأة!

حتى أنه امتلك الشجاعة ليتوجَّه لي بحماقة:

ـ نعم وأيّ قرنٍ حانَ كما ترون! ها ـ ها! رجل عجوز يسحب من تحت أنف الشباب هذه الحورية! إلى أين كنتم تنظرون؟ ها ـ ها.. كلا، شبيبة اليوم ليسوا مثل شبيبة الماضي!

وضاق به المكان ذرعاً من فيض مشاعر الشكر والامتنان، نفخ صدره العريض، ونهض، وهو يمدُّ قدَحهُ ليقرعه بقدحِ الكونت، وتحدَّثَ بصوتٍ مرتجفٍ من شدّة الاضطراب:

ـ إن مشاعري نحوكم معروفة يا صاحب السعادة، لقد فعلتُم اليوم الكثير لي، لدرجة أنه يجعل حُبّي لكم مجرد غبار. على أي شيءٍ أستحق هذا الاهتمام من سعادتكم، ومشاركتكم معي بهذه الصورة في فرحي؟ فقط السادة والمصرفيّون يحتفلون هكذا بزفافهم! بهذا الترف، جمع الضيوف الوجهاء.. آاه ما الذي بوسعي أن أقوله لكم! صدقوني يا صاحب السعادة، إن ذاكرتي لن تنساكم، كما لن تنسى هذا اليوم الأفضل والأسعد في حياتي.

وما إلى ذلك.. على ما يبدو أن أولينكا لم تُعْجَب بإعراب زوجها عن الاحترام المفعم بالحيوية. لقد كانت بشكل ملحوظ مثقلة بخطاباته التي أثارت الابتسامات الساخرة، على وجوه الضيوف، وحتى، على ما يبدو، خجلت منهم. وعلى الرغم من كأس الشمبانيا

الذي تناولَتْهُ، كانت حزينةً ومتجهمةً كالسابق، نفس شحوبها في الكنيسة، نفس الفزع في عينيها. لاذت بالصمت، وردَّت بكسلٍ على جميع الأسئلة، وابتسمت قسراً على نكات الكونت، وبالكاد لَمَسَتْ الأطباق باهظة الثمن. وعلى قدر ما اعتَبَرَ أوربينين، المخمور بعض الشيء، نفسَهُ أسعد البشر، على قدر ما كانت تزداد التعاسة على وجهها الجميل. شعرتُ بالأسف فقط، وأنا أتطلع لوجهها، وحاولتُ أن أنظر في طبقي، لكي لا أرى هذا الوجه.

كيف يجب على المرء تفسير هذا الحزن؟ ألم يبدأ الندم في قضم الفتاة المسكينة؟ أو ربما إن طموحها انتَظَرَ أبَّهَةً أكبر؟

حينما رفعتُ عيني خلال الطبق الثاني، كنت مندهشاً لحَدّ الألم في قلبي. أجابت الفتاة المسكينة، على سؤالٍ فارغٍ من الكونت، وقامت بحركات بلْعٍ مكثفةٍ: تُراكِم عَبرَةَ البكاء في حلْقِها. ولم تحلَّ عقدة لسانها، وبخجلٍ كالحيوان الخائف، تطلَّعَتْ لنا: إنها تريد البكاء؟ ألا نلاحظ أنها تريد البكاء؟

وسأل الكونت:

ـ لماذا هذه الكآبة اليوم! أنتم مذنبون يا بيوتر يجوريتش! تفضَّلوا بتسلية الزوجة! أيها السادة، أطالب بقُبْلَةٍ. ها ها! بالطبع قُبْلَة ليس لي، لكن للعريس، كي يتبادلا القُبَل! نشعر بمرارة[1]!

---

(1) بمرارة! ـ هتاف خلال وليمة الزفاف الروسية والبيلاروسية والأوكرانية والبولندية. يتظاهر الضيوف بأن النبيذ أو الطعام مُرّ حتى تقبيل العروسين.

والتقط كالينين.

ـ بمرارة ـ مرة!

نهض أوربينين وقد شعَّتْ ابتسامة على كل وجهه الأحمر، وارتعشت عيناه. أجبَرَتْ هتافات الضيوف وزعيقهم أولينكا على أن تنهض قليلاً، وقدمت لأوربينين شفتيها الجامدتين، وقبّلها هذا. ضغطت أولينكا شفتيها، كما لو كانت تخشى أن يقبّلها أوربينين مرةً أخرى، ونظَرَتْ لي، ربما كانت نظرتي سيئة. وبعد أن التقطتها تضرَّجَتْ بغتةً، ومدَّتْ يدها لالتقاط المنديل، وراحت تتمخّطْ، راغبةً في أن تُخفي، بشيءٍ ما، ارتباكَها الفظيع، وخطر لي أنها تخجل مني، تخجل من هذه القُبلة، من الزواج.

وفكَّرتُ في ذاتي «ما شأني بكِ؟»، ولكنني في نفس الوقت لم أرفع عيني عنها، محاولاً أن ألتقط سبب ارتباكها.

لم تتحمل المسكينة نظرتي. حقّاً، إنَّ صبغة الخجل كانت، على الأغلب، تناسب وجهها، ولكن مقابل هذا اعتصرت الدموعَ من عينيها، دموعاً حقيقية، تلك الدموع التي لم أرَ من قبلُ مثلها على وجهها. ضغطت على وجهها بالمنديل، ونهضتْ وهربتْ راكضةً من غرفة الطعام.

وسارعتُ بتفسير مغادرتها:

ـ أولغا نيكولايفنا تشعر بصداع، اشتكت لي في الصباح.

قاطعني الكونت:

ـ كُفَّ يا أخي! ـ لاعلاقة لهروبها بالصداع هنا؛ القُبْلَة فعلت كل شيء، شعرت بالإحراج. أيُّها السادة أُعلِنُ توبيخاً شديداً، للعريس! لم يُعَلِّم عروسَهُ القبلات! هاها!

انخرط الضيوف في الضحك، وكانوا سعداء بنكات الكونت الحادّة، ولكن لم تكن هناك ضرورة للضحك؛ فقد مرت خمس أو عشر دقائق، ولم تَعُدْ الشابّة. لاذ الجميع بالصمت، حتى الكونت توقّف عن المزاح، واتضح غياب أولينكا أكثر لأنها غادرت القاعة فجأةً دون أن تقول كلمة، ناهيك عن إساءة السلوك قبل كل شيء، أولينكا غادَرَتْ الطاولة مباشرةً بعد القُبْلَة، كما لو أنها غضِبَتْ من إجبارها على تقبيل زوجها. لا يجوز الافتراض بأنها غادرت لأنها كانت محرَجَةً؛ يمكن للمرء أن يشعر بالحرج لمدة دقيقة، أو اثنتين، ولكن ليس إلى الأبد، وهذا ما كشفت عنه لنا الدقائق العشر الأولى من غيابها. كم من الأفكار السيئة التي خطرت في رؤوس الرجال المخمورة، وكم من النمائم كانت جاهزةً لدى السيدات اللطيفات! نهضت العروس من على المائدة وغادَرَتْ ـ يا لَهُ من مكان مسرحي مؤثّر لرواية لـ «مجتمع مقاطعة، رفيع المستوى»!

طفق أوربينين ينظر بقلق فيما حواليه. وتمتم:

ـ الأعصاب، أو ربما انفَكَّ شيءٌ من أزرار الثياب، من يعرف هؤلاء النساء! ستأتي حالاً، في هذه اللحظة بالذات.

ولكن عندما مضت عشر دقائق أخرى ولم تظهر، سلَّط عليَّ نظرةً بائسةً بعيونٍ متوسِّلَةٍ، ما جعلني أشفق عليه، وقالت عيناه:

«أيكلِّفك الأمر شيئاً، إذا ذهبت للبحث عنها؟ هل ستساعدني يا عزيزي للخروج من هذا الورطة الفظيعة؟ أنت أذكى شخص وأكثرهم شجاعةً وحيلةً هنا، ساعدني!».

استمعتُ إلى نداء عينيه البائستين وقررت مساعدته. كيف سأساعده، سيرى القارئ ذلك لاحقاً. عندما أتذكر نفسي في لَعِبِ دور «أحمق خدوم ولطيف» يمكنني أن أقول فقط أن الدّبّ في حكايات الشاعر كريلوف، الذي قدَّم خدمة الناسك بشَجِّ رأسه بحجرٍ ثقيلٍ، لقتل ذبابة حطَّت على أنفه، يفقد في شخصي كل عظمته الوحشية، ويشحب ويتحوّل إلى مخلوق بريء؛ إن التشابه بيني والدب يكمن فقط في حقيقة أن كلَيْنا ذهب للمساعدة بصدقٍ، ولم نتنبّأ بالعواقب السيّئة لخدمتنا، ولكن الفرق بيننا هائل؛ إنَّ حَجَري، الذي ضربتُ به جبين أوربينين، أثقل عدة مرات من حَجَر الدّبّ الذي ضرب به رأس الناسك.

سألتُ الخادم الذي قدَّمَ لي السَّلَطة:

ـ أين أولغا نيكولايفنا؟

أجاب:

ـ لقد خرجت السيدة إلى الحديقة.

قلت بنبرة مزاحٍ مخاطباً السيدات الضيوف:

ـ هذا وضعٌ غريبٌ أيتها السيدات! لقد غادرت العروس، وأصبح نبيذي حامضاً! يجب أن أذهب لأعثر عليها، وأُحْضِرها إلى هنا، حتى لو كانت كل أسنانها تؤلمها! إن وكيل العريس رجلٌ مسؤولٌ، ويذهب لإظهار سُلْطَتِه!

نهضتُ، على خلفية تصفيق عالٍ من صديقي الكونت، غادرتُ غرفة الطعام، وذهبتُ إلى الحديقة. ضربت أشعة الشمس الحارقة رأسي الساخن بالنبيذ. ولَفَحَ وجهي القيظُ وانحباسُ الهواء. مشيتُ بشكل عشوائي على طول أحد الدروب الجانبية، وأنشأتُ أصفّر بلحنٍ ما، وأعطيُت الفرصة لانطلاق قدراتي الاستقصائية كمحقّق يؤدي دور كلبِ صيدٍ بسيط. لقد فحصتُ كل الشجيرات والعرائش والكهوف، وعندما بدأ الندم يؤلمني لأنني ذهبتُ يميناً وليس يساراً، تناهت إلى سمعي فجأة أصواتٌ غريبةٌ. شخصٌ ما يضحك أو يبكي. جاءت الأصوات من كهفٍ أرذتُ فحْصَهُ في نهاية بحثي. وبعد أن دخلتُ بسرعة، وأنا محاطٌ بالرطوبة وبرائحة العفَنْ والفُطر والجير، لمحتُ ما كنت أبحث عنه.

وقَفَتْ العروس، متكئةً على عمودٍ خشبيٍّ مغطّىً بالطحلب الأسود، مزّقت شعرها وهي ترفع عيونها المليئة بالرعب واليأس لي. تدفقت الدموع من عينيها، كما يتدفق الماء من الإسفنج حينما يضغطون عليه.

ـ ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ! تمتمتْ أولغا.

ـ نعم أولغا، ماذا فعلتم بنفسكم! قلتُ، وأنا واقفٌ أمامها متصالب اليدين.

ـ لماذا تزوَّجْتُه؟ إلى أين نظرت عيوني؟ أين كان عقلي؟

ـ نعم يا أولغا، من الصعب شرح خطوتكم هذه، من السهل شرْحها بقلة الخبرة، ولا أريد تفسيرها بالفساد.

ـ لقد أدركتُ اليوم، اليوم! لماذا لم أفهم هذا بالأمس؟ الآن كل شيء مضى لا رجعةَ فيه، فقدتُ كل شيء! كل شئ! كل شئ! كان بوسعي الزواج من الرجل الذي أحبُّهُ والذي يُحِبُّني!

وسألتها:

ـ من هذا الرجل يا أولغا؟

قالت، وهي تنظر إلى عيوني، وبصراحة:

ـ منكم، بيْدَ أنني تسرَّعْتُ! كنت حمقاء! أنت ذكيّ ونبيل وشاب، أنت ثري، وقد لاحَ لي أنني لا أستطيع الوصول إليك!

فقلت، وأنا أمسك بيدها:

ـ حسناً، كفى يا أولغا. نمسح عيوننا ونذهب، إنهم ينتظرون هناك. حسناً، ستبكين. لثمتُ يدها. ستبكين بما فيه الكفاية يا فتاة!

لقد فعلتِ شيئاً غبياً وتدفعين الآن مقابل ذلك. أنتِ المذنبة. حسناً، يكفي، اهدئي.

ـ أنتَ تُحِبّني، أليس كذلك؟ نعم؟ أنت كبيرٌ جداً، جميل! هل تحبني؟

ـ لقد حان الوقت للذهاب، يا روحي.

قلتُ ولاحظت، وقد تملكني رعبٌ شديدٌ، أنني قَبَّلْتُ جبهتها، وأخذتُها من الخصر، وحرقتني بأنفاسها الساخنة وتعلَّقَتْ برقبتي، وتمتمتُ لها:

ـ سيكون لك ما تريدين! يكفي!

بعد حوالي خمس دقائق، عندما أخرجتُها من الكهف محمولةً على يدي، وقد عذَّبَتْني الانطباعات الجديدة، وضعتُها على الأرض، رأيت بشيخوفتسكي يقف عند العتبة تقريباً، راح ينظر إليَّ بشكلٍ خبيث وصفَّقَ بهدوء. قمتُ بقياسه بنظرة، وأخذت ذراع أولغا، وتوجَّهْتُ إلى المنزل.

قلت لبشيخوفتسكي، وأنا أسلِّط نظرةً عليه:

ـ لن تكون لكم قدمٌ هنا بعد اليوم! تجسُّسكم لن يذهب سُدَى!

ربما كانت قُبُلاتي ساخنة، لذلك فإن وجه أولغا التَهَبَ، كما لو أنه من نار. لم يكن عليه أثرٌ للدموع التي ذُرِفت للتّو.

تمتَمَتْ، وهي تمشي إلى جانبي إلى المنزل وتضغط بشدة على كوعي:

ـ الآن، كما يقولون، البحر حتى رُكْبَتي! في الصباح لم أكن أعرف إلى أين أذهب من الرعب، والآن.. والآن، يا عملاقي الطيب، لا أعرف إلى أين أذهب من السعادة! زوجي هناك يجلس وينتظرني.. هاها! ما شأني بذلك؟ حتى لو كان تمساحاً، أو ثعباناً رهيباً.. لست خائفة من أي شيء! أنا أحبك ولا أريد أن أعرف شيئاً آخر.

تطلعتُ إلى وجهها الذي يفيض بالسعادة، وعيونها المفعمة بالحب السعيد والغبطة، وانقبض قلبي خوفاً على مستقبل هذا المخلوق الجميل والسعيد: لقد كان حبُّها لي مجرد دفعة إضافية نحو الهاوية. ما نهاية هذه المرأة الضاحكة، التي لا تفكر في المستقبل؟ انقبض قلبي وانقلَبَ إلى شعورٍ لا يمكن وصْفُهُ من الشفقة أو بالرأفة، لأنه كان أقوى من هذه المشاعر. توقفتُ وأخذتُ أولغا من كتفها، لم أرَ في أي وقت آخر أي شيء أكثر جمالاً ورشاقة، وفي نفس الوقت مدعاةً للحزن.

وتوجَّهتُ لها:

ـ أولغا لنذهب في هذه اللحظة إلى منزلي! الآن!

سألَتْ، لم تفهم نبرة صوتي الاحتفالي إلى حدٍّ ما:

ـ كيف؟ ماذا قلت؟

ـ نذهب على الفور إلى منزلي!

ابتَسَمَتْ أولغا وأشارت لي إلى المنزل.

قلتُ لها:

ـ حسناً، ليكن كذلك؟ سآخُذُكِ اليوم أم غداً؟ أليس الأمرُ سواء؟ ولكن كلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.. لنذهب!

ـ لكن هذا أمر غريب.

ـ أيتا الفتاة.. هل أنتِ خائفةٌ من فضيحة؟ نعم، ستكون فضيحة غير عادية، هائلة، ولكن ألفُ فضيحة أفضل من البقاء هنا! لن أتركك هنا! ليس بميسوري تركُكِ هنا! هل تفهمين يا أولغا؟ تخلَّصي من الجُبْن، ومنطِقِك الأنثوي، واستمعي لي، إذا كنت لا ترغبين في الهلاك!

وَشَتْ عينَا أولغا بأنها لم تفهمني. في غضون ذلك، كان الوقت يمر، كان يأخذ مجراه، ولم يكن هناك وقتٌ للوقوف في درب الحديقة، في الوقت الذي كان الضيوف ينتظروننا. كان من الضروري تبَنّي قرار؛ قُمْتُ بضَمّ «الفتاة ذات الفستان الأحمر» ـ التي كانت الآن زوجتي بالفعل ـ إلى صدري، وفي تلك اللحظة بدا لي أنني أُحِبُّها حقاً، أحبُّها حبَّ زوج، وأنها لي ومصيرها على

عاتق ضميري، رأيت أنني مرتبطٌ بهذا المخلوق إلى الأبد، وبشكلٍ لا رجعة فيه.

وأردفتُ:

ـ اسمعي يا عزيزتي، يا كنزي! أعرف أن هذه الخطوة جريئة، سنتشاجر مع أناسٍ قريبينَ منّا، وتُثير على رؤوسنا آلاف الملامات والشكاوى المسيّلة للدموع. قد تفسد حياتي المهنية، وتُسَبِّبُ لي الآلاف من المضايقات التي لا يمكن تجاوزُها، ولكني يا عزيزتي قررتُ! سوف تكونين زوجتي، ولستُ بحاجةٍ لزوجة أفضل منك، والربُّ يُسامح هؤلاء النساء! سأجعلك سعيدة، سأحميك مثل حدقة العين ما دمتُ على قيد الحياة، سأربيكِ، سأجعلك امرأة! أعِدُك، وهذه يدي الصادقة!

لقد تحدَّثْتُ بحماس صادق، بشعور أول عاشقٍ يؤدّي أكثر النقاط حماسةً في دوره، لقد تحدَّثْتُ بشكلٍ جيدٍ للغاية، وليس من دون سببٍ رفرف لي بجناحيه النسر الذي طار فوق رؤوسنا. وأخذتْ أولغا يدي الممدودة، وأمسكتها بيديها الصغيرتين وقبّلتها برِقّة، لكن هذا لم يكن علامةً على الموافقة. وارتسمت الحيرة على الوجه الغبيّ لامرأة عديمة الخبرة لم يسبق لها سماعُ الخُطَب، واستمرّت في عدم فهمي.

قالت وهي تتفكّر:

ـ أنت تقول، لنذهب إليك، أنا لا أفهمك تماماً؛ ألا تفهم ما سيقول الناس؟

ـ في أي شيء يُهِمُّك ما سيقولُهُ الناس؟

ـ كيف لا يُهمني؟ لا، يا سيريوج، لا تتحدث بهذا الشكل، دعْ هذا من فضلك، أنت تحبُّني، ولستُ بحاجةٍ إلى أي شيء آخر مع حبك، مستعدةٌ للعيْش في الجحيم مع حُبِّك.

ـ ولكن ستكونين حمقاء إلى حَدٍّ بعيدٍ؟

ـ سأعيش هنا، وأنت ستأتي كل يوم، وسأخرج للقائك.

ـ ولكن ليس بوسعي أن أتخيّل حياتك هذه من دون ارتجاف! في الليل ـ هو، وأنا في فترة ما بعد الظهر.. كلّا، هذا مستحيل! أولغا، أحبُّك في الوقت الحالي لدرجة أنني أشعر بالغيرة عليكِ بجنون، حتى أنني لم أكن أشك في قدرتي على مثل هذه المشاعر.

لكن يا لَهُ من عدم الحذر! أمسكتُ بها من الخصر، وراحت هي تمسّد يدي برِقّة، في وقتٍ كان يمكن فيه لأحدٍ ما يسير على الدرب، أن يرانا.

قلتُ، وأنا أرفع يدي للخلف:

ـ هيا نرتدي ملابسَنا وننطلق!

تمتَمَتْ بصوتٍ باكٍ:

لكنَّكَ تريدُ كل شيءٍ بسرعةٍ، كما لو أنك تُسْرِعُ لإخماد حريق! والرب أعلَمُ بما فكَّرْت فيه! أهربُ مباشرةً بعد عقد القِران! ماذا سيقول الناس!

و ضغطَتْ أولينكا على كتفيها. ارتسم على وجهها الكثير من الحيرة والدهشة وعدم الفهم، لدرجة أنني لوَّحْتُ بيدي، وأجَّلْتُ حلّ «سؤال حياتها» حتى المرة القادمة. نعم، ولم يكن هناك مجالٌ لمواصلة حديثنا، فقد صعدنا الدرجات الحجرية للشُّرْفَة الصيفية، وتناهى لسمعنا صوتٌ بشريٌّ. أمام باب غرفة الطعام، سوَّت أولغا تسريحة شعرها أمام الباب وفحصت الفستان ودخلت. لم يظهر ارتباكٌ أو حرجٌ على وجْهِها. لقد دخلَتْ، بشجاعةٍ كبيرةٍ، على عكس توقُّعاتي.

قلتُ بعد أن دخلتُ وجلستُ في مكاني:

ـ أُعيدُ إليكم أيها السادة الهاربة.. عثرتُ عليها بجهدٍ بالغ، حتى أنني تعبتُ. دخلتُ إلى الحديقة أنظر، وإذا بها تتنزَّه في دروب الحديقة، وسألتُها: «لماذا أنتم هنا؟» وأجابتني: «نعم، الجَوّ خانق!».

نظرت أولغا إليَّ وإلى الضيوف وإلى زوجها، وضحكت. وشعر فجأةً بالمرح والهزل. قرأتُ على وجهها الرغبة في أن يشاطرها كل هذا الحشد الذي يتناول الغداء، السعادة التي انهالت عليها، وفيما

هي لا تملك القدرة على إيصال شعورها بالكلمات، عبَّرَتْ عنها في ضَحِكِها.

وقالت:

ـ أنا مضحكة! أنا أضحك ولا أعرف ما يُضحِكُني، اضحكوا أيها الكونت!

صاح كالينين:

ـ مرارة

تنحنح أوربينين وألقى على أولغا نظرةً متسائلةً، وقال، وقد اكفهرَّت حواجبُها للحظة:

ـ حسناً؟

وغمغم أوربينين وهو ينهض ماسحاً شفتيه بمنديل ورقيّ:

ـ السادة يصرخون: «مرارة»!

نهضت أولغا ومنَحَتْهُ قُبْلَةً على شفَتِهِ الجامدة. كانت هذه القُبْلَة باردةً، ولكنَّها أشعَلَتْ موقداً يلتَهِبُ في صدري، وجاهزاً للاشتعال في كل لحظةٍ. أشحْتُ بنَظَري، أطبَقْتُ بشدَّة على شفتي، وغدوتُ أنتظر نهايةَ الغداء. ولسعادتي، سرعان ما حلَّت هذه النهاية، وبجلافةٍ لم أتمالك نفسي، ولم أصْمد.

قلتُ للكونت بخشونة، وأنا أقترب منه بعد الغداء:

ـ تعال هنا..

تفرَّسَ الكونت بوجهي مندهِشاً، وتبِعَني إلى غرفة فارغة، حيث قُدْتُهُ!

وسألني وهو يفُكُّ أزرار السُّتْرَة وهو يتجشّأ:

ـ ما حاجتُكَ يا صديقي!

قلتُ وأنا بالكاد أقف على قدمي من سَوْرَة الغضب التي ركِبَتْني:

ـ اختر أحد الاثنين، إما أنا، أو بشيخوتسكي! إذا لم تَعِدْني أن هذا الوغد سيترك قريتك بعد ساعة، فإني لن أضع قدمي في منزلك! أمنحك نصف دقيقة للرد!

أسقط الكونت السيجارة من فمِه وبسَطَ يديه، وسألني وجعل حدقةَ عينِه تتَّسِع:

ـ ما جرى لك يا سيريوجا؟ وجهُكَ ممتَقع!

ـ بدون مزيدٍ من اللَّغَط، من فضلك! لا أحتمل الجاسوس، الوغد صديقك بشيخوتسكي، وباسم علاقاتنا الطيبة، أطلب ألا يكون هنا على الفور!

وانزعج الكونت:

ـ ولكن ماذا فعل لك؟ لماذا تُهاجمه بهذه الطريقة؟

ـ أنا أسألُك: أنا أم هو؟

ـ لكن، عزيزي، لقد وضعتني في موقفٍ حسّاسٍ للغاية.. انتَظِر، هناك ريشة على معطفك.. أنت تطلب المستحيل مني!

فأجبته:

ـ وداعاً! لم أعُدْ أعرفك.

واستدرتُ بحِدَّة، وذهبتُ إلى غرفة المنزع، وارتديتُ معطفي وخرجتُ بسرعة. مررتُ من خلال الحديقة عبر المطبخ الذي غصّ بالناس، حيث أردتُ أن أطلب تهيئة الفرس لي، أوقفني لقاء؛ كانت ناديا كالينينا تسير نحوي، وبيدها فنجان قهوة صغير. كانت هي أيضاً في حفل زفاف أوربينين، لكنَّ شيئاً من الخوف الغامض، جعلني أتجنب التحدث معها، ولم أذهب إليها طوال اليوم ولم أبادلها كلمة.

ـ سيرجي بتروفيتش!

قالت بصوتٍ خافتٍ غير طبيعي، بينما كنت أمشي بجانبها ورفعتُ قبَّعَتي:

ـ انتظر!

سألتُها وأنا أقترب منها:

ـ بماذا تأمرينني؟

قالت وهي تحدق في وجهي وهي شاحبة تماماً:

ـ ليس لديَّ ما آمُرُكم به، وأنت لست خادماً. أنت في عجلةٍ من أمرك إلى مكانٍ ما على ما يبدو، ولكن إذا لم تكن في عجلةٍ من أمرك، هل يمكن تأخيرُكَ لمدة دقيقة؟

ـ بالطبع.. حتى لا أعرف.. لماذا تسألين؟

ـ في هذه الحالة، تفضَّل بالجلوس.. أنت، سيرجي بتروفيتش، تابَعت، هي عندما جلسنا، كنتَ طيلة اليوم، تتجاهلني، وعندما مررتَ بي، كما لو كنتَ خائفاً من لقائي، ولكن قررتُ اليومَ عمداً التحدُّث معك. أنا فخورةٌ وعزيزةُ النفس، لا أستطيع فرضَ اللقاء على أحد؛ بيْدَ أنَّ بوسْع المرء أن يُضَحّي بكبريائه مرةً واحدةً في العمر.

ـ عن ماذا تتحدّثين؟

ـ قررتُ أن أسألك اليوم، هذا سؤالٌ مهينٌ وصعبٌ بالنسبة لي، لا أعرف كيف يمكنني تحمُّلُه، أجبت دون النظر إليّ، تُرى ألا تشعر حقّاً بالرأفة بي، سيرجي بتروفيتش؟

نظَرَتْ ناديا إليَّ وهزَّتْ رأسَها بضعفٍ. وامتقع وجهها أكثر، وارتجفت شفتها العليا والْتَوَتْ:

ـ سيرجي بتروفيتش! يبدو لي أن سوء فهمٍ أبعَدَكُم عنّي، أو

نزوة! يبدو لي أننا لو تصارحنا فإن كل شيء سوف يعود إلى مجراه السابق. لو لم أحسب الأمر على ذلك النحو لما وجدت العزم لديَّ لأطرح عليك السؤال الذي سمعته الآن. أنا تَعِسَة يا سيرجي بتروفيتش، ينبغي أن ترى هذا! حياتي بلا حياة.. كل شيءٍ قد جفَّ.. والأهم من ذلك عدم الوضوح: لا أعرف هل أعقد الأمل أم لا؟ سلوككم تجاهي غير مفهوم، إلى حدّ أنه من المستحيل استخلاص أيّ استنتاجٍ محدَّد. أخبِرْني، وسأعرف ما أفعل، تحصل حياتي على اتجاهٍ ما على الأقل، ثم سأقرّر شيئاً.

قلتُ لها وأنا أصوغ ذهنيّاً الردَّ على السؤال الذي توقَّعْتُه:

ـ هل تريدون أن تسألوني شيئاً عن شيءٍ ما يا ناديجدا نيكولايفنا.

ـ نعم، أريد أن أسأل السؤال المُهين. إذا كان أي شخصٍ يتنصَّت، فسيظُنُّ أنني أفرض نفسي عليك، مثل تتيانا بطلة رواية بوشكين «يفجيني أونيجين». لكنَّ هذا سؤالٌ معذّب.

بالفعل كان السؤال معذِّباً. عندما أدارت ناديا وجهها إليَّ لطرح هذا السؤال، ساورني الخوف، اقشعرَّت ناديا، وضغطت بأصابعها بشكلٍ متشنّجٍ واعتَصَرَتْ من نفسها الكلمة المصيرية بحزنٍ مملٍّ وكئيبٍ. كان شحوبها مروّعاً. وأخيراً همَسَتْ:

هل أعقد الأمل؟ لا تخشَ من الردّ بصراحة، مهما كان الجواب، لكنه أفضل من عدم الوضوح. فكيف؟ هل يمكنني أن آمُل؟

كانت تنتظر منّي جواباً، بينما كان مزاج روحي في حالةٍ جعلتني غير قادرٍ على إعطاء جوابٍ عقلانيّ، بالكاد أصغيتُ إلى ناديا، فقد كنتُ مخموراً، وقلِقاً من الحادث في الكهف، غاضباً من تجسُّس بشيخوتسكي، وتردُّد أولغا، كما كنتُ أعاني من المحادثة الغبيّة مع الكونت.

وكرَّرت ناديا:

ـ هل آمُلُ في ذلك؟ أجِبْ!

لوَّحْتُ بيدي وأنا أنهض:

ـ آه، ليس بميسوري الإجابة الآن، ناديجدا نيكولايفنا! أنا غير قادر على إعطاء أي إجابات الآن. اغفري لي، بيْدَ أني لم أسمعك ولم أفهمك. أنا أحمق وغاضب.. عبَثاً تقلَقين، حقّاً.

لوَّحْتُ بيدي مرةً أخرى، وتركتُ ناديا. أدركتُ فيما بعد فقط، بعد أن عُدْتُ إلى رشدي، إلى أيّ مدى كنتُ غبيّاً وقاسياً، لأني لم أُعطِ الفتاةَ إجابةً على سؤالها البسيط والساذج. لماذا لم أُجِبْ؟

والآن، عندما يمكنني أن أنظر إلى الماضي بشكلٍ محايدٍ، لا أفسِّر قسوَتي بالحالة النفسية.. يبدو لي أن عدم إعطائي إجابة، كان من قبيل الغنج والتصنُّع. من الصعب فهْمُ النفس البشرية، بيْدَ أن فهْمَ نفسك أكثر صعوبة. إذا تصنَّعْتُ حقّاً، فليعذِرْني الربّ! ومع ذلك، لا ينبغي الصفح عن الاستهزاء بمعاناة الآخرين.

مكثتُ طيلة ثلاثة أيام في المنزل، وكنت أذرّع الغرفة من زاوية إلى أخرى، كذئب في قفص، وبكل قوة إرادتي الفائقة، حاولت ألا أسمح لنفسي بالخروج من المنزل. لم أمسّ كومة الأوراق الملقاة على الطاولة، وهي تنتظر اهتمامي بها بصبر، لم أستقبل أحداً، وتشاجرت مع بوليكارب، كنت منزعجاً.. لن أسمح لنفسي بالدخول إلى ضيعة الكونت، وهذا الإصرار كلّفَني الكثير من العمل العصبيّ. أخذت قبّعتي ألف مرةٍ ورميتُها بهذا القدر من المرات.. قررتُ تجاهُل كل شيء في العالم والذهاب إلى أولغا بأيّ ثمن، ثم فرضت على نفسي قراراً بارداً بالبقاء في المنزل.

كان عقلي ضد الذهاب إلى ضيعة الكونت. بما أنني أقسمت للكونت بألا أزوره بعد الآن، هل يمكنني أن أضحّي بكرامتي وكبريائي؟ بماذا سيفكر هذا الشخص الطائش المتأنق صاحب الشوارب الكثّة، إذا ذهبتُ إليه، بعد محادثتنا السخيفة، وكأنَّ شيئاً لم يحدث؟ ألا يعني هذا الاعتراف بخَطَلِ رأيي؟ علاوة على ذلك، بصفتي رجلاً شريفاً، كان عليَّ قطْعُ جميع العلاقات بأولغا. إن علاقتنا اللاحقة لا يمكن أن تهَبَها سوى الهلاك. عندما تزوّجت أوربينين، ارتكَبَتْ خطأً، وسترتكب مرةً أخرى خطأً إذا تقارَبَتْ معي. أن تعيش مع زوجها العجوز، ويكون لديها في نفس الوقت عشيقٌ سرّيّ، ألن تكون مثل دُمْيَةٍ فاسدة؟ ناهيك عن مدى شناعة مثل هذه الحياة من حيث المبدأ..! كان من الضروري التفكير في العواقب.

إلى أيّ حدٍّ أنا جبان! كنت خائفاً من العواقب والحاضر والماضي. إن الشخص العادي يسخر من مناقشتي، لن يروح يذرّع الغرفة من زاوية إلى أخرى، ولن يمسك برأسه ويرسم جميع أنواع الخطط، وإنما لَتصوَرَ كل الحياة التي تطحن حتى الرحى وتحوِّلها إلى دقيق، لقد قامت الحياة بطحْن كل شيء، دون طلب مساعدَتِه أو إذْنِه، لكنني مُوَسْوَسٌ، ومرتابٌ حتى الجُبْن. ذرّعت الغرفة من الزاوية إلى الزاوية، وشعرتُ بنفسي عليلا من التعاطف مع أولغا، وفي نفس الوقت شعرتُ بالرعب من فكرة أنها ستفهم مقتَرَحي الذي قدَّمْتُهُ لها في لحظات الولع، وسوف تأتي إلى منزلي، كما وعدْتُها إلى الأبد! ماذا سيحدث إذا أطاعتني واتَّبَعَتْني؟ إلى متى سيستمر هذا؟ إلى الأبد؟ وماذا ستعطيني أولغا الفقيرة؟ لن أمنحها عائلة، وبالتالي لن أجعلها سعيدة. لا، لا ينبغي أن أذهب إلى أولغا!

في هذه الأثناء، كانت روحي متلهفَةً لها بشدَّة.. لقد كنتُ على غرار صبيٍّ يقَعُ لأول مرةٍ في شِراك الحب، ولم يُسمَحْ له بلقاء فَتاتِه. وبفعل إغواء الحادث الذي وقع في الكهف، كنت أتوق إلى موعد جديد، ولم تبارح ذهني لدقيقةٍ واحدةٍ صورةُ أولغا المثيرة، التي، كما عرفت، كانت تنتظرني أيضاً وتَعِبَتْ من الكآبة والشوق.

أرسَلَ الكونت الرسالة تلو الأخرى، حزينة وذليلة.. توسَّلَ إليَّ فيها أن «أنسى كل شيء» وأن أزوره، وسيعتذر عن بشيخوتسكي، طلب مني أن أغفر لهذا «الشخص الطيب، والبسيط ولكن

المحدود إلى حدٍّ ما»، وأنه اندهش من أنني من أجْلِ سفاسف الأمور، قرّرْتُ قطْعَ الصداقات القديمة. ووعد في إحدى الرسائل الأخيرة، بأنه سيأتي لي بنفْسِه، وإذا كنت أرغب سيصْحَبُهُ معه، ليعتذر لي، «على الرغم من أنه لا يشعر بأيّ ذنبٍ». قرأتُ الرسائل، وفي الرد عليها طلبت من كل رسولٍ منه، أن يتركني لشأني. كنت قادراً على التصنُّع والتكلُّف!

وفي ذروة عملي العصبيّ، عندما كنتُ أقف عند النافذة، قررتُ أن أذهَبَ إلى مكانٍ ما، خلا ضيعة الكونت، عذّبْتُ نفسي بالمناقشات مع نفسي، وجلْد الذات، وبتصوّر مشاهد الحب التي كانت تنتظرني لدى أولغا، انفتَحَ بابي بهدوء، وتشنَّفَت آذاني بسماعِ خطواتٍ خفيفةٍ، وسرعان ما التفَّت يدان صغيرتان جميلتان حول رقبتي.

سألتُ، وأنا أنظر حولي:

ـ هل هذه أنتِ أولغا؟

تعرَّفْتُ عليها بنفَسِها الدافئ، بالطريقة التي تعلَّقَتْ بها على رقبتي، وحتى من عبَق الرائحة. بعد أن ضغَطَتْ برأسها على خدّي، بَدَتْ لي سعيدةً بشكلٍ غير عاديّ، ولم تستطع نُطْقَ كلمةٍ من شدّة السعادة، وضغطت بها على صدري، وأين ولّى الكرب والأسئلة التي تُعَذِّبُني لمدة ثلاثة أيام! ضحكتُ من شدّة السرور، وقفزتُ مثل تلميذٍ مراهق.

كانت أولغا ترتدي ثوباً حريرياً أزرق اللون، الذي ناسب لون بشرة وجهها الشاحب، وشعرها الكتّاني الفاخر. كان الثوب على أحدث موضة ومكلّفاً للغاية. ربما كان يساوي ربع راتب أوربينين السنوي.

قلتُ وأنا أرفع أولغا بين ذراعيّ وأقبّلها على رقبتها:

ـ كم أنتِ جميلة اليوم! حسناً، كيف حالك؟ هل كل شيء جيد؟

قالت وهي تنظر في مكتبي:

ـ لكن ما أسوأ الجو هنا! أنت رجل غنيّ، وتحصل على راتب كبير، كيف تعيش بهذه الصورة!

قلت:

ـ ليس الجميع، يا روحي، يعيشون بترفٍ مثل الكونت. ولكن دعينا نترك ثروتي وشأنها. أيّ عبقريٍّ خَيّرٍ حمَلَكِ إلى وكْري؟

ـ على مهْلِك ياسيريوجا، إنك تدعس ثوبي، أنزِلْني على الأرض، جئتُ يا عزيزي، لدقيقة! قلتُ للجميع في المنزل، أنني سأذهب إلى أكاتيخا، امرأة الكونت، التي تعيش في مكان قريب، على بعد ثلاثة منازل منك.. دعْني أذهب، عزيزي، وإلا سيكون الأمر مُحْرِجاً.. لماذا لم تأتِ على مدى فترة طويلة؟

أجبتُ بشيءٍ ما، ووضعتُها على المقابل مني، وطفقْتُ أتأمّل جمالها.. نظَرْنا إلى بعضنا البعض بصمتٍ لمدة دقيقة.

وقلتُ وأنا أتنهّد:

ـ أنتِ جميلةٌ جداً، أولغا! حتى مِن المؤسف ومن الظلم أن تكوني جميلةً جداً!

ـ لماذا من المؤسف؟

ـ الشيطان وحده يعرف بيَدِ مَنْ وقَعْتِ.

ـ ولكن، بعد كل شيء، ماذا تريد! أنا لك! جئتُ إلى هنا.. استمع يا سيريوجا.. هل ستقول لي الحقيقة إذا وجَّهْتُ لك سؤالاً؟

ـ بالطبع أقول الحقيقة.

ـ هل كنت ستتزوَّجني لو لم أتزوَّج بيوتر يجوريتش؟

أردتُ أن أقول «على الأرجح لا»، ولكن لماذا كان من الضروري النبش في جرحٍ ما زال مؤلماً، يعذّب قلب أولغا المسكينة؟ فقلتُ بنبرة رجلٍ يقول الحقيقة:

ـ بالطبع.

تنهَّدَتْ بصوتٍ مسموعٍ، واستقامت قائلةً:

ـ كم كنتُ مخطئةً، وكيف أخطأتُ! والأسوأ من ذلك كله، لا يمكنني إصلاح هذا الخطأ! بعد كل شيءٍ، لا يُمْكِنُني تطليقُهُ؟

ـ لا يمكنك.

ـ ولماذا كنتُ في عجلةٍ من أمري، لا أفهم! نحن الفتيات غبيّات وهوائيّات جدّاً.. ليس ثمّة من يضْرِبنا! ولكن، لا يمكنك إعادة ما مضى، وليس ثمَّة ما نتجادل عليه هنا، لن تساعدنا المناقشات ولا الدموع. سيريوجا، لقد بكيتُ اليوم طوال الليل! كان يستلقي بالقرب مني، لكنني كنت أفكّر فيك، لم أستطع النوم حتى أنني أردْتُ أن أهرب في الليل، حتى إلى غابة والِدي؛ من الأفضل أن أعيش مع أبٍ مجنون على أن أعيش مع مثل هذا.

ـ اسمعي يا أولغا، التفكير لن يساعد، كان من الضروري التفكير في ذلك الوقت، عندما كنتُ مسافراً معك في العربة من تينيف، وكنتِ سعيدةً أنك ستتزوجين من رجلٍ ثريٍّ. الآن فات الأوان لممارسة الخطب البلاغية.

قالت أولغا، وقد لوَّحَتْ بيدها بحزم:

ـ متأخر.. فليكن! فقط أن لا يكون ما هو أسوأ، وألا يمكن العيش لاحقاً.. وداعاً! حان وقت الذهاب.

ـ لا لن أودعك!

جذبتُ أولغا إليَّ وبدأتُ أنهال على وجهها بالقُبَل، وكأنني أحاول مكافأة نفسي على الأيام الثلاثة الضائعة. احتضَنَتْي مثل خروف يشعر بالبرد، دفّأتُ وجهي بأنفاسها الساخنة.. خيَّمَ هدوءٌ.. صرخ ببّغائي:

ـ قتَلَ الزوجُ زوجَتَهُ!

ارتَجَفَتْ أولغا وانتزعت نفسها من ذراعي ونظرت إليَّ متسائلةً، قلتُ:

ـ هذا ببّغاءٌ يا روحي، اهدَئي.

كرَّرَ إيفان ديميانيتش

ـ قتَلَ الزوجُ زوجَتَهُ!

نهَضَتْ أولغا، واعتمرت قبَّعَتَها بصمتٍ وأعطتني يدَها. ارتسم الخوف على وجهها.. سألت، وهي تنظر إليَّ بعيون كبيرة:

ـ ماذا لو اكتشف أوربينين؟ سيقتُلُني!

ضحكتُ:

ـ حسناً، يكفي، لن أسمح له بقتلك! إضافةً إلى أنه بالكاد قادرٌ على شيءٍ غير عاديٍّ مثل القتل. ستذهبين؟ حسناً، وداعاً يا بُنيَّتي.. أنتظرُك.. غداً سأكون في الغابة بالقرب من المنزل الذي تعيشين فيه.. سنلتقي.. بعد أن ودَّعتُ أولغا وعُدْتُ إلى المكتب، وجدتُ بوليكارب هناك. وقَفَ في منتصف الغرفة، وهو يتفرَّس بي بصرامةٍ وبازدراء. وقال بنبرة الوالد الحازم:

ـ سيرجي بتروفيتش! كي لا يحدث هذا مرةً أخرى عندي، لا أريد ذلك..

ـ ما هذا؟

ـ هذا.. أتعتقدون أنني لم أرَ؟ رأيت كل شيء.. حتى لا تجرؤوا على المجيء إلى هنا! لا تجري هنا علاقاتُ حبٍّ حميميّة! هناك أماكن أخرى لهذا.

كنتُ روحياً في مزاجٍ ممتاز، لذلك لم تُغْضِبْني نغمة التجسُّس والتوجيه من بوليكارب. ضحكتُ وأرسلته إلى المطبخ.

لم أثِبْ إلى رشدي بعد زيارة أولغا، حتى جاءني ضيفٌ جديد. اقتربَتْ عربةٌ من منزلي مصحوبة بضوضاء، وأبلغني بولياكارب، وهو يبصق حواليه ويغمغم بالشتائم، عن وصول «ذلك......»، أي الكونت الذي كان يكرهه بكل قوَّةِ روحِه. جاء الكونت، ونظر لي بعيونٍ باكيةٍ، وهزَّ رأسَهُ

ـ أنت تُشيح بوجهك.. لا تريد التحدُّث...

فقلتُ:

ـ أنا لا أشيح بوجهي.

ـ لا تعرف إلى أيّ مدىً أحبك كثيراً يا سيريوجا، أما أنت.. بسبب أمرٍ تافهٍ! لماذا أنت تُهينُني؟ على ماذا؟

جلس الكونت، تنهّدَ وهزَّ رأسَهُ..

قلتُ له:

ـ حسناً، كفاك تصنُّعاً أيها الأحمق! حسناً!

كان لي تأثيرٌ قويٌ على هذا الرجل الضعيف والهزيل، بقَدْر ازدرائي له.. لدرجة أن نبرة الاحتقار في صوتي لم تُسئ إليه بل بالأحرى، عندما سمِعَ منّي «حسنًا!»، قفز وبدأ في معانقتي.

ـ لقد أحضرتُهُ معي، إنه يجلس في العربة، هل تريد منه أن يعتذر لك؟

ـ هل تعرف ذنبه؟

ـ كلّا.

ـ ممتاز إذن. دعْهُ لا يعتذر، ولكن فقط حذِّرْهُ من أنه إذا قام بشيءٍ من هذا القبيل مرةً أخرى، فلن أحتدم غيظاً أبداً، لكنني سأتخذ إجراءات أخرى.

ـ إذن، سلام، ياسريوجا؟ ممتاز! كان السلام ممكناً منذ وقت طويل، وإلا فإن الشيطان وحده يعرف لماذا تشاجرتم! مثل فتيات جامعيّات! أوه.. نعم عزيزي! هل لديك نصف كأس من الفودكا؟ لقد جفَّت حنجرتي بشكلٍ رهيب!

أمرتُ بتقديم الفودكا. شرِبَ الكونت كأسين، وانهار على الأريكة وطفق في الثرثرة.

ـ الآن، يا أخي، التقيتُ بأولغا، امرأة أعجوبة! يجب أن أخبرك

أنني بدأت أكره أوربينين، هذا يعني أن أولينكا بدأت تُعجبني، إنها بالغة الجمال! أعتقد سأبدأ بالاهتمام بها.

تنهَّدْتُ:

ـ لا يجوز المساس بالمتزوجات!

ـ حسناً، ولكن انتزاع الرجل العجوز بيوتر يجوريتش زوجَتَه ليس خطيئة؛ إنه ليس كفؤاً لها، إنه مثل الكلب الذي لا يأكل بشراهة، ولا يسمح للآخرين. اليوم سأبدأ هجماتي وأبدأ بشكلٍ منهجيّ.. مثل هذه الروح الصغيرة.. أم... إنها غادة، أخي تمتص أصابعك بعدها، إنها كأكلة لذيذة!

شرِبَ الكونت الكأس الثالث واستمر:

ـ هل تعرف من يُعجبني أيضاً من هؤلاء المحلّيات؟.. ناديا، ابنة هذا الأحمق كالينين.. امرأة سمراء مشتعلة، شاحبة، كما تعلم. مع هذه العيون ينبغي أيضاً رمْي صنّارة.. سأقيم أمسيةً موسيقيةً في عيد الثالثوث الأقدس.. موسيقية ـ غنائية ـ أدبية، عن قصدٍ.. لدعوتها.. وهنا، يا أخي، سيكون، مرحٌ رائعٌ! واجتماعٌ ونساءٌ.. و... هل يمكنني النوم عندك، قليلاً؟

ـ من الممكن.. ولكن كيف بشيخوتسكي والعربة؟

ـ دعْهُ ينتظر ليأخُذَهُ الشيطان! أنا نفسي يا أخي لا أُحِبُّه.

واستند الكونت على كوعَيْه وتحدَّث بشكلٍ غامضٍ:

ـ أنا أُبْقيه فقط بدافع الضرورة.. بدافع الضرورة.. حسناً، ليأخذه الشيطان!

الْتَوَى مِرفَقُ الكونت، وسقط رأسُهُ على الوسادة. بعد دقيقة، تردَّدَ الشخير.

في المساء، عندما غادر الكونت، كان لديَّ ضيفٌ ثالثٌ: الدكتور بافيل إيفانوفيتش. جاء ليخبرني بمرض ناديجدا نيكولايفنا وأنها... رفضت أخيراً يدَهُ. كان الرجل المسكين حزيناً وبدا كدجاجةٍ مبلَّلةٍ.

لقد مرَّ شهر مايو (آيار) الشاعري، وتلاشت ورود الزنبق والخزامَى، وكان مقدّراً معهما أن يزدهر ويسعد الحب، الذي، على الرغم من جُرْمِه وبهجته، منَحَنا أحياناً لحظاتٍ حلوةً، لا تُمْحَى من الذاكرة. وهناك دقائق يمكن للمرء أن يُعطي من أجلها شهوراً وسنواتٍ من عمره!

في إحدى أمسيات شهر يونيو (حزيران)، عندما كانت الشمس قد غابت، ولكن أثرها الواسع ـ خطٌّ قرمزيٌّ ـ مذهبٌ ما زال يصبغ أقصى الغرب، ليُنبئ أنَّ يومَ غدٍ سيكون هادئاً ومشْرِقاً، ذهبتُ وأنا أمتطي زوركا إلى الجناح الذي عاش فيه أوربينين. في ذلك المساء كان من المفترض أن يكون لدى الكونت أمسية «موسيقية». بدأ الضيوف بالفعل في التوافد، لكن الكونت لم يكن في المنزل: ذهب للنزهة، ووعد بالعودة قريباً.

بعد ذلك بقليل، كنت أمسك حصاني بالعنان، ووقفت عند العريشة وتحدثت مع ابنة أوربينين، ساشا. كان أوربينين نفسه جالساً على الدرج، وقد احتضن رأسه بقبضة يده، وبصره ينظر إلى مسافة بعيدة، كانت مرئية من خلال البوابة. كان عبوساً، وأجاب على أسئلتي على مضض. تركتُهُ وحدَهُ وأخذتُ ساشا.

ـ أين والدتك الجديدة؟ سألتُها.

ـ ذهبت في جولة على الحصان مع الكونت، تذهب معه كل يوم.

تمتم أوربينين وهو يتنهّد:

ـ كل يوم.

تردَّد الكثير في هذا التنهُّد. تردد الشيء نفسه الذي يُقْلِق روحي أيضاً، والذي حاولتُ أن أوَضِّحَهُ لنفسي، لكن لم يتسنّى لي شرحُهُ وتهتُ في الهواجس والتخمين.

كانت أولغا تذهب للنزهة على الجياد مع الكونت. ولكن هذا هراء، ليس بميسور أولغا أن تقع في حب الكونت، ولا أساس لغيرَة أوربينين. يجب أن نشعر بالغيرة ليس من الكونت، ولكن من شيءٍ آخر، وهو ما لم أستطع فهْمَهُ لفترة طويلة. ووقف هذا «الشيء الآخر» حاجزاً بيني وبين أولغا مثل جدارٍ بكامله. استمرَّت تحبني، ولكن بعد تلك الزيارة، التي تمَّ وصفُها في الفصل السابق، لم

تأتِ لي أكثر من مرتين، وعندما قابلتني خارج شقّتي، كانت تحمَرّ وتتهيَّج على نحوٍ غريب، وتتجنَّب باستمرار الردّ على أسئلتي. لقد ردَّت على ملاطفتي بحرارة، لكن إجاباتها كانت متقطِّعَة وفيها خوف، لدرجةٍ لم تُبْقِ في ذاكرتي من لقاءاتنا القصيرة سوى حيرة مؤلمة. لم يكن ضميرها طاهراً ـ كان هذا واضحاً، ولكن في ماذا يكْمُن بالضبط ـ كان من المستحيل قراءة وجْه أولغا البريء.

سألتُ ساشا:

ـ أتمنى أن تكون والدتك الجديدة بصحّة جيدة؟

فردَّت الصغيرة وهي تنطق بعض الكلمات بلثغة طفولية:

ـ بسحّة. ولكن أسنانها كانت تؤلمها في الليل. فبكت.

أدار أوربينين وجهَهُ نحو ساشا:

ـ بكت؟ أنتِ رأيتِها تبكي؟ لقد تراءى لك هذا في الحلم يا عزيزتي.

أسنان أولغا لم تؤلمها. وإذا كانت تبكي، فهذا لم يكن من الألم، ولكن من شيءٍ آخر. كنت أرغب في مواصلة التحدث معَ ساشا، لكنني لم أفلح فقد سمعتُ جواداً يضرب الأرض بأقدامه، وسرعان ما رأينا الكونت الفارس يقفز من على السرجَ بصورة دميمة، والأمازونية الرشيقة أولغا. ولكي أُخفي فرحي عن أولغا،

رفعتُ الصغيرة ساشا بين ذراعيّ، ورحْتُ أعبث بشعرها الأشقر، وقبّلْتُها على رأسها.

وهتفت:

ـ إلى أيّ حدٍّ أنت جميلة يا ساشا! أي شعرٍ مجعَّد رائع لديكِ؟

ألقت أولغا عليَّ نظرةً خاطفةً، وردَّت بصمتٍ على انحناءة تحيَّتي لها، ودلفت الجناح متكئةً على يد الكونت. ونهض أوربينين واقفاً وتبِعَها.

بعد خمس دقائق خرج الكونت من الجناح. لقد كان مرِحاً كما لم يكن يبدو عليه أبداً. حتى وجهه بدا منتعشاً.

قال، وهو يأخذ ذراعي ويضحك:

ـ هنّئني!

ـ بماذا؟

ـ بالنصر. جولة أخرى من هذا القبيل، وأقسم على تراب أسلافي النبلاء، سأقتطف من هذه الزهرة البتلّات.

ـ ولكن لم تقطف بعد؟

ـ وداعاً لبعض الوقت! لمدة عشر دقائق، «يدُها في يدي» ـ ترنَّم الكونت ـ ولم تسحب يدها مرةً واحدةً، لثَمْتُها! لكن لننتظر حتى

الغد، والآن دعنا نذهب. ينتظرونني. أووه.. نعم! أريد أن أتحدث إليك، عزيزي، عن مسألة واحدة. أخبرني يا عزيزي، هل حقيقة، كما يقولون، أن لديك نوايا شريرةً إزاء ناديا كالينينا؟

ـ وماذا؟

ـ إذا كان هذا صحيحاً، فلن أزعجك. ليس من قواعدي وضع ساقي بطريق أحد. إذا لم يكن لديك أيّما نوايا، فبالتأكيد...

ـ ليس عندي.

ـ «مِرْسي»، يا روحي!

كان الكونت يحلم بقتل عصفورين بحجرٍ واحدٍ، وهو متأكد تماماً من أنه سينجح. ورصدتُ في المساء الموصوف مطاردته لهذه الأرانب. كانت المطاردة بليدة وهزليّة، مثل الكاريكاتير الجيد. وبالنظر إليها، يمكن للمرء أن يضحك فقط، أو يكون ساخطاً على ابتذال الكونت، لكن لا أحد كان يعتقد أن هذا السعي الصبياني سينتهي بالسقوط الأخلاقي للبعض، والهلاك لآخرين، وتورُّط الجماعة الثالثة بالجريمة!

لم يقتل الكونت عصفورين بحجرٍ واحدٍ، بل قتَلَ أكثر! لكن الجلد واللحم لم يذهبا إليه.

رأيت كيف ضَغَطَ سِرّاً على يد أولغا، التي كانت تستقبِلُهُ بابتسامةٍ

ودّيّةٍ في كل مرةٍ، وتُشَيّعُهُ بابتسامةٍ مهينةٍ. ذات مرةٍ أراد أن يُثْبِتَ أنه لا توجد بيني وبينه أسرار، فلَثَمَ يدها أمامي.

وهمست في أذني، وهي تمسح يدها:

ـ يا لَهُ من أبْلَه!

بعد أن ذهب الكونت، سألتُها:

ـ اسمعي يا أولغا! أعتقد أنك تريدين أن تقولي لي شيئاً. هل لديك ما تقولينَهُ؟

تطلَّعْتُ لوجهها بنظرةٍ ثاقبةٍ. احمرَّتْ وجالت بعينِها بخوف، مثل قطةٍ ضُبِطَتْ وهي تحاول القيام بسرقة. وقلتُ لها بنبرةٍ شديدةٍ:

ـ أولغا، عليكِ أن تقولي لي، أنا أطلب ذلك!

وهمَسَتْ لي وهي تضغط على يدي:

ـ بلى، أوَدّ أن أخبرك بشيء، أنا أحبك وليس بمقدوري العيْش من دونك، ولكن.. لا تأتِ إليَّ بعدُ يا عزيزي! لا تُحِبَّني بعد الآن، وخاطِبْني بصيغة الجمع «أنتم». ليس بوسْعي أن أستمر... لا يجوز... ولا تُظْهِر أنك تُحِبّني.

ـ ولكن لماذا؟

ـ هكذا أريد. لا حاجة لأن تعرف السبب، لن أفصح لك عنه. إنهم قادمون.. ابتَعِدْ عنّي.

لم أبتعد عنها، وتعيَّنَ عليها قطْع حديثنا. أخَذَتْ ذراعَ زوجها الذي مرَّ بقُرْبِنا، وأومَأَتْ لي برأسها مع ابتسامةٍ مُرائيَةٍ، وذهبتْ.

ـ أرنب الكونت الآخر كانت نادينكا كالينين ـ حظيَتْ في تلك الأمسية باهتمامٍ خاصّ من الكونت. كان يدور حولها طيلة الأمسية، روى النِّكات لها ومزحَ، وغازل، أما هي، فظلت شاحبةً، ومعذَّبةً، لوت فمَها لتغتصب ابتسامة. كان قاضي الصلح كالينين يراقبهما طيلة الوقت، ومرَّرَ يده بلحيَتِه وتنحْنَحَ بصورةٍ معبِّرَةٍ. كان اهتمام الكونت يناسب طبيعته. سيكون لديه صِهْرٌ كونت! فما أحلى من هذا الحلم بالنسبة لثريّ مقاطعةٍ غير مهموم؟ بعد أن بدأت مغازلة الكونت لابنته، نما بعينِهِ لأرشين كامل[1]. وبأيّة نظراتٍ مهيبةٍ تفرَّسَ بي، وكيف تنحنح بخُبْثٍ وهو يُبادلُني الحديث، ولسان حاله يقول، «جاملتنا، وذهبت عنا، ونحن نبصق عليك! الآن لدينا الكونت!».

وفي اليوم التالي كنت في المساء مرةً أخرى في ضيعة الكونت. وتبادلت الحديث هذه المرة ليس مع ساشا بل مع أخيها تلميذ المدرسة المتوسطة. أخذني الصبيّ إلى الحديقة، وأفصح لي عن مكنون قلْبِه بالكامل. وكان سؤالي عن حياته مع «أمه الجديدة» سبباً ليُفيض عليَّ بمكنون قلْبِه.

طفق بالحديث بشكلٍ عصبيٍّ، وهو يفتح أزرار سُتْرَتِه:

(1)الأرشين مقياس روسي قديم يساوي 71 سنتيمترا

ـ إنها صديقتكم الطيبة، بوسعكم أن تنقلوا لها كلامي، ولكنني لا أخاف، يمكنكم أن تنقلوا لها قدر ما شئتم! إنها شريرة، ودنيئة!

أخبَرَني أن أولغا انتزعت منه غرفته، وطردت المربّية العجوز، التي خدمت في منزل أوربينين عشر سنوات، كانت أولغا تصرخ وتغضب باستدامة.

ـ البارحة مدحتُم شَعْرَ أختي ساشا.. إنه شَعرٌ جيد أليس كذلك؟ حريرٌ أصيل! أمّا هي فقامت اليوم بقصّه!

وفسَّرْتُ أنا لنفسي اقتحام أولغا مجال الحلاقة الغريب عليها: «هذه غيرة».

وأكَّدَ الصبيّ فكرَتي:

ـ لقد شَعَرَتْ بالحسد، لكونكم مدحتم شعر ساشا، وليس شعرها! إنها عذَّبَتْ أبي أيضاً. أبي ينفق عليها المال بشكل رهيب، وينصرف عن العمل... وبدأ يدمن الكحول ثانية! إنها حمقاء... طيلة اليوم تبكي، لأنه يتعيّن عليها العيش في مثل هذا الجناح الصغير. فيا تُرَى هل أبي مذنبٌ لعدم وجود مالٍ لديه؟ روى لي الصبيُّ الكثيرَ من الأمور المحزنة: أنه رأى ما لم يرَ أو لم يوَدّ أن يراه أبوه مسلوب العقل، لقد أُهينَ أبو الصبي المسكين، وأُهينَتْ أختُهُ والمربّية العجوز. انتزعوا منه عُشَّهُ الصغير، حيث اعتاد على الانشغال بترتيب كتبه وإطعام طيور الحسّون التي صادها. كانت

زوجة الأب البليدة والمتسلِّطَة، ممتَعِضَةً وتسخر من الجميع! ولكن ليس في ميسور الصبي المسكين أن يرَى حتى في الحلم تلك الإهانة الرهيبةَ التي أنزلتها زوجةُ أبيه الشابّة بعائلته، والتي شاهدتُها بنفسي في تلك الأمسية نفسها بعد التحدث معه. كل شيء تلاشى إزاء هذه الإهانة، ولاح قصُّ شَعْر ساشا مقارنةً بها، تافهاً وضئيلاً.

جلستُ في ساعة متأخرة من ذلك المساء، عند الكونت. وكالعادة شَرِبْنا. كان الكونت مخموراً تماماً، لكني كنت قليلاً.

تمتم هو:

ـ اليوم سَمَحتْ لي بلمس خصْرِها كما لو بالصدفة. غداً سنمضي أبعد من ذلك.

ـ حسناً وناديا؟ مع ناديا كيف الحال؟

ـ نسير! حتى الآن في البداية معها. ما زلنا نَمُرُّ بفترة المحادثة بأعيننا. أنا يا أخي، أحبّ أن أقرأ في عينيها السوداء الحزينة، عينان مكتوبٌ فيهما شيءٌ ما، لا يمكنك التعبير عنه بالكلمات، ولكن يمكن أن تفهمه فقط بروحك. لنشرب؟

ـ إذن إنك تُعْجِبُها، إذا كان لديها الصبر للتحدث معك لساعات، وتُعْجِب والدها.

ـ الأب؟ هل تتحدث عن هذا الأحمق؟ هاها يعتقد الأحمق أن نوايايَ صادقة!

سعل الكونت وشرب.

ـ يعتقد أنني سأتزوج من ابنته! ناهيك عن أنني لا أستطيع الزواج، ولكن لأكون صريحاً، بالنسبة لي سأكون أكثر نزاهة لو أنني أغوي فتاةً من أن أتزوَّجها.. الحياة جحيمٌ أبديٌّ مع رجلٍ مثلي عجوز، ومخمور ويسعل! إن زوجتي على الأغلب ستذبل أو تهرب مني في اليوم التالي، ولكن أيّ ضجيجٍ يتعالى هناك؟

فجأةً انصفقت في آنٍ واحد بضعة أبواب، فقفزنا أنا والكونت من أماكننا.. اقتحمت أولغا غرفتنا. كانت شاحبة كالثلج، وارتجفت مثل وترٍ ضُرِبَ عليه بشدة. كان شعرها منسدلاً، واتسَّعت حدقتا عينيها، كانت تلهث، وتدعك، بين أصابعها عند الصدر، ثنايا بذلتها الليلية المنزلية.

سألتُها وأنا أقبض على يدها وقد امتقع وجهي:

ـ أولغا، ماذا حدث لكِ؟

كان ينبغي أن يُفاجأ الكونت بهذا «لكِ» التي رميتُها عن غير قصد، كان من المفترض أخاطبها بلغة الجمع «لكم»، لكنه لم يسمعها. تحوَّلَ بأكمله إلى علامة استفهام كبيرة، فغرَ فاهُ وجحظت عيناه، ونظر إلى أولغا كشبح.

وسألتُها:

ـ ما حدث؟

ـ يضربني! ـ قالت أولغا؛ وهي تجهش بالبكاء، وتهاوت على أريكة ـ إنه يضرب!

ـ من هو؟

ـ زوجي! لا أستطيع العيْشَ معه! أنا ذهبتُ عنه!

ـ إنه أمرٌ شائنٌ! ـ ضَرَبَ الكونت بقبضته على الطاولة ـ ليس من حقِّه! هذا طغيان.. هذا.. الشيطان يعرف ما هذا! ضرب الزوجة؟! ضرب! لماذا يضربكم؟

قالت أولغا وهي تمسح دموعها:

ـ دون أيّ سببٍ على الإطلاق، بينما أخرجتُ منديلاً من جيبي، سقَطَتْ من جيبي الرسالة التي أرسلتموها لي أمس... قفز، وقرأها و... بدأ في ضربي... قبض على يدي، وعصرها.. انظروا، ما تزال هناك بُقَع حمراء على يدي، طلب مني تقديمَ تفسيرٍ.. وبدلاً من التفسير، أنا هرعتُ إلى هنا.. على الأقل أنتم اشفعوا لي! ليس لديه الحق في معاملة زوجته هكذا بوقاحة! أنا لست طبّاخة! أنا امرأة نبيلة!

طفق الكونت يذرعّ الغرفة من زاوية إلى أخرى، وبدأ في ترديد بعض الهراء بلغةٍ مخمورةٍ ومرتبكةٍ، والتي كانت تعني، لو تُرْجِمَتْ إلى لغةٍ رصينةٍ: «حول وضع المرأة في روسيا».

ـ هذه بربرية! هذه نيوزيلندا! هل يعتقد هذا الرجل أيضاً أن

زوجته ستُذبح حتى الموت في جنازته؟ فالمتوحشون، حينما يرحلون إلى العالم الآخر، يأخذون زوجاتهم معهم!

لم أستطع أن أثوب إلى رشدي.. كيف كان ينبغي فهم زيارة أولغا المفاجئة، وهي في ملابس النوم المنزلية، ما الذي يجب التفكير فيه، و ما الذي يجب الاعتقاد؟ إذا ضربوها، أو أهانوا كرامتها، فلماذا لم تهرب إلى والدها، أو إلى مدبّرة المنزل.. أو أخيراً لي، فقد كنتُ قريبًا منها؟ وهل أهانوها حقّاً؟ تحدَّثَ قلبي عن براءة أوربينين البسيط. مستشعراً الحقيقة، وانعصر قلبي من الألم الذي كان من المفترض أن يشعر به الزوج المبهوت في ذلك الوقت. ومن دون أن أطرح أسئلة ولا أعرف من أين أبدأ، بدأتُ أُهدّئ من روع أولغا وقدَّمْتُ لها النبيذ.

ـ كم كنتُ مخطئةً! كيف أخطأتُ! ـ تنهَّدَتْ هي من خلال الدموع، وحمَلْتُ أنا الكأس إلى شفتَيْها ـ ولكن بأيّ هدوءٍ تظاهر ندماً، كان يهتم بي! ظننتُ أنه ملاكٌ، وليس رجلاً!

وسألتُها:

ـ هل أردتم أن تعجبه تلك الرسالة التي سقطت من جيبكم؟ هل أردتم منه أن يضحك؟

قاطعني الكونت:

ـ دعنا لا نخوض في هذا الموضوع! مهما كان، فإن فِعْلَهُ دنيءٌ!

لا ينبغي معاملة النساء بهذه الطريقة! سوف أدعوه إلى مبارزة! سأريكم! صدّقوني، أولغا نيكولايفنا، إنَّهُ سيدفع ثَمَنَ ذلك!

كان الكونت ينتفخ مثل ديك رومي فتيّ، على الرغم من أن أحداً لم يُفَوِّضْه بالوقوف بين الزوج والزوجة. كنت صامتاً ولم أعارِضْهُ، لأنني كنت أعلم أن الانتقام لأجل زوجة شخص آخر، سيقتصر فقط على فورة من الكلمات المخمورة داخل أربعة جدران، وأن المبارزة ستُنْسَى في الغد. ولكن لماذا لاذَتْ أولغا بالصمت؟ لم أكن أريد أن أصدق أنها مستعدةٌ للقبول بالخدمات التي يعرضها الكونت. لم أكن أريد أن أصدّق أنه ليس لدى هذه القطة الجميلة الغبية، القليل من الكرامة، لدرجة أنها توافق عن طيب خاطر بأن يصبح الكونت المخمور قاضي الزوج والزوجة.

ـ سوف أخلطُهُ بالوحل! ـ صرخ الفارس الجديد ـ وبالتالي، سأعطيه صفعةً على وجهه! غداً بالتحديد!

ولم ينسَدّ فَمُ هذا الخسيس، الذي أهان، وهو في حالة سُكْرٍ، إنساناً كان مذنباً فقط في أنه انخدع وغُرِّرَ به! عصَرَ أوربينين يدَها بقوة، وتسبب ذلك في هروبها الفاضح إلى منزل الكونت، الآن وأمام عينيها داسَ رجلٌ مخمورٌ من دون أخلاق، على اسمٍ شريفٍ، ونَشَرَ غسيلَهُ القذر على رجلٍ كان في تلك الأثناء يُعاني من الكرب وعدم الوضوح، مدركاً أنه خُدِعَ، وهي لم ترفع حتى حاجبيها احتجاجاً!

وبينما كان الكونت يصُبُّ غضبَهُ، وأولغا تمسح دموعها، قدَّمَ أحد خدم الكونت طيورَ حجلة مقليَّة. قام الكونت بوضْعِ نصف حجلة للضيفة... هزَّتْ رأسَها بالرفض، ثم، كما لو أنها التقطت ميكانيكياً شوكةً وسكّيناً، طفقت في تناول الطعام. أعقب طيور الحجلة كوب كبير من النبيذ، وسرعان ما، وكأن لم يكن هناك علامة على وجود دموع باستثناء بُقَع ورديّة بالقرب من العينين وتنهُّدات عميقة نادرة.

سرعان ما سمعنا ضحكاً! ضحكت أولغا، مثل طفلٍ تسلّى ونسيَ الضَّيْم الذي أُلْحِقَ به، الكونت أيضاً ضحك وهو ينظر إليها:

ـ هل تعرفون ما فكّرت به؟ ـ بدأ يجلس بالقرب منها ـ أريد عرض مسرحية للهواة في منزلي. نعرض مسرحية مع أدوار نسائية جيّدة، ما رأيك؟

طفقا يتحدّثان عن مسرحية الهواة. ولم تتناسب هذه المحادثة الغبيَّة مع الرعب الذي ارتَسَمَ مؤخّراً على وجه أولغا عندما هرعت قبل ساعة، شاحبة، تجهش بالبكاء، وشعرها منسدلٌ، كم هو رخيصٌ هذا الرعب، وهذه الدموع!

في غضون ذلك، مرَّ الوقت. دقَّت الساعة منتصف الليل. النساء الشريفات في هذا الوقت يذهبن إلى الفراش. وكان على أولغا أن تغادر منزل الكونت. ولكن دقَّتْ الساعة الثانية عشرة والنصف، وضربت الواحدة، وما زالت هي تجلس وتتحدث مع الكونت.

قلتُ وأنا أرمق الساعة:

ـ حان وقت النوم. سأغادر، هل تسمحون أن أصحبكم حتى منزلكم، يا أولغا نيكولايفنا؟

ألقت أولغا نظرةً إليَّ، وإلى الكونت.

وقالت بهمسٍ:

ـ إلى أين أذهب؟ لا يمكنني الذهاب إليه.

قال الكونت:

ـ نعم، نعم، بالطبع، لا يمكنكم الذهاب إليه. من يستطيع أن يضمن أنه لن يضربكم مرةً أخرى؟ لا لا!

مشيتُ على طول الغرفة. فيما خيَّمَ الصمت على الجميع. ذرّعتُ الغرفة من الزاوية إلى الزاوية، وراقب صديقي وعشيقتي خطواتي. بدا لي أنني فهمتُ هذا الصمت، وهذه النظرات. كان فيها ترقُّبٌ، ونفادُ صبرٍ. وضعت قبَّعَتي جانباً، وجلستُ على الأريكة.

تمتم الكونت وهو يفرك يديه بفارغ الصبر:

هكذا.. هكذا.. هكذا هي الأمور...

دقَّتْ الساعة النصف بعد الواحدة. نظر الكونت بسرعة في ساعته، وعبس، وسار على طول الغرفة. وكان واضحاً من النظرات

التي ألقاها عليَّ، أنه يريد أن يقول لي شيئاً ما، شيئاً ضرورياً، ولكنه حسّاسٌ، وغير مسرور.

وقرَّرَ أخيراً أن يجلس بجواري ويهمس في أذني:

ـ اسمَعْ، ياسيريوجا أنت عزيزي، لا تشعر بالإهانة.. أنت بالطبع ستفهم موقفي، ولن يبدو طلبي غريباً وجريئاً بالنسبة لك.

ـ تكلَّم بسرعة! لا داعي لإطالة الكلام!

ـ كما ترون، ما هو الأمر.. حسناً.. اذهب يا عزيزي! أنت تُشَوِّش علينا.. إنها ستبقى معي.. اعذرني على أني أطردك، لكن.. ستفهم نفاد صبري.

ـ حسناً.

كان صديقي مُقَزِّزاً. ولو لم أكن أشعر بالتقزُّز، لربما كنتُ قد سحقْتُهُ مثل حشرة، عندما طلب مني، وهو يرتجف كما لو كان في الحُمّى أن أتركه مع أوربينا. لقد أراد الناسك المُشْبَع حتى النخاع بالكحول، والمريض، أن يأخذ «الفتاة بالأحمر» الشاعريّة، التي كانت تحلم بموتٍ مذهلٍ، التي ربَّتْها الغابة والبحيرة الغاضبة. لا، لا يجب أن تكون حتى على بُعْد فيرستا عنه!

ذهبتُ إليها. وقلتُ لها:

ـ أنا ذاهب.

أومَأَتْ برأسها.

سألتُها، وأنا أحاول قراءة الحقيقة على وجْهِها الجميل المتورِّد.

ـ هل أخرج من هنا؟ نعم؟

ـ نعم؟

وأجابت بحركة ملحوظة قليلاً لرموشها السوداء الطويلة.

ـ نعم.

ـ هل فكَّرْتِ في ذلك؟

أشاحت بوجهها عنّي، كما يستديرون من الريح المزعجة. لم تُرِدْ التحدُّث معي. بلى، ولماذا الحديث؟ من المستحيل الإجابة بإيجازٍ على موضوعٍ طويل، ولم يكن هناك مكان ولا وقت للخطابات الطويلة.

أخذتُ قبّعتي وغادرتُ المكان دون أن أقول وداعاً. في وقتٍ لاحقٍ، روت لي أولغا أنه فور مغادرتي، وبمجرد أن اختلطت ضوضاء خطواتي مع صخب الريح والحديقة، كان الكونت يعصرها بين ذراعيه. وبالكاد وقَفَتْ على قدميها من الاشمئزاز وهي تغلق عينيها، وفمها وأنفها. وكانت هناك حتى لحظةٍ كادت فيها تُفْلِتُ من أحضانه وتركض إلى البحيرة لتغرق نفسها فيها. كانت هناك لحظاتٌ عندما مزَّقَتْ شعرها على رأسها، وأجهشت بالبكاء. ليس من السهل أن يبيع الإنسان نفسه.

عندما غادرتُ المنزل وتوجَّهتُ إلى الإسطبل، حيث كانت تقف فيه فرسي زوركا، كان عليَّ المرور من منزل المدير. ألقيتُ نظرةً على النافذة. كان إيجور بتروفيتش يجلس على الطاولة في ضوءٍ خافتٍ من مصباحٍ ويدخّن بكثافة. لم أرَ وجهه. كان مغطّىً بيديه. ولكن في كل قامَتِه السميكة الخرقاء، تبدَّى الكثير من الحزن، والترقب، واليأس لدرجة أنه لم يكن من الضروري رؤية وجهه من أجل فهم حالته النفسية. انتصبت أمامه زجاجتان. واحدة فارغة والأخرى بدأ ملْأَها للتوّ. كانت كلاهما فودكا. كان المسكين يبحث عن السلام ليس في نفسه، ولا في الناس، ولكن في الكحول.

بعد خمس دقائق كنت أغذُّ السير بحصاني إلى منزلي. كانت الظلمة حولي مروعة. والبحيرة تهتاج غضباً، وخُيّلَ لي أنها غضبت عليَّ لأنني آثمٌ أيضاً، حيث غدوتُ الآن شاهداً على قضية آثمة، وتجرَّأْتُ على انتهاك هدوئها القاسي. ولم أرَ البحيرة في الظلمة الحالكة. وخُيّلَ لي أن وحشاً غير مرئيّ كان يهدر، وزأر الظلام نفسه الذي كان يلُفُّني.

أوقفتُ زوركا، وأغمضتُ عيني، وفكَّرْتُ في ذاتي، على خلفيّة هدير الوحش.

ـ ماذا لو انقلبتُ راجعاً الآن، وقُمْتُ بالقضاء عليهما؟

جاشت ضغينةٌ مروّعةٌ في نفسي، إنَّ كلَّ القليل الذي بقيَ لديَّ

من المناقب الحسنة والنزاهة بعد فسادٍ طويلٍ مدى العمر، وكل ما سَلِمَ في روحي من التعفُّن والانحلال، مما صُنْتُهُ، وعلَّلْتُ النَّفْسَ به، وما افتَخَرْتُ به، كان قد أُهينَ، وهُتِكَ، وتلوَّثَتْ سُمْعَتُه.

لقد عرفتُ سابقاً نساءً مأجورات، اشتريتُهُنّ، وقُمْتُ بدراسَتِهن. لم تكن تلك النساء متورّدات الوجوه، وليس لهن العيون الزرقاء البريئة الصادقة، التي رأيتُها في صباح مايو (آيار) ذاك، حينما كنت أغذُّ السَّيْر في الغابة إلى المعرض في تينيف.. أنا شخصيّاً معطوبٌ حتى النخاع، صفحتُ عن الفساد والانحلال وتساهلتُ معه، وتسامحتُ معه حتى الضعف. كنتُ على قناعةٍ أنه لا يمكنك أن تطلب من القاذورات ألا تكون قذرةً، ولا يمكنك إلقاء اللوم على قِطَعِ النقود الذهبية التي تسقط في الوَحْل بفعل الظروف؛ لكن لم أكن أعرف من قبل، أن قطعة النقود الذهبية يمكن أن تذوب في القذارة وتختلط بها في كتلةٍ واحدةٍ. إذن، الذهب أيضاً قابلٌ للذوبان!

انتَزَعَتْ الريح القوية قبَّعَتي، وأَخَذَتْها في الظُّلْمَة المحيطة. ضرَبَتْ القبّعة، التي طارت مع الريح، بحركةٍ خاطفةٍ وجْهَ زوركا. جفلت الفرس، وشبَّت، وراحت تعدو في طريقٍ مألوف.

بعد أن وصلتُ لمنزلي سقطتُ منهاراً في الفراش. ومن دون سببٍ أرسلتُ بوليكارب للشيطان، لأنه اقترح عليَّ أن أخلع ملابسي. وغمغم بوليكارب، وهو يبتعد عن السرير:

ـ أنت شيطان

قفزتُ من السرير:

ـ ما قلت؟

ـ اسمع بانتباه، لن أكرر ما أقول.

اعترَتْني قشعريرةٌ:

ـ ها.. علاوة على ذلك تتجرّأ على مخاطبتي بوقاحة!

ورُحْتُ أصُبُّ كلَّ ضجري وسوداويَّتي على الخادم:

ـ اخرج من هنا، كي لا تكون هناك روحك، وغدا! اغرُبْ عن وجهي.

وقبل أن أنتظر خروج الرجل من الغرفة، سقطتُ في الفراش وأجهشتُ بالبكاء مثل صبيّ. لم تتحمَّل أعصابي المتوترة. الضغينة والمشاعر المهانة، والغيرة.. ينبغي أن تنسكب بهذه الطريقة أم تلك.

ـ الزوج قتَلَ زوجَتَه.. ردَّدَ ببّغائي صارخاً، وهو ينفش ريشَهُ الناعم.

وبتأثير هذا الصراخ لمَعَتْ في خاطري فكرةٌ، أن أوربينين يمكن أن يقتل زوجته.

رأيت وأنا أستغرق في النوم عملية قتل. كان الكابوس خانقاً،

معذّباً.. خُيّلَ لي، أن يدي مسّدَتْ شيئاً ما بارداً وما إن أفتح عيوني فقط، حتى أرى جثّةً.. وومض لي، أوربينين يقف عند طرف السرير من ناحية الرأس وينظر لي بعيونٍ ضارعةٍ.

ساد الهدوء بعد الليلة الموصوفة.

لبثتُ في المنزل، سامحاً لنفسي بالذهاب والمجيء فقط بما يتعلّق بالوظيفة. تراكم لديَّ عددٌ ضخمٌ من القضايا، لذلك ليس بوسعي أن أشعر بالملل. جلستُ منذ الصباح الباكر إلى المساء إلى الطاولة، وكتبتُ بمثابرة أو استجوَبْتُ الناس الذين وقعوا في براثن التحقيق الذي أقوم به. لم يُلِمَّ بي الشوق للذهاب إلى ضيعة الكونت. ولم أعد أبالي بأولغا ويئِسْتُ منها. ما سقَطَ من العربة، ذهب أدراج الرياح، وكانت هي بالذات ما سقط من عربتي، وكما أعتقدُ تفقَّدْتُها من دون رجعة. لم أفكّر بها، ولم أرغب بالتفكير بها.

«فاجرة دنيئة، حمقاء» كنت أستخِفُّ بها كل مرةٍ عندما تظهر في مخيّلَتي أثناء أشغالي المجهِدَة. عندما أنام أو أستيقظ نادراً ما تَرِدُ على ذاكرتي مختلف اللحظات من تعارُفي مع أولغا وحياتي القصيرة معها، تذكَّرْتُ: جبل القبر الحجري، والمنزل في الغابة، حيث عاشت «الفتاة بالأحمر»، والطريق إلى تينيف، واللقاء في الكهف.. ويطفق قلبي حينها بالخفقان بقوة. الآن أنظر لها كما لو أنني أنظر إلى خدعة بصرية، إنها فِرْيَة، ورياء.. وفقَدَتْ في عيوني نصْفَ فتنتها.

أمسيتُ أمْقُتُ الكونت تماماً. كنت سعيداً لأنني لم أرَه، وكنت دائماً ما أغضب عندما يظهر في مخيّلتي بوجلٍ بوجْهِهِ ذي الشارب الكثيف. في كل يوم كان يرسل لي رسائل يتوسَّل فيها إليَّ عدم الاكتئاب وزيارة «مَنْ لم يَعُدْ ناسكاً منفرِداً». إن طاعة رسائله تعني القيام بشيءٍ كريهٍ لنفسي.

ـ انتهى! ـ فكَّرْتُ في دخيلة نفسي ـ والحمد للرب... لقد غدى الوضْعُ مُضْجِراً.

قررتُ أن أقطع العلاقات بالكونت، وهذا التصميم لم يكلِّفْني أدنى جهد. الآن لم أعُدْ على ما كنت عليه منذ حوالي ثلاثة أسابيع، عندما، بعد شِجارٍ حول بشيخوتسكي، بالكاد جلستُ في المنزل. لم تَعُدْ ثمة مغريات.

بعد الجلوس يائساً في المنزل، شعرتُ بالملل وكتبتُ رسالةً إلى الدكتور بافيل إيفانوفيتش، طلبتُ منه الحضور للدردشة. لسببٍ ما، لم أتلقَّ ردّاً على الرسالة، وأرسلتُ رسالةً أخرى. الردّ على الثانية، كان نفس الجواب على الأولى..! من الواضح أن «شور» الوديع تظاهَرَ بأنه غاضبٌ.. المسكين، بعد أن تلقّى رفضاً من ناديا كالينينا، اعتبرني سببَ تعاسَتِه. كان له الحق في أن يغضب، ولم يغضب من قبل أبداً، لأنه لم يكن يعرف كيف يقوم بذلك. واستغربتُ أنا، من عدم الردّ على رسائلي.

ـ متى أفلح في تعلُّم ذلك؟

زارني الكونت في الأسبوع الثالث من مكوثي العنيد. بعد أن وبَّخَني لأنني لم أذهب إليه ولم أُجِب على رسائله، استلقى على الأريكة وقبل أن يغطّ في الشخير تحدث عن النساء: موضوعه الأثير.

قال وهو يحدِّق فيَّ بعينيه الناعستين ويضع يديه تحت رأسه:

ـ أنا أفهم أنت حسّاسٌ ورقيقٌ. أعرف أنك لا تأتي إليَّ خوفاً من أن تنتهك الثنائي الذي نُشَكِّلُهُ أنا وأولغا.. ربما ستزعجنا.. الضيف في الوقت غير المناسب كما يُقال في المثل الروسي «أسوأ من تَتَري»، ولكن الضيف في شهر العسل أسوأ من الشيطان ذي القرون. أفهمُك. لكن يا صديقي، لا تنسَ أنك صديق، ولست ضيفاً، وأنك محبوبٌ ومحترم.. نعم، بحضورك لن تضيف سوى الانسجام.. أنت يا أخي الانسجام بعينه! يا لَهُ من انسجام لا يمكنني وصْفُهُ لك!

سحب الكونت يده من تحت رأسه ولوَّحَ بها.

ـ عن نفسي لا أفهم ما إذا كان العيْش معها بالنسبة لي جيداً أم رديئاً. حتى ليس بوسع الشيطان أن يدرك ذلك! هناك بالفعل لحظاتٌ مستعدٌ أن أدفع نصف حياتي من أجلها، ولكن هناك أيام تقطع فيها الغرفة من زاوية إلى أخرى، مثل ممسوسٍ، وأنت على استعدادٍ لتجهش بالبكاء عالياً.

ـ لأي غرضٍ إذن؟

ـ أنا لا أفهم يا أخي، هذه أولغا. إنها ضَرْبٌ من الحُمّى، وليست امرأة.. في الحُمّى، مرةً سخونة، ومرةً قشعريرة، وعلى هذا الشكل تتغير خمس مرات في اليوم. مرةً تكون مرِحَة، وأخرى تشعر بالضجر، وتبتلع الدموع وتصلّي.. مرةً تحبني، وأخرى تكرهني.. هناك أوقات تداعبني فيها، كما لم تداعبني أيّ امرأة حتى الآن. ولكن هذا يحدث أيضاً. تستيقظ عن غير قصد، تفتح عينيك وترى وجهاً متوجّهاً نحوك.. إنه ضَرْبٌ من الفظاعة والوحشية.. إن هذا الوجه منحرف، وجه غاضب ومثير للاشمئزاز.. عندما ترى هذا الضرب من الأشياء، يختفي كل السِّحر فيها.. وغالباً ما تنظر إليَّ هكذا...!

ـ باشمئزاز؟

ـ حسنًا، نعم! أنا لا أفهم بأيّ شكلٍ من الأشكال.. لقد توافَقَتْ معي، كما تؤكد، من أجل الحب فقط، ولكن في هذه الأثناء لا تمر ليلةٌ من دون أن أرى مثل هذا الوجه. كيف يمكن تفسير ذلك؟ يبدو لي، وهذا بالطبع ما لا أريد أن أصدِّقَهُ، إنها لا تستطيع أن تتحمّلني، لكنها أعطت نفسها لي فقط بسبب الخِرَق التي اشتريتُها لها حتى الآن. تحب الخِرَق بشكلٍ فظيع! يمكنها الوقوف أمام المرآة في الثوب الجديد، من الصباح إلى المساء. وهي مستعدة للبكاء ليلاً ونهاراً بسبب تَلَف حاشية ثوب.. تتململ بصورة رهيبة! أكثر ما

يعجبها فيَّ هو أنني كونت. لو لم أكن كونتاً لما كانت ستحبُّني. لا يمر غداء واحد أو عشاء واحد، لم توبّخني فيه وهي تذرف الدموع، لأنني لا أحيط نفسي بمجتمع أرستقراطي. هي، كما ترى، تود أن تسود في هذا المجتمع.. غريبة!

صوَّب الكونت عينيه الغائمة إلى السقف وأمعن في التفكير. لاحظت، لدهشتي الكبيرة، أنه في هذه المرة كان على غير العادة صاحياً تماماً. لقد أدهشني ذلك بل وأثَّرَ فيّ.

قلت له:

ـ وأنت اليوم طبيعي، ولست مخموراً، ولا تطلب الفودكا. ماذا يعني هذا الحلم؟

ـ نعم هو هكذا! لم يكن هناك وقتٌ للشرب، كنت أفكّر طوال الوقت.. لا بُدَّ لي من القول، يا سيريوجا أنا مولَعٌ بحق، إنها ليست مزحة. أعجبَتْني بشكلٍ مريع. نعم، وهذا مفهوم.. إنها امرأة نادرة ورائعة، ناهيك عن مظهرها. عقليّتها عادية، ولكن كم هي مفعمة بالمشاعر، والرشاقة، والنضارة! ومن المستحيل مقارنتها مع نسائي العاديّات: أماليا، وأنجليكا وحتى غروشا، التي أحبّها حتى الآن. إنها من عالم آخر، عالم غير مألوف بالنسبة لي.

وقلتُ ضاحكاً:

ـ تتفلسف

ـ لقد ولعْتُ بها، كما لو أنني وقعتُ في شراك الحب! ولكن الآن أرى أنه من دون جدوى أحاول تربيع الصفر. لقد كان قناعاً أثار في داخلي قلقاً كاذباً. اتَّضَحَ أن البراءة المشرقة الوردية، كانت قُبْلَةَ حُبّ متجهِّمَة انحصرت في طلبها شراء فستان جديد.. أخذتُها إلى المنزل كزوجة، وهي تتصرَّف كعشيقة يُدفع لها المال. ولكن الآن كفى! أكبح القلق في روحي، وأبدأ في رؤية أولغا كعشيقة.. انتهى الأمر!

ـ حسناً؟ وكيف حال زوجها؟

ـ زوجها؟ وما رأيك؟ ما الذي حصل له؟

ـ أعتقد أنه ليس هناك رجل أكثر تعاسة منه، والتخيُّل الآن صعب.

ـ تعتقد؟ عبثاً.. هذا وغدٌ ومحتال، لا آسَفُ عليه على الإطلاق. إن المحتال والماكر لا يمكن أن يكون سعيداً أبداً، وسيجد دائماً له مَخرَج.

ـ لماذا تُوَبِّخُه هكذا؟

ـ إنه مارقٌ. أنت تعرف أنني احترمْتُهُ، ووثقتُ به كصديق.. أنا بل وأنت، الجميع اعتبروه صادقاً، ولائقاً وغير قادر على الخداع. في هذه الأثناء، سرقني، ونَهَبَني! باستخدام منصبه كمدير، تصرَّفَ بممتلكاتي كما أراد. لم يسرق مني فقط ما لا يمكن زحزحتُهُ من مكانه.

أنا، الذي عرف أوربينين كشخصٍ على أعلى درجة من الصدق وغير طمّاع، عندما سمعت كلمات الكونت، قفزت مثل الملدوغ، واقتربتُ من الكونت متسائلاً:

ـ هل قبضتَ عليه وهو يسرق؟

ـ كلا، لكنني أعرف حِيَل اللصوص من مصادر موثوقة.

ـ اسمح لي أن أعرف أيّ مصادر هذه؟

ـ لا تقلق لن أتَّهِمَ الرجل عبثاً. أخبرتني أولغا كل شيء عنه. قبل أن تصبح زوجته رأت بأمّ عينيها، كيف أرسل عربات الدجاج والإوز لبيعها في المدينة. رأت أكثر من مرة، كيف أرسل ممتلكاتي من الإوزّ والدجاج كهدية لبعض المحسنين الذين استضافوا ابنه، طالب المدرسة المتوسطة. علاوةً على ذلك، رأت كيف أرسل الطحين والدخن والشحم إلى هناك. افترض أن كل هذه توافه، لكن هل هذه التوافه من ممتلكاته؟ المسألة ليست بقيمتها النقدية، ولكن من حيث المبدأ لقد انتَهَكَ المبدأ! ثم يا سيدي، رأت أولغا حزمةً من الأوراق المالية في خزانته. عندما سألَتْهُ لمن تكون النقود ومن أين حصل عليها، طلب منها عدم إفشاء أن لديه مالاً. عزيزي، أنت تعرف أنه عارٍ مثل الصقر! راتبه بالكاد يكفي للطعام؛ اشرح لي من أين حصل على هذا المال.

صرختُ ساخطاً من أعماق قلبي:

ـ وأنت الغبي، تثق بكلام هذه الشنيعة الصغيرة؟ لم يكْفِها أن تهرب منه فقط، بل تُشَوِّه سمْعَتَهُ في جميع أنحاء المقاطعة. كان من الضروري لها أن تغدر به! صغيرة على هذا النحو، وحجمها غير كبير، ولكن كم من الرجس يكمن فيها! دجاج وإوزٌّ ودخن، إن مشاعرك السياسية ـ الاقتصادية وغباؤك في الأمور الزراعية مهانة، لأن أوربين أرسل بمناسبة العيد طيرة هالكة ستأكلها الثعالب وبنات العرس إذا لم يتم ذبحها، أو التبرع بها، هل راجعت تلك التقارير الضخمة، التي يعطيك إيّاها أوربينين؟ هل أحصيت الآلاف وعشرات الآلاف؟ لا بالطبع! كيف يمكنني أن أتحدث معك؟ أنت غبي وحيوانيّ. ستكون سعيداً بِزَجِّ زوج عشيقتك بالسجن، لكنك لا تعرف كيف!

ـ إنَّ علاقتي مع أولغا لا علاقة لها بهذا. زوجها أو ليس زوجها، لكن بما أنه سرق، يجب أن أسميه علناً لصّاً. ولكن لنترك الغِشّ جانباً. قل لي بصراحة؛ هل من النزاهة أن يتقاضى راتباً، ويستلقي أياماً بطولها من دون أن يفيق من السُّكر؟ إنه يشرب كل يوم! لم يمرّ يومٌ لم أرَهُ فيه يخطئ في كتابة كلمة الأفكار! إنه انحطاط وشناعة، إنَّ الرجال المحترمين لا يقومون بأعمالهم على هذا النحو.

قلت له:

ـ إنه يشرب لأنه رجل مستقيم.

ـ لديك هوىً للدفاع عن مثل هؤلاء السادة. لكنني قررتُ أن أكون بلا رحمة. واليوم أرسلتُ له الحساب، وطلبتُ منه إخلاء المكان لمديرٍ آخر. لقد نفد صبري.

وجدتُ من غير المجدي إقناع الكونت بأنه كان غير عادلٍ وغير عمليٍّ وبليد. فليس من الصواب الدفاع عن أوبينين أمام الكونت.

بعد خمسة أيام، سمعت أن أوربينين، انتقل مع ابنه طالب المدرسة المتوسطة وابنته، للعيش في المدينة. وأخبروني أنه سافر إلى المدينة وهو في حالة سُكْر، ونصف ميت، وأنه سقط من العربة مرتين. وأجهش ساشا تلميذ المدرسة، طوال الطريق بالبكاء.

بعد أيام قليلة من رحيل أوربينين، وعلى الرغم من إرادتي، اتفق أن زُرْتُ ضيعة الكونت. حيث قام اللصوص بكسر أحد إسطبلات الكونت، وسرقوا منها عدة سروج باهظة الثمن. وأبلغوا المحقق القضائي، أي أنا بالقضية، وكان عليَّ أن أذهب أريد أم لا أريد.

وجدتُ الكونت في حالة سُكْرٍ وغضبٍ. كان يتجوَّل في جميع الغرف، ويبحث من شدة الكآبة، عن مكانٍ له ولم يجِدْهُ.

قال وهو يلوِّح بيده:

ـ لقد تعذَّبْتُ مع أولغا هذه، كانت في الصباح غاضبةً مني، وهددت بالانتحار غرقاً، وبارحت المنزل، والآن، كما ترى، إنها

ما زالت غائبة. أعلم أنها لن تنتحر غرقاً، لكن مع ذلك هناك شعور بشيء. كانت أمس، ضجرةً طوال اليوم وقامت بكسْر الأطباق، وفي اليوم الثالث أكلت الكثير من الشوكولاتة. الشيطان وحده يعرف أيّ طبعٍ هذا!

قمتُ بتهدئة الكونت قدر استطاعتي، وجلستُ معه لتناول العشاء.

وتمتم طوال العشاء:

ـ لا، لقد حان الوقت للتخلُّص من هذه الصبيانية، حان الوقت، وإلا ستكون حماقة ومهزلة. وإلى جانب ذلك، يجب أن أعترف أنها بدأت بالفعل في إزعاجي بتقلُّباتها المفاجئة. أريد شيئاً هادئاً وثابتاً ومتواضعاً، مثل ناديا كالينينا، كما تعلم، إنها فتاة رائعة!

بعد الغداء، التقيتُ أثناء تنزُّهي في الحديقة، بـ«المرأة المنتحرة غرقاً». عند رؤيتي، احمرَّت خجلاً بشكلٍ رهيبٍ وضحِكَتْ بسعادة ــ امرأة غريبة. اختلط الخجل على وجهها بالفرح والحزن والسعادة. استرقت النظر إليَّ، وجَرَتْ نحوي دون أن تنبُسَ بكلمة، تعلَّقَتْ برقبتي.

همستْ في أذني وهي تضغط على رقبتي:

ـ أنا أحبك، أفتقدك كثيراً لدرجة أنك لو لم تأتِ، كنت سأموت.

عانقتُها وقُدْتُها بصمتٍ إلى العريشة. بعد عشر دقائق، افترقنا، وأخذْتُ ورقةً ماليةً من جيبي وسلَّمَتُها لها. اتَّسَعَتْ عيناها.

ـ لماذا هذا؟

ـ أدفع لكِ مقابل حُبّ اليوم.

لم تفهم أولغا واستمرَّتْ في النظر لي بدهشة.

شرحتُ لها:

ـ هناك نساء يحببن المال. اللواتي يحببن الرجال من أجل المال. إنهن فاسدات. ينبغي دفع نقودٍ لهن. خذيها! إذا كنت تأخذين النقود من الآخرين، فلماذا لا تُريدين أن تأخذيها مني؟ لا أريد فضلاً من أحد!

مهما كنتُ وقِحاً، وأنا أُنْزِل هذه الإهانة بها، بيْدَ أن أولغا لم تفهمني. لم تعرف الحياة بعد، ولم تفهم ما تعنيه المرأة «الفاسدة».

كان يوماً جيداً في أغسطس. كانت الشمس ترسل دفئاً صيفياً، والسماء الزرقاء تدعو بلطف إلى الأماكن البعيدة، لكن مقدمة الخريف كانت تشعّ في الهواء. ففي أوراق شجر الغابات المتأملة، غدت الأوراق التي عفا عليها الزمن ذهبيةَ اللون، ونظرتُ إلى الحقول المظلِمَة بكآبة وحزن.

وكانت تكمن في دواخلنا أيضاً إرهاصات بحتميَّة أن الخريف

سيكون صعباً علينا. وكان من السهل التنبؤ بأن الخاتمة باتت قريبةً. فلا بُدَّ من أن ينقضّ الرعد، ويطفر المطر في يوم من الأيام، لإنعاش الأجواء الخانقة! عندما تقترب الغيوم المظلمة، والرصاصية في السماء عشيَّةَ العاصفة الرعدية، تكون الأجواء خانقة، والاختناق الأخلاقي استقرَّ فينا. لقد تجلَّى ذلك في كل شيء: في حركاتنا، وفي الابتسامات، والخُطَب.

كنت أركب في عربة خفيفة. وجلَسَتْ بالقرب مني ناديا بنت قاضي الصلح. كانت شاحبةً كالثلج، وجفل ذقنُها وشفتاها كما لو كانت على أهبّة البكاء، وعيناها العميقتان مفعمتان بالحزن، لكنها في الوقت نفسه ضحِكَتْ طوال الطريق، وتظاهرت بأنها مبتهجةٌ للغاية.

تحركت أمامنا وخلفنا أطقم من جميع السلالات العائلية والأزمان والعيارات. وعلى الجانبين كان الفرسان والفتيات يعدون ببذلات الفروسية. وكان الكونت كارنيف، الذي ارتدى بذلة صيد خضراء، تبدو وكأنها بذلة مهرِّج أكثر منها بذلة صيد، تأرجح تارةً إلى الأمام وأخرى إلى الجانب، وهو ينطّ بلا شفقة على فرسه الأسود. وعندما ينظر المرء إلى جسده المنحني وتعبير الألم، الذي يومض بين الحين والآخر على وجهه المخمور، يعتقد أنه يمتطي فرساً لأول مرة في حياته. وتدلَّت على ظهره بندقية جديدة ذات ماسورة مزدوجة، وعلَّقَ على جانبه حقيبة تقلّب فيها طير كراكي كان قد أصابه بإطلاق النار عليه.

وكانت أولغا أوربيننا زينة الركب، تمتطي حصاناً أسود تبرَّع الكونت به لها في وقت سابق، وترتدي بذلة فروسية سوداء، وريشة بيضاء على قبعتها، لم تعد تبدو مثل تلك «الفتاة بالأحمر» التي قابلتُها في الغابة قبل بضعة أشهر. الآن، يظهر في شخصيّتها شيءٌ مهيبٌ، «أبَّهة السيدة». كان كل تلويحٍ لها بالسَّوْط، وكل ابتسامة منها، محسوباً على الأرستقراطية، على الظهور كمهيبة. كان في حركاتها وابتسامتها، شيء استفزازيّ ومتحمس. رفعَتْ رأسَها بغطرسة، ورمَتْ من على صهوة حصانها نظرات ازدراء على المجتمع بأسْرِه، كما لو أنها لم تهتمّ بالملاحظات المدوّيَة، التي بعثت بها لها سيّداتنا الطيبات. إنها تظاهرت بالشجاعة وتغنجت بوقاحة بوضعها كـ«محسوبة الكونت»، كما لو أنها لم تكن تعرف بأن الكونت ملَّ منها، وأنه بات ينتظر في كل دقيقةٍ فرصةً للتخلُّص منها.

عندما خرج ركب الصيد من البوابة قالت لي وهي تضحك بصوتٍ عالٍ:

ـ إنَّ الكونت يريد أن يطردني.

إذن كانت تدرك وضْعَها، وفهِمَتْهُ...

ولكن لماذا هذا الضحك؟ نظرتُ لها واستغربْتُ: ما مصدر نشاط وحيوية فتاة الغابة ضيقة الأفق هذه؟ متى تمكنت من

أن تتعلم التمايُل والتبختر برشاقة على سرج الفرس، وتتغندر بحركاتٍ آمِرَة؟

قال لي الدكتور بافل إيفانيتش؛ إنها امرأة فاحشة. يا لَهُا من خنزير، عندما يطلبون منها الجلوس إلى المائدة، تضع قدمها على المائدة...

إن هذا التفسير مبسَّطٌ للغاية. ليس بميسور أحد أن يكون أكثر مني محاباةً وتحيُّزاً لأولغا، كما أنني كنت أول المستعدين لإدانتها، بيْدَ أن صوت الحقيقة الغامض والمبهم يهمس لي أنَّ هذا لم يكن نشاطاً وحيويةً، ولا مباهاة امرأة متخمة، أو سعيدة، وإنما الشعور باليأس والقنوط، وهاجس اقتراب النهاية التي لا مفرّ منها.

قفَلْنا عائدين من الصيد الذي ذهبنا له منذ الصباح الباكر. مُنِيَ الصيّد بالفشل. صادفنا قُرْب المستنقع، الذي عقدنا عليه آمالاً كبيرةً، مجموعة صيّادين، أخبرونا أن الطيور خائفة واختفت. تمكنّا من أن نرسل للعالم الآخر طائر شنقب وفرخي بطة.. هذا كل ما كان من نصيب عشرة صيادين. وفي نهاية المطاف شعرت إحدى الفتيات بألم في أسنانها، وكان علينا أن نسرع بالعودة. عُدْنا بطريق رائعة من خلال الحقل، الذي انتشرت عليه حزم الشوفان الصفراء الذي تم حصاده على خلفية غابات كالحة وعابسة، وتراءت كنيسة الكونت والمنزل في الأفق بلون أبيض. وعلى يمينها ترامَى سطح البحيرة لمّاعاً وصقيلاً، وكان على اليسار جبل القبر الحجري مكفهرّاً.

همست نادينكا بأذني في كل مرةٍ سارت أولغا بجوار عربتنا:

ـ يا لَها من امرأة رهيبة! يا لَها من شخصٍ فظيع! إنها شريرة كما هي جميلة... لم يمضِ إلا القليل من الزمن منذ أن كنتم وكيلاً لعريسها في حفل زواجها، وحتى لم تستهلك منذ ذلك الحين بعدُ حذائها، وانظروا لها الآن كيف تسير في حريرٍ ليس لها، وتتفاخر بماسات الغرباء، لا أستطيع حتى أن أصدق هذا التحول الغريب والسريع! واذا كانت لديها بالفعل هذه الغرائز، فلتكن على الأقل لبِقَة، وتنتظر سنة أو سنتين.

تنهدتُ أنا وقلت:

ـ إنها تعيش على عجل، ليس هناك وقتٌ للانتظار!

ـ هل تعرفون كيف يعيش زوجها؟

ـ يقولون إنه أدمن الخمر.

ـ نعم، أمضى والدي ثلاثة أيام في المدينة، وشاهده على متن عربة قادماً من مكانٍ ما. وكان رأسه قد تدلّى إلى جانب، ومن دون طاقية، وله وجهٌ متَّسِخ؛ لقد هلك الرجل! يقولون إنه فقير بشكل فظيع: لا يوجد لديه ثمن ما يأكله، ولم يدفع ثمن الشقة التي استأجرها. وتجلس الفتاة المسكينة ساشا طوال اليوم من دون أن تتناول الطعام. ووصف أبي كل هذا للكونت، لكنكم تعرفون

الكونت! إنه صادق، ووديع، لكنه لا يحب التفكير والمناقشة. قال: «سأرسل له مئة روبل». وفعلاً أرسل له النقود، أعتقد أنه بهذا الشكل أهان أوربينين أكثر، كيف يمكنه إرسال نقود له! سيشعر بالإهانة من صَدَقة الكونت هذه، وسيشرب أكثر.

قلت لها:

ـ نعم، الكونت غبيّ. كان يمكنه أن يرسل هذه النقود من خلالي وباسمي.

ـ لم يكن لديه الحق في أن يرسل له النقود! هل يحق لي مثلاً أن أطعمكم، إذا كنت أقوم بخنقكم، وأنتم تكرهونني؟

ـ إنها حقيقة.

لُذْنا بالصمت وغرقنا في التفكير، كان التفكير في مصير أوربينين صعباً دائماً بالنسبة لي، والآن، عندما كانت امرأته التي أهلكته تقفز على فرسها أمام عيني، أثارت هذا الفكرة سلسلة كاملة من الأفكار الثقيلة في داخلي: ماذا سيحدث له ولأولاده؟ وكيف في نهاية المطاف ستكون نهايتها؟ وهل سيُنهي هذا الكونت الضئيل والبائس حياته في مستنقع أخلاقي؟

بالقرب مني جلست ناديا، المخلوق الوحيد اللائق والجدير بالاحترام. كنت أعرف شخصين فقط في مقاطعتنا، كان لديَّ القدرة

على حبهم واحترامهم، الوحيدان اللذان كان لأحدهما الحق في أن يشيح بوجهه عني، لأنه أسمَى منّي. كان هذان الشخصان هما ناديجدا كالينينا والدكتور بافيل إيفانوفيتش، ماذا ينتظرهما؟

قلت لها:

ـ ناديجدا نيكولايفنا! من دون رغبتي، ألحقت بكُمْ الكثير من الأذى، ولديَّ الحق أقلّ من أي شخص آخر في الرهان على صراحتكم. ولكن، أقسم لكم، لن يفهمكم أحد كما أفهمكم. حزنكم هو حزني، وسعادتكم هي سعادتي. إذا سألتكم سؤالاً الآن، فلا تشكّون في أنه فضول فارغ. قولوا لي يا عزيزتي لماذا تسمحون لهذا الكونت القزم بالاقتراب منكم؟ ما الذي يمنعكم من طرده عنكم، وعدم الاستماع إلى مجاملاته الحقيرة؟ بعد كل شيء، إن اهتمامه وعنايته لا تُضْفي الشرف على امرأة لائقة مثلكم! لماذا تعطون مبرراً لهذه التصرفات ليضع النمّامون اسمكم بجانب اسمه؟

رمقتني ناديا بعيونها الصافية، وكأنها قرأت الصدق على وجهي، وابتسمت بمرحٍ، وسألتني:

ـ ماذا يقولون؟

ـ يقولون إن والدكم وأنتم تُحاوِلون صيْدَ الكونت، وإن الكونت في نهاية المطاف سيقع في شراككم.

تورَّدَتْ نادينكا واهتاجت:

ـ إنهم لا يعرفون الكونت، لذلك يتحدثون عنه بهذا الشكل! نمّامون بلا حياء! إنهم اعتادوا رؤية الدناءة وحدها فقط في الناس؛ إن الحسن والجميل والخير صعب المنال عليهم!

ـ وهل وجدتم أنتم فيه الحسن والجمال والخير؟

ـ بلى، وجدتُه! ينبغي أن تكونوا أول من يعرف، لو لم أكن واثقةً في الإنسان، في نواياه الصادقة، لن أدَعْهُ يدخل في وجداني، ولو لم أكن واثقةً في صدق ونزاهة نواياه!

كنتُ مندهشاً:

ـ إذن وصلت الأمور إلى «النوايا النزيهة».. قريباً.. ولماذا كانت نواياه الصادقة ضرورية لكم؟

سألت، وقد تألَّقَت عيناها:

ـ أتريدون أن تعرفوا؟ إن النمّامين لم يكذبوا: أنا أريد الزواج منه! لا ترسموا علامة التعجب على وجهكم، ولا تبتسموا! ستقولون إن الزواج من دون حب فعلٌ غير نزيه وما إلى ذلك، وهو ما قيلَ بالفعل ألف مرة، ولكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ من الصعب جداً أن تشعر وكأنك أثاثٌ إضافيٌّ في هذا العالم. إنه لأمرٌ رهيبٌ أن تعيش دون معرفة الهدف. عندما يجعلني هذا الرجل، الذي لا تحبونه

كثيراً، زوجته، سيكون لديَّ بالفعل مهمة في الحياة، سأصلحه، وسأجعله يكف عن الإدمان على المخدرات، سأُعلّمه العمل.. ألقوا نظرةً عليه! الآن لا يبدو كرجل، وسأجعله رجلاً.

قلت:

ـ وهكذا دواليك. سوف تحافظون على ثروته الهائلة، ستقومون بالأعمال الخيّرة.. ستبارككم المقاطعة بأسْرِها، وسيرون فيكم ملاكاً أُرْسِلَ لتعزية التعساء.. ستكونون أمّاً وتربّون أطفاله.. نعم، مهمة عظيمة! أنتم فتاة ذكية، لكنكم تناقشون مثل تلميذةٍ متوسطةٍ!

ـ دعْ فكرتي.. لا قيمة لها، فلتكن مضحِكَةً وساذجةً لكنني أعيش بها.. تحت تأثيرها أصبحتُ أكثر صحةً ومرحاً.. لا تُخَيّبوا ظنّي! دعوني أشعر بخيبة أمل، ولكن ليس الآن، بل في يومٍ من الأيام.. لاحقاً، في المستقبل البعيد.. فلنترك هذه المحادثة!

ـ سؤالٌ آخر غير متواضع: هل تنتظرون طلب يدكم؟

ـ نعم.. طبقاً لرسالته التي تلقَّيْتُها منه اليوم، سيتقرر مصيري في المساء. اليوم.. كتب لي أن لديه شيئاً مهماً للغاية ليقوله لي.. تعتمد سعادة حياته على ردّي.

فقلت:

ـ شكراً على الصراحة.

كان معنى الرسالة التي تلقّتْها ناديا واضحاً بالنسبة لي. كانت الفتاة المسكينة تنتظر عرضاً دنيئاً.. وقرَّرْتُ أن أخلِّصَها منه.

قال الكونت، وهو يُساير عربَتْنا:

ـ لقد وصلنا إلى غابتنا. هل ترغبون، يا ناديجدا نيكولايفنا، أن نتوقف؟

وبدون انتظار إجابة، صفق بيديه وأمر بصوت عالٍ:

ـ توقّف!

أقمنا عند حافة الغابة. وكانت الشمس قد اختبأت وراء الأشجار، صابغةً باللون الذهبي الأرجواني قممَ أعلى أشجار الحور فقط، ولعِبَتْ على الصليب الذهبي لكنيسة الكونت التي كانت مرئيّةً من بعيد. وحلَّقَتْ فوق رؤوسنا طيور الباز والصفارية القلِقَة. وأطلق أحد الرجال النار فأثار مملكة الريش أكثر. وارتفع ضجيج حفلة الطيور. لهذا الحفل سِحْرُهُ في فصلَيْ الربيع والصيف، ولكن عندما يكون اقتراب الخريف البارد محسوساً في الهواء، فإنه يثير الأعصاب ويذكّرك بأن هجرة الطيور وشيكةٌ.

امتدَّتْ من الغابة نضارةُ المساء. وازرقَّت أنوف السيدات، وطفق الكونت المقرور يفرك يديه. وفي الوقت المناسب جداً، فاح السماور برائحة الاحتراق، ورنَّت أواني الشاي. وجلب

كوزما الأعور، وهو يلهث ويتعثر في العشب الطويل، صندوقاً من الكونياك. بدأنا نستمتع.

يثير المشي الطويل في الهواء النقي البارد، الشهيّةَ بشكلٍ أفضل من أيّ قطراتٍ طبّيةٍ لفتح الشهية. وبعدها، قدَّموا لنا سمكاً مقدداً، وكافيار، وحجلاً مقليّاً، ووجبات طعام أخرى تسر النظر مثل الورود في الصباح الباكر من الربيع.

قلت للكونت وأنا أتناول قطعةً من السمك المقدد:

ـ أنت اليوم ذكيٌّ. ذكيٌّ على نحوٍ لم تكن مثْلَهُ أبداً. من الصعب إعطاء أمرٍ أكثر ذكاءً من الأمر الذي أعطيته بشأن التوقف عند حافة الغابة.

قهقه كالينين، وهو يغمز بعينيه إلى الحوذيين الذين كانوا يحملون حقائب أمتعةً من العربات وأكياسَ المقبّلات والنبيذ والأطباق.

ـ إننا والكونت، أمرنا! ستكون حفلة رائعة، وعند النهاية ستكون الشمبانيا.

تألَّقَ وجه القاضي هذه المرة برضا لم يرتسم مثله عليه في أي وقتٍ مضى. هل فكَّرَ بأن الكونت سيطلب يد ناديا في ذلك المساء؟ أليست صناديق الشمبانيا هذه معدّةً لتهنئة الخطيبين الشابّين؟ كنت أحدّق بنظرٍ ثاقبٍ في وجهه، ولكن، كالمعتاد، لم

أقرأ عليه أي شيء باستثناء رضا لا مبالٍ، وتخمة، ووقاراً بليداً تدفَّقَ في كل شخصيّته الرزينة.

أقبلنا على المقبلات ببهجة. لم يُبالِ بالطعام الباذخ الذي كان أمامنا على السجّاد سوى اثنين: أولغا ونادينكا كالينين. الأولى وقفت على جانبٍ، واتّكأت بمرفقها على ظهر العربة، كانت ترنو بلا حراك وبِصَمْتٍ إلى حقيبة الصيد التي ألقى الكونت بها على الأرض. وكان طائر كراكي قد أصابه بطلقة نارية يتقلب في حقيبة الصيد تلك. تابَعَتْ أولغا حركة الطائر التعيس، وبدا أنها تترقّب موته.

جلست ناديا بجانبي وهي تحدّق في الأفواه التي تمضغ ببهجة.

وتساءلت عيناها المتعبتان:

ـ متى سينتهي كل هذا؟

عرضتُ عليها شطيرة كافيار. شكرتني ووضعَتْها جانباً. من الواضح أنه لم يكن لديها وقتٌ للطعام.

صاح الكونت بأولغا:

ـ أولغا نيكولايفنا! لماذا لا تجلسون؟

لم تَرُدّ أولغا، واستمرت في الوقوف من دون حراك، مثل تمثال، وهي ترنو إلى الطائر.

فقلت، وأنا أقترب من أولغا:

ـ أيُّ أناسٍ بلا قلب! يا ترى هل أنتم المرأة التي بميسورها أن تتأمل بلا مبالاةٍ في معاناة هذا الكراكي؟ من الأفضل أن تأمروا بالقضاء عليه، بدلاً من النظر إليه لتروا كيف يتضوَّر.

قالت أولغا، وهي لا تنظر إليّ وقد قطبت حاجبها:

ـ الآخرون يُعانون، دعْهُ يُعاني أيضاً.

ـ من يُعاني أيضاً؟

قالت بصوتٍ أجشّ:

ـ اتركني لشأني! أنا لستُ في مزاجٍ للتحدث معك اليوم، ولا معَ صديقك الكونت الأحمق! ابتعد عني حالاً!

نظرَتْ إليَّ بعيون مفعمة بالغضب والدموع. كان وجهها شاحباً، وارتجفت شفتاها.

قلتُ، وأنا أرفع حقيبة الصيد، وأُجْهِز على الكراكي:

ـ أيُّ تغيُّرٍ هذا! يا لها من نبرة! مندهش! مندهش تماماً!

ـ دعني وشأني، يقولون لك! ليس لديَّ وقتٌ للنّكات!

ـ ماذا بكِ يا عزيزتي؟

نظَرَتْ لي أولغا من الأعلى إلى الأسفل واستدارت، وقالت:

ـ يتحدّثون بنبرةٍ من هذا القبيل مع النساء الفاسدات والفاحشات. أنت تُفَكِّر بي بهذه الطريقة.. حسناً، اذهب إلى أولئك القديسات! أنا هنا الأسوأ والأكثر دناءة، عندما كنتَ تسير راكباً في العربة مع هذه ناديا الفاضلة، كنت تخشى النظر إليَّ.. حسناً، اذهب إليهن! لماذا تقف؟ اذهب!

فقلتُ وقد شعرتُ أن الغضب يستولي عليَّ تدريجياً:

ـ نعم، أنتِ هنا الأسوأ والأكثر دناءة على الإطلاق، نعم، أنتِ فاحشة وداعرة.

ـ نعم، أتذكر كيف عرضتَ عليَّ مالاً لعيناً.. حينها لم أفهم المعنى، الآن أفهم.

استولى الغضب على كياني كله. وكان هذا الغضب قويّاً مثل ذلك الحب الذي بدأ ينشأ في داخلي للفتاة بالأحمر.. نعم، وأيّاً كان، وأيّما حجر، كان سيبقى غير مبالٍ حيال وضْعِها الحالي؟ رأيتُ أمامي الآن جمالاً ألقى به القَدَرُ الظالم في الوحل. لا شفقة ولا شباب ولا جمال ولا رشاقة. الآن، عندما بدت لي هذه المرأة أجمل من أيّ وقتٍ مضى، شعرتُ أيّ خسارةٍ منيَتْ بها الطبيعة في وجهها، وملأ روحي غيظٌ مؤلمٌ من ظُلْم القَدَر في نظام الحياة.

لا أعرف في لحظات الغضب، كيف أضبط نفسي. لا أعرف ماذا كان سيتعيَّن على أولغا أن تسمع منّي لو أنها لم تبتعد عنّي، وقد أعطتني ظهرها. سارت بهدوءٍ نحو الأشجار وسرعان ما اختفت وراءها.. بدا لي أنها كانت تبكي.

سمعتُ خطاب كالينين:

ـ أيتها السيّدات والسادة المحترمون! في هذا اليوم، الذي اتّحَدْنا فيه جميعاً.. نحن جميعاً هنا مجتمعون من أجل أن نتَّحِد.. وكلنا على معرفةٍ ببعضنا البعض، ونبتهج جميعاً، ونحن مدينون بهذه الوحدة، التي كنا نرغب فيها منذ فترة طويلة، فقط لنجم مقاطعتنا المضيء،... أنتم، لكم أيها الكونت، لا تشعروا بالحرج.. السيدات تفهم ما أتحدث عنه... ـ ها. ها. ها!.. حسناً، سنستمر.. نظراً لأننا مدينون بكل هذا إلى مستنيرنا وشابّنا.. فتانا.. الكونت كارنيف، أقترح أن نشرب هذا النخب بصحّة.. ولكن أرى هناك شخصاً ما قادماً نحونا! من هذا؟

كانت عربة تتجه نحو حافة الغابة، حيث كنا نجلس، قادمة من جهة ضيعة الكونت.

اندهش الكونت، ووجَّهَ منظارَهُ إلى جهة العربة:

ـ من يمكن أن يكون هذا؟ م... غريب... ينبغي أن يكون مسافراً... آه، لا! أرى وجه كيتان كازيميروفيتش.. مع من هو؟

وبغتةً قفزَ الكونت، كالملدوغ.. غطّى شحوبٌ مُميتٌ وجهَهُ، وسقط المنظار من يديه. تراكضت عيناه، مثل عيون فأر تمَّ القبض عليه، وكما لو طلبت المساعدة، توقَّفَتْ تارةً عليَّ وتارةً على ناديا.. لم يكتشف الجميع إحراجَهُ، لأن انتباه الأغلبية كان قد تحوّل إلى العربة المقتربة.

همس الكونت، وأمسك بذراعي وسحبني جانباً:

ـ سيريوجا، تعالَ إلى هنا لدقيقة! عزيزي، أتوسّل إليك كصديق، كأفضل الناس.. لا تُلْقِ أسئلةً، ولا نظراتٍ متسائلة، ولا دهشةً ولا استغراباً! سأخبرك بكل شيء بعد ذلك! أقسم أنه لن تبقى ذرة واحدة سرّاً بالنسبة لك.. هذه مصيبة في حياتي، هذه مصيبة لا يمكنني حتى التعبير عنها لك! سوف تعرف كل شيء، والآن من دون أسئلة! ساعدني!

في هذه الأثناء كانت العربة تقترب أكثر فأكثر.. وأخيراً توقَّفَتْ، وعرفَتْ المنطقة بأسْرِها سِرَّ الكونت. خرج بشيخوتسكي من العربة، لاهثاً ومبتسماً، مرتدياً بذلةً جديدةً من قماشٍ حريريّ. قفَزَتْ بعدَهُ بلياقةٍ عاليةٍ شابّةٌ، تبلغ من العمر حوالي 23 عاماً. كانت شقراء طويلة ونحيلة ذات سماتٍ منسقّة، ولكنها بقسمات وجه غير مليحة وعيون زرقاء. أتذكّر فقط تلك العيون الزرقاء، غير المعبّرة، والأنف المطليّ بالبودرة، والثوب الثقيل الفاخر، والعديد من الأساور الضخمة على كلتا اليدين.. أتذكَّر أن رائحة النداوة

المسائية والكونياك الذي صُبَّ في الكؤوس أفسَحَتْ المجال لرائحة عطورٍ ما.

قال الفتاة الغريبة بروسيَّةٍ مكسَّرة:

ـ هنا عدد كبير منكم! يجب أن يكون هناك الكثير من المرح! مرحباً ألكسيس!

ذهبتْ إلى ألكسيس وقدَّمَتْ له خدَّها. قبَّلَها الكونت قُبْلَةً سريعةً، ونظر بقلقٍ إلى ضيوفه. وغمغم:

ـ أقدّم لكم زوجتي! وهذه، سوزيا من أصدقائي القريبين.. احِم.. لديَّ سُعال.مكتبة

ـ وصلتُ للتَّوّ! ويقول لي كايتان: خذي قسطاً من الراحة! لكنني أقول، لماذا يجب أن أرتاح إذا كنت قد نِمْتُ طوال الطريق! وأنا أفضّل الذهاب للصيد! ارتديت ملابسي وجئت.. كايتان، أين سيجارتي؟

قفز بشيخوتسكي إلى الشقراء وسلَّمَها سيجاراً ذهبيّاً.

واستمر الكونت في الغمغمة، مشيراً إلى بشيخوتسكي:

ـ وهذا هو شقيق زوجتي.. نعم، ساعدوني! ـ دفعني الكونت تحت مرفقي ـ أغِثْني في سبيل الربّ!

يقولون إن حالة كالينين تدهورت، وأن ناديا، التي رغبت

بمساعدته، لم تستطع النهوض على أقدامها. يُقال إن الكثيرين سارعوا إلى الجلوس في عرباتهم والمغادرة. لم أرَ كل هذا. أتذكر أنني ذهبت إلى الغابة، وبحثتُ عن الممرّات، دون النظر إلى الأمام، اتجهت حيث ساقتني قدمي[1].

* * *

علقَتْ كُتَلٌ من الطين اللزج على قدمي، وعندما غادرتُ الغابة كنتُ ملطّخاً تماماً بالطين. ربما تعيّن عليّ القفز فوق السواقي، لكنني لا أتذكر ملابسات ذلك. كان الأمر كما لو أنني تعرَّضْتُ للضرب المبرّح بالعصيّ، قبل ذلك شعرتُ بالتعب والإعياء. كان ينبغي عليَّ الذهاب إلى ضيعة الكونت، وامتطاء فرسي زوركا والعودة إلى منزلي. لكنني لم أفعل ذلك، وعُدْتُ إلى المنزل سيراً على الأقدام. لم أستطع رؤية الكونت أو ضيعَتِهِ اللعينة[2].

* * *

---

(1)هنا في مخطوطة كاميشيف، تمَّ شطب مئة وأربعين سطراً. ـ أ

(2)في هذه المرحلة من المخطوطة، يتم رسم رأس أنثى جميلة بملامح مشوَّهة بالرعب بالحبر. يتم شطب كل شيء مكتوب أدناه بعناية. يتم أيضاً كتابة النصف العلوي من الصفحة التالية، ومن خلال بقعة الحبر المستمرة، يمكن للمرء أن يصنع كلمة واحدة فقط: «معبد». ـ أ.

كما يتم شطبه هنا. ـ أ.

يتم شطب صفحة كاملة تقريباً بشكل عشوائي. لا يتم توفير سوى بضع كلمات، والتي لا تعطي المفتاح لفهم المشطوب. ـ أ.

امتدَّ طريقي على طول شاطئ البحيرة. كان الماء كوحشٍ بدأ يزمجر بأغنيَّتِه المسائية. غطَّتْ الأمواج العالية ذات القمم البيضاء سطحَ البحيرة الهائل بأكْمَلِه. وخيَّمَ في الهواء أزيزُهُ وهديرُهُ، ونفذت رياحٌ باردةٌ رطبةٌ إلى عظامي. وإلى اليسار كانت البحيرة غاضبة، ومن اليمين ترامت ضوضاء رتيبة للغابة العابسة. وساورني الشعور بأني وجهاً لوجهٍ مع الطبيعة، كما لو كانت مواجهةً شخصيّةً لشاهدين خلال التحقيق، وخُيِّلَ لي أن كل هذا الضجيج والصخب كان لأجل رأسي فقط. في ظِلِّ ظروف أخرى كنت قد شعرتُ بالوجل، ولكن الآن بالكاد لاحظتُ العمالقة المحيطين بي. وما كان غضب الطبيعة، مقارنةً مع العاصفة التي كانت تغرق بداخلي[1]؟

* * *

عندما وصلتُ إلى المنزل، سقطْتُ في الفراش دون أن أخلع ملابسي؛ قال بوليكارب متذمّراً، وهو يخلع عني الملابس القذرة:

ـ مرةً أخرى، يا قليل الحياء، سبحت في البحيرة بملابسك، يا لها من أذيّة لي مرةً أخرى! ويُسمّى نبيلاً، ومتعلماً، وهو أسوأ من أيّ منظِّف موقد.. لا أعرف ماذا علّموكم في الجامعة..!

كنتُ غير قادرٍ على تحمُّل أيِ صوتٍ أو وجْهٍ بشريّ، أردْتُ أن أصرخ في وجه بوليكارب ليتركُنَي وشأني، بيْدَ أن كلمتي جمدت

(1)هنا أيضاً مشطوبة أ.تش

في حلقي. كان لساني منهكاً ومرهقاً مثل جسمي كله. ومهما كان هذا مُوجِعاً بالنسبة لي، تعيَّنَ عليَّ تَرْك بوليكارب ليخلع كل شيءٍ عني، حتى ملابسي الداخلية المبلَّلَة.

قال خادمي، وهو يقلّبني من جانب لآخر مثل دمية صغيرة:

ـ وحتى إن عُدْت! غداً أريد تسوية حساب مرتبي! لا، لا.. لن أبقى في خدمتكم مقابل أيّ مال! سأكون أحمقَ! لأسقط إذا بقِيْت!

الملابس الداخلية الدافئة الطازجة، لم تُدفِّئني أو تُهَدّئني. كنتُ أرتعش من الغضب والخوف لدرجة أن أسناني اصطكّتْ. كان يمكن تفسير الخوف.. لم تُخِفْني الأشباح، ولا الناس من القبور، ولا حتى صورةُ سِلفي بوسبيلوف، المعلَّقَة على الجدار فوق رأسي. لم يُسْدِل عينيه اللتين فارقتهما الحياة عني، وبدى أنه غمز لي بهما، لكنني لم أشعر ولو بقليلٍ من الكرب عندما نظرتُ إليه. مستقبلي غير شفّاف، ولكن ما يزال من الممكن القوْل باحتمالٍ كبيرٍ إنَّهُ لا يوجد شيءٌ ما يُهَدّدني، لا توجد غيوم سوداء قريبة. لم يكن الموت قريباً، ولم أكن خائفاً من الأمراض، ولم أعلّق أهمية على المصائب الشخصية.. ما الذي كنت أخاف منه، ولماذا كانت أسناني تصْطَكّ؟

لم أفهم غضبي أيضاً.. إنَّ «سِرّ الكونت» لا يمكن أن يُغْضِبَني كثيراً. لم أكتَرِثْ بالكونت ولا بزواجه الذي أخفاه عني.

يبقى أن أشرح حالتي النفسية بالانهيار العصبيّ والتعب. لا يوجد تفسيرٌ آخر لديّ.

بعد أن بارح بوليكارب الغرفة، اضطجعتُ وغطّيْتُ رأسي، أنوي النوم. وسادت الظلمة والهدوء.. كان الببّغاء يتقلب بلا توقف ويدور في قفصه، علاوةً على أن نقراتٍ رتيبةً لساعة الحائط ترامت من غرفة بوليكارب، وساد في جميع النواحي الأخرى السلام والسكينة. لقد نال مني التعب الجسديّ والعقليّ، وأخذتني سِنَةُ النوم.. شعرتُ بأن عبئاً ما انزاحَ عني تدريجياً، واستحالت الصور البغيضة في ذهني إلى ضباب.. أتذكّر أنني بدأتُ أحْلُم. حلمتُ أنني في صباحٍ شتويٍّ مشرقٍ، كنت أسير على طول شارع نيفسكي في سان بطرسبرغ، ولم يكن لديَّ ما أفعله، فأخذت أتأمل نوافذ المتاجر. كانت في روحي خِفّة وغبطة.. لم أكن على عجلةٍ من أمري، ولم يكن هناك ما أفعله ـ أتمتّع بحريّة مطلقة. إن إدراكيَ بأنني كنتُ بعيداً عن قريتي، وعن ضيعة الكونت والبحيرة الغاضبة والباردة، أثارت في نفسي مزاجاً سلمياً ومبتهجاً. توقفتُ عند أكبر واجهة متجر، وبدأتُ في فحص قبّعات النساء.. القبّعات كانت مألوفةً لي.. رأيتُ في واحدةٍ منها أولغا، وفي الأخرى ناديا، والثالثة رأيتها في يوم الصيد على الرأس الأشقر لسوزي التي وصلت فجأةً.. تحت القبّعات ابتسمت وجوهٌ مألوفةٌ لي.. وعندما أردتُ أن أقول لهُنَّ شيئاً، اندمجَتْ جميعها في وجهٍ واحدٍ أحمر وكبير. حرَّكَ

عينيه بغضب ومدَّ لسانَهُ.. ضغط أحدهم على رقبتي من الخلف.. وصاح الوجه أحمر.

ـ قتَلَ الزوجُ زوجَتَه!

جفلتُ، وأطلقتُ صرخةً، قفزتُ من السرير كالملدوغ.. كان قلبي ينبض بشكلٍ رهيب، تصبَّب عرقٌ باردٌ على جبهتي.

ـ قتَلَ الزوجُ زوجتَهُ! ـ كرَّرَ الببغاء ـ أعطِنيْ سُكَّر! أنتم أغبياء! حمقى!

طمأنتُ نفسي، وأنا أستلقي في الفراش:

ـ الشكر للربّ.. إنه ببّغاء...

تردَّدَ خريرٌ رتيبٌ.. هطل المطر الآن على السقف.. فالغيوم التي شاهدتُها في الغرب عندما مشيتُ على طول شاطئ البحيرة كانت قد غطَّت الآن السماء بأكملها. ومَضَ البرق بشكل خافت وأضاء صورة الراحل بوسبيلوف.. وهدر الرعد فوق رأسي...

فكّرتُ أن هذه العاصفة الرعدية هي الأخيرة لهذا الصيف.

تذكَّرْتُ إحدى أوائل العواصف الرعدية.. بالضبط ذات الرعد الذي دوَّى في يومٍ ما في الغابة، عندما كنتُ في منزل مدير الغابة لأول مرة.. وقفتُ أنا والفتاة بالأحمر عند النافذة، وتطلَّعْتُ إلى أشجار الصنوبر، التي كانت مضاءةً بالبرْق.. وتألَّقَ الخوف في

عيون الكائن الرائع. وأخبرتني أن والدتها ماتت من صاعقة برق، وأنها تتوق إلى موتٍ مثيرٍ.. إنها ترغب في أن ترتدي على غرار أغنى النساء الأرستقراطيّات في المقاطعة. شعرتْ أن الملابس الفاخرة تُناسِب جمالها. وإذ أدركتْ خطل تضخيم ذاتها التي تفخر فيها، فإنها ترغب في الصعود على جبل المقبرة الحجرية والموت هناك بشكلٍ مثيرٍ.

حُلْمُها تحقَّقَ.. على الرغم من أنه ليس على جبل مقبرة...[1].

بعد أن فقدتُ كل الأمل في النوم، نهضتُ وجلستُ على حافّة السرير. تحوَّلَتْ الدمدمة الهادئة للمطر تدريجيّاً إلى هدير غاضب، أحببتُ هذا الهدير كثيراً عندما كانت روحي خاليةً من الخوف والبغض.. الآن بدا لي أن هذا هديرٌ مشؤومٌ بالنسبة لي. تلاحَقَ قصْفُ الرعد الواحد بعد الآخر.

زعق الببّغاء...

ـ قتَلَ الزوجُ زوجَتَه!

كانت هذه عبارته الأخيرة.. أغمضتُ عيني في خوفٍ خائر الهِمّة، تلمَّسْتُ القفص في الظلام ورمَيْتُه في الزاوية...:

---

(1) تم هنا الشطب بعشوائية على صفحة كاملة تقريباً. تميّزت فقط عدة كلمات، لا تعطي مفتاحاً لفهم ما تمَّ شطبُه.

ـ ليأخذك الشيطان! ـ صرختُ به، وسمعتُ رنين القفص وصأصأة الببّغاء..

مسكينٌ الطائر النبيل! التحليق إلى الزاوية لم يذهب له سُدَى.. في اليوم التالي، كان في قفَصِهِ جثّةً هامدةً وباردةً. لماذا قتلتُهُ؟ إذا كانت جملته المفضَّلَة عن زوجٍ قتَلَ زوجَتَهُ.......[1].

والدة سلفي، بوسبيلوفا، التي تنازَلَتْ لي عن الشقّة، أخذَتْ مني فقط قيمة الأثاث بأكمله، حتى عن الصور الفوتوغرافية لأشخاص لم أكن أعرفهم. لكنها لم تأخذ مني سنتا واحدا مقابل الببّغاء باهظ الثمن. ودَعَتْ طائرَها النبيل طوال الليل عشيّة رحيلها إلى فنلندا. أتذكّر النشيج والندب اللذين صاحبا هذا الوداع. أتذكّر طلبّها مني من خلال الدموع أن أصونَ صديقها حتى عودتها. أعطيتُها كلمة شرف بأن الببغاء لن يندم على تعرُّفِهِ عليَّ. ولم أصُنْ هذه الكلمة. قتلتُ الطائر. أستطيع أن أتخيل ما ستقوله المرأة العجوز إذا عرَفَتْ مصير طائرها الصَرّاخ!

طرق أحدهم برفقٍ على نافذتي. كان المنزل الذي أعيش فيه، أحد المنازل الواقعة في نهاية الطريق، وغالباً ما كنت أسمع الطَّرْقَ على النافذة، خاصةً في الطقس السيئ، عندما كان المارة يبحثون

---

(1) للاسف هنا شطب أيضاً. ومن الواضح أن كاميشيف لم يشطب خلال الكتابة، وإنما عقبها.. سألفت الانتباه الخاص إلى هذا الشطب.

عن مكان للنوم. هذه المرة ليس عابرو السبيل هم من طرقوا باب بيتي. ذهبتُ إلى النافذة وانتظرتُ وميضَ البرق، فرأيتُ شبحاً داكناً لرجلٍ طويلٍ ونحيفٍ. وقف أمام النافذة، وبدا وكأن جسمه يقشعرّ من البرد. فتحتُ النافذة. سألتُ الطارق:

ـ مَنْ هناك؟ ما حاجتك؟

سمعتُ صوتاً متضرعاً، كما يتكلم الناس المقرورون والخائفون

ـ سيرجي بتروفيتش هذا أنا! جئتُ لكم يا عزيزي!

عرفتُ لدهشتي الكبيرة في الصوت الحزين الشبح الداكن، صوت صديقي، الدكتور بافيل إيفانوفيتش. زيارة «شور»، الذي يعيش حياة منتظمة ويأوي إلى الفراش قبل الثانية عشرة، كانت غير مفهومة. ما الذي أرغمه على تغيير قواعده والمجيء إليَّ في الثانية صباحاً، بالإضافة إلى ذلك، في مثل هذا الطقس الفظيع؟

سألتُهُ، وفي أعماق روحي أرسلتُ الضيفَ المفاجئ إلى الجحيم:

ـ ما حاجتكم؟

ـ اعذرني يا عزيزي.. أردتُ أن أطرق الباب، لكن بوليكارب على الأرجح نائمٌ الآن مثل الميّت. قررتُ أن أطرق على النافذة.

ـ ما تريدون؟

اقترَبَ بافل إيفانيتش من نافذتي، وتمتم بشيءٍ غير مفهوم. ارتجف وبدا مثل السكران.

قلتُ له، وقد فقدتُ صبري:

ـ أنا أستمع إليكم!

ـ أنتم.. أنتم، كما أرى، غاضبون، ولكن.. إذا كنتم تعرفون كل ما حدث، فستكُفّون عن الغضب على التفاهات مثل قطع النوم، والزيارة في الوقت غير المناسب.. لا وقت للنوم الآن! يا إلهي! عِشْتُ ثلاثين عاماً في الدنيا وللمرة الأولى فقط اليوم أنا تعيس! أنا غير سعيد، سيرجي بتروفيتش!

ـ ماذا حدث؟ وما شأني؟ أنا نفسي بالكاد أستطيع الوقوف على قدمي.. ليس لديَّ وقتٌ للناس!

وقال «شور» بصوتٍ باكٍ وهو يمُدُّ يدَهُ المبتلّة من المطر في الظلام إلى وجهي:

ـ سيرجي بتروفيتش! أيها الرجل الشريف! صديقي!

بعد ذلك سمعتُ نحيبَ الرجل. أجهش الطبيب بالبكاء.

قلت له بعد فترة من الصمت:

ـ بافل إيفانوفيتش، اذهبوا إلى منزلكم. ليس بوسعي التحدث

معكم الآن.. أخشى على مزاجي وعلى مزاجكم على حدٍّ سواء. لن نفهم بعضنا البعض.

قال الطبيب بصوتٍ متضرّع:

ـ عزيزي! تزوَّجْها.

قلتُ، وأنا أغلق النافذة:

ـ أنت مجنون!

بعد الببّغاء، كان الطبيب الضحيةَ الثانيةَ لمزاجي. لم أدْعُهُ إلى الغرفة، وأغلقت النافذة بوجهه. تصرّفت للمرة الثانية بخشونة، وبصورة غير لائقة، لو كانت قد وُجِّهَتْ لي لدعوتُ حتى امرأةً للمبارزة[1]. لكن «شور» اللطيف والوديع لم تكن لديه فكرةٌ عن المبارزة. ولم يعرف ما يعني أن تغضب.

بعد حوالي دقيقتين أومَضَ البرق، نظرتُ إلى النافذة، رأيت قامة ضيفي المحدودبة. وهذه المرة كانت هيئة متوسّل، مترقّب، مثل متسوّل يترقّب الصدقات. ربما انتظرَ أن أغفر له وأسمح له أن يقول ما لديه.

---

(1) الجملة الأخيرة مكتوبة فوق سطر مشطوب، الذي يمكن أن نميز فيه «قطعت رأسه من كتفه، ورميته من النافذة» أ.تش

ويتبع ذلك تأويل منسجم مزوّق للغاية عن قوة تحمل الكاتب النفسية.. يفترض أن مشهد الحزن البشري، والدم، وتشريح الطب الشرعي، وما إلى ذلك، لا يترك أي انطباع عليه. هذا المكان كله يحمل ظلاً من الافتخار الساذج. وعد الصدق، إنها تدهشُ بفظاظتها. وأهملته. فهو ليس مهمًّا لتوصيف كاميشيف. ـ أ. تش

لحسن الحظ، أنشأ ضميري يؤنّبني، انتابني شعور بالأسف على نفسي، لأن الطبيعة غرست الكثير من القسوة والخِسَّة في داخلي! كانت روحي المنحطة حجر صَوَّان مثل جسدي السليم6.

... ذهبتُ إلى النافذة وفتحتُها.

وقلت له:

ـ ادخل الغرفة!

ـ ليس هناك وقت! كل دقيقة ثمينة! مسكينة ناديا تسمَّمتْ، ولا ينبغي للطبيب أن يتركها.. بالكاد نجحنا في إنقاذ المسكينة.. أليست هذه مصيبة؟ وأنتم لا تستطيعون الاستماع، أغلقتم النافذة؟

ـ أما تزال على قيد الحياة؟

ـ على كل حال.. لا يتحدثون عن المصائب بهذه اللهجة، يا صديقي العزيز! من كان يظن أن هذه الكائنة الذكية والصادقة تريد أن تتخلى عن حياتها بسبب شخص مثل الكونت؟ لا يا صديقي؛ من تعاسة البشر أن المرأة لا يمكن أن تكون مثالية! بغض النظر عن مدى ذكاء المرأة، ومهما كان نصيبها من الكمال، فيها مسمارٌ مغروسٌ يعرقل عليها وعلى الناس العَيْش.. خذوا ناديا.. حسناً، لماذا فعلت ذلك؟ عزّة نفس، عزّة نفس! عزّة نفس مَرَضيَّة! من أجل أن تُخزيكم، قَرَّرَتْ أن تتزوّج بهذا الكونت.. لم تكن بحاجةٍ

إلى أمواله ولا إلى النبالة.. كانت تحتاج فقط لإرضاء عزّة نفسها الفظيعة.. وفجأةً أخفَقَتْ! أنت تعرف أن زوجته جاءت.. اتَّضَح أن هذ الفاسد متزوج.. ويقولون أيضاً إن النساء يتَّصِفْنَ بقوة التحمل، وأنهن يستطعن الصبر أفضل من الرجال! أين هنا قوة التحمل، إذا كان هذا السبب التافه يُرْغِم المرء على أخذ عود ثقابٍ فسفوريٍّ لإشعال نفسه؟ هذه ليست قوة تحمُّل وصبر، وإنما بهرجة.

ـ ستُصابون بالزّكام...

ـ إن ما شاهدته، أسوأ من كل نزلات البرد والزكام: تلك العيون، والشحوب... آخ! أُضيف الإخفاق في الانتحار إلى الحب الفاشل، والإخفاق في إغاظتكم، من الصعوبة أن أتخيل خيبةً أكبر منها! عزيزي لو كانت لديكم قطرةٌ من الشفقة والرأفة، لو.. لو شاهدتموها.. حسناً لماذا لا تذهبون إليها؟ أنتم تحبّونها! وإذا لم تُحِبّوها لماذا لا تضحّون لها بحرّيّتكم؟ إن حياة الإنسان غالية، ويمكن من أجلها بذلُ كُلّ شيء! أنقذوا حياتها!

في هذه الأثناء طرَقَ أحدُهم باب منزلي بقوّة. جفلتُ، قطر قلبي دماً، طرقوا البابَ من جهة الشارع، صرختُ من النافذة:

ـ مَن هناك؟

ـ لحضرتكم!

ـ ما حاجتكم؟

ـ رسالة من الكونت، لسعادتكم! قتلوا شخصاً.

اقتربتْ من النافذة قامةٌ حالكةٌ ملفوفةٌ بمعطف فرو ضأن، تذمّر في البرد، ناولني الرسالة، ابتَعَدَ بسرعة عن النافذة، أشعلتُ الشمعة وقرأت التالي:

«انسَ، في سبيل الرب، كل شيء في الدنيا وتعال حالاً. أُغتيلت أولغا. لقد فقدتُ صوابي والآن سَأُجَنّ. صديقك أ. ك».

أُغتيلت أولغا! شعرتُ بدوران في رأسي، واسودَّت الدنيا في عيني من هذه العبارة القصيرة! جلستْ على السرير، ولم تعد لديّ قوةٌ على التفكير، استسلَمْتُ للقَدَر.

سمِعْتُ صوتَ الرجل الذي جاء بالرسالة:

ـ هذا أنتم بافل إيفانيتش، أردتُ الآن أن أذهب لكم.. لكم رسالة أيضاً.

عقب خمس دقائق جلست، مع «شور» في حنطور مغلق، وذهبنا إلى ضيعة الكونت. كان المطر يطرق على سقف الحنطور، وأومَضَ أمامنا برقٌ يُعمي العيون.

تردَّدَتْ زمجرة البحيرة، بدأ الفصل الأخير من الدراما، وسافر اثنان من شخوصها كي يريا لوحةً تمزّق الروح.

سألتُ العزيز بافل إيفانيتش:

ـ حسناً، فيمَ تفكرون، ما الذي ينتظرنا؟

ـ لا أفكّر بشيء، لا أعرف.

ـ أنا أيضاً لا أعرف.

ـ لقد أسِفَ هاملت في يومٍ ما لأن رب الأرض والسموات حَرَّمَ خطيئة الانتحار، والآن أنا هكذا آسِفٌ أن القدر جعل منّي طبيباً! آسِفٌ بعمق.

فقلت:

ـ أخشى أنني لا أندم على كوني محققاً جنائياً، وإذا لم يخلط الكونت بين القتل والانتحار، وإذا كانت أولغا قُتِلَتْ حقاً، فستكون من نصيب أعصابي!

ـ يمكنك رفض هذه القضية.

ألقيتُ على بافل إيفانيش نظرةَ استفهام، وبالطبع، بفضل الظلام، لم يَرَ شيئاً. كيف عرف أنه يمكنني رفض التحقيق بالقضية؟ كنتُ عشيقَ أولغا، لكن لا أحد يعرف هذا ما عدا أولغا نفسها، وربما بشيخوتسكي، الذي استقبلني ذات مرةٍ بالتصفيق.

سألتُ شور:

ـ لماذا تعتقدون أن بوسعي أن أرفض؟

ـ هكذا، بوسعكم أن تمرضوا، أو تقدّموا استقالة. كل هذا ليس غير شريف، لأن هناك شخصاً ما يمكن أن يكون بديلاً عنكم، أما الطبيب فله ظروف أخرى.

فكّرتُ بذاتي: «فقط هذا؟».

بعد رحلة طويلة، قاتلة على التربة الطينية توقفت العربة أخيرا عند المدخل. وكانت النافذتان فوق المدخل مُضائتين بنور ساطع، ونفذ ضوء خافت من غرفة نوم أولغا الواقعة في أقصى اليمين، ولكن النوافذ الأخرى ظهرت كبقَع مظلمة.

قابلتنا العجوز سيتشيخا على السلم، نظرت إليّ بعينيها الحادّة، وتغضَّن وجهُها المجعَّد في ابتسامة شريرة ساخرة.

قالت عيناها:

ـ هنالك ستكون مفاجأة!

على الأرجح أنها ظنَّت أننا جئنا لنشرب، ولم نعرف بوجود مصيبة في المنزل.

قلتُ لـ بافل إيفانوفيتش، وأنا أرفع قبّعة المرأة العجوز وأكشف عن رأسٍ أصلع تماماً:

ـ ألْفِتُ انتباهكم إلى أن لهذه الساحرة تسعين عاماً يا عزيزي، وإذا تعيَّنَ علينا في يومٍ ما تشريح هذا الكائن، فستختلف آراؤنا

كثيراً. ستجدون أنتم فيها دماغاً ضامراً ومخرِّفاً، فيما سأقنعكم بأن هذا هو أذكى وأمكر مخلوق في المنطقة كلها. إنها شيطان في تنّورة.

عندما دخلت القاعة، راعني المشهد الذي رأيتُهُ، كان غير متوقَّع تماماً، حيث احتلّ جمعٌ من الناس الكراسي والأرائك، وهناك مجموعة أخرى من الناس تقف أيضاً في الزوايا بالقرب من النوافذ.

من أين جاؤوا؟ لو أخبرني أحدهم في وقت سابق أنني سألتقي بهؤلاء الناس هنا، لكنت قد انفجرت بالضحك. كان وجودهم في ذلك الحين في منزل الكونت، أمراً لا يُصَدّق وغير ملائم لحدّ كبير، في الوقت الذي ربما كانت فيه أولغا تحتضر أو ماتت في إحدى الغرف. كانت جوقة الغجر من أوبير ـ غجر كاربوف من مطعم لندن، وهي نفس الجوقة التي يعرفها القارئ من أحد الفصول الأولى. عندما دخلتُ عرفَتْني صديقتي القديمة تينا، انفصلت عن إحدى المجموعات، وأطلقت صيحةً فرِحَةً. شاعت ابتسامة على وجهها الشاحب الذي يميل للسُّمْرَة، وعندما أعطيتُها يدي، تدَفَّقَت الدموع من عينيها عندما أرادت أن تُخْبِرَني بشيءٍ ما. لم تسمح لها الدموع بالتحدّث، ولم أحصل على كلمةٍ واحدةٍ منها. التفتُّ إلى غجرٍ آخرين وشرحوا لي حضورهم بهذه الطريقة. أرسل لهم الكونت في الصباح برقيّةً إلى المدينة، مطالباً بأن تكون الجوقة بأكملها، بكامل قوّتها في ضيعة الكونت بحلول الساعة التاسعة

مساءً. وقاموا بتنفيذ هذا «الطلب»، وأخذوا القطار، وفي الساعة الثامنة كانوا بالفعل في هذه القاعة.

ـ وحلُمْنا بإسعاد ضيوفه وسعادته. نعرف الكثير من أغاني الرومانس الجديدة. وفجأة...

جاء رجلٌ على ظهر فرس مع الأخبار التي تُفيد بأن جريمة قتل وحشيّةً قد ارتُكِبَت أثناء الصيد، وأمر بإعداد سرير أولغا نيكولافنا. لم يصدّقوا الرجل، لأن الرجل كان في حالة سُكْر «مثل الخنزير»، ولكن عندما سُمِعَ ضجيجٌ على السلم، وحملوا جسماً أسود عبر القاعة، لم يَعُدْ هناك أيّ شَكّ.

ـ والآن لا نعرف ماذا نفعل! لا يجوز البقاء هنا، عندما يكون الكاهن هنا، على الناس المبتهجين الذهاب من هنا. وإلى جانب ذلك، كل المغنّين يشعرون بالقلق، وينتحبون. لا يمكن أن يكونوا في المنزل حيث يوجد ميت. ينبغي المغادرة، لكنهم في الوقت نفسه لا يُريدون منْحَنا الخيول! السيد الكونت مريضٌ في الفراش، ولا يسمح لأحدٍ بالدخول عليه، ويسخر الخدم من طلب الخيول. لا يمكننا السير على الأقدام في مثل هذا الطقس، وفي هذه الليلة المظلمة! الخدم بشكلٍ عام فظّون بشكلٍ فظيع، عندما طلبنا السماور للسيدات لغلْي الشاي، أرسلونا إلى الجحيم.

انتهت كل هذه الشكاوي بمناشدة دامعة لشهامتي: أن ألتمس العربات لهم حتى يتمكنوا من مغادرة هذا المنزل «الملعون»..!

قلتُ:

ـ إذا لم تكن الخيول في الحظيرة، وإذا لم يتم إرسال الحوذيين، فستغادرون، سأعطي أمراً.

إن الحزن وحالة التردد في الموقف، لا تليق بهؤلاء المساكين الذين يتحلّون بأزياء المهرّجين والمعتادين على التدلُّل والتغنج بأساليبهم الجريئة. وأنعشتُهم قليلاً بوعدي بإرسالهم إلى المحطة. تحوّل الهمس بين الرجال إلى حديث صاخب، وكفَّت النساء عن البكاء.

بعد ذلك، دخلتُ مكتب الكونت عبر مجموعة كاملة من الغرف المظلمة غير المضاءة، ونظرت من خلال أحد الأبواب العديدة ورأيت صورة مؤثرة. جلست سوزيا وشقيقها بشيخوتسكي على الطاولة بجانب السماور الذي يرسل أزيزاً. سوزيا، مرتديةً بلوزة خفيفة، لكنها ما تزال ترتدي نفس الأساور والخواتم، كانت تشُمُّ شيئاً من زجاجة، وتهتزّ، وترشف باشمئزاز من قدحٍ. كانت عيناها باكيَتَين. ربما انهارت أعصابها إلى حدٍّ كبيرٍ بسبب الحدث أثناء الصيد وأفسد مزاجها لفترة طويلة. كان بشيخوتسكي، بنفس الوجه الخشبي كما كان من قبل، يبتلع من الصحن ويقول شيئاً ما لأخته. إذا حكمنا من خلال تعابير وجْهِهِ وسلوكياته، فإنه يقوم بدور الأستاذ لطمأنَتِها وحثّها على عدم البكاء.

وغنيٌّ عن القول أنني وجدتُ الكونت في أكثر المشاعر رثاثة. كان الرجل المترهّل والضئيل قد نحفَ وضمر أكثر من ذي قبل. كان شاحباً، وارتجفَتْ شفتاهُ كما لو أصابَتْهُ الحُمّى. كان رأسه معصوباً بمنديلٍ أبيض تفوح منه في أرجاء الغرفة، رائحةُ خَلٍّ نفّاثة. عند دخولي، قفز من الأريكة التي كان يرقد عليها، وهرع لِلَفّ روبه على نفسه، وارتمى عليَّ، وأنشأ يرتجف ويلهث:

ـ و؟ و؟ حسناً؟

وبعد أن أصدر عدّة حروف غامضة، سحَبَني من كُمّي إلى الأريكة، وانتظرني حتى أجلس، وضغط عليَّ مثل الكلب الخائف، وبدأ في صَبّ شكواه:

ـ من كان يتوقع؟ و؟ انتظر حبيبي، سأتدثّر باللحاف، لديَّ حُمّى. قُتِلَتْ، المسكينة! وقُتِلَتْ بشكلٍ بربريّ! إنها ما تزال على قيد الحياة، لكن طبيب القرية يقول إنها ستموت الليلة. يومٌ فظيع! جاءت زوجتي في الوقت غير المناسب، ليأخذها الشيطان إلى الأبد. ارتكبت خطأً فادحاً. سيريوجا، لقد زوّجوني وأنا في حالة سُكْر في بطرسبرغ. كنتُ قد خبّأتُ عنك، أشعر بوخز الضمير والخجل، ولكن ها هي جاءت، وبوسعك رؤيتها، انظر لها واشنقني.. أوه، أيها الضعف الملعون! تحت تأثير الحالة والفودكا، أنا قادرٌ على فِعْل كل ما يُراد مني! وصول زوجتي هو الهدية الأولى، والثانية فضيحة أولغا، أنا في انتظار الثالثة، أعرف ماذا سيحدث! أعرف! سوف أُجَنّ!

بعد أن أجهش بالبكاء وشرِبَ ثلاثة أكواب من الفودكا، ونَعَتَ نفسه حماراً، وغبياً، وسكيراً، وصف الكونت الدراما التي حدثت أثناء الصيد بلغة مرتبكة من شدة القلق، وأخبرني تقريباً ما يلي:

بعد حوالي 20 ـ 30 دقيقة من مغادرتي، وعندما خفَتَتْ إلى حدٍّ ما مفاجأة وصول سوزيا، وبعد أن تعرَّفَتْ سوزيا على المجتمع، وبدأت تتظاهَر بأنها المُضيفَة، سَمِعَتْ الجماعةُ فجأةً صرخةً حادّة تُمَزّق الروح. جاءت هذا الصرخة من اتجاه الغابة، وتردَّدَ صداها أربع مرات. وكان الصراخ غير اعتياديٍّ، لدرجة أن الناس الذين سمعوه قفزوا على أقدامهم، ونبحت الكلاب، ونصبت الخيول آذانها. كانت الصرخة غير طبيعية، بيْدَ أن الكونت تمكَّنَ من أن يعرف أنه صوت امرأة نمَّ عن يأس، ورعب! هذه هي الطريقة التي ينبغي أن تصرخ بها النساء عندما يَرَيْن شبحاً أو موتاً مفاجئاً لطفل. نظر الضيوف المذعورون إلى الكونت، ورمقهم الكونت، وخيَّمَ على الجميع، لحوالي ثلاث دقائق، صمتٌ مطبقٌ.

وبينما تبادل السادة نظراتهم وهم صامتون، ركض سوّاق العربات والخدم إلى المكان الذي سُمِعَ فيه الصياح. وكان الخادم العجوز إيليّا أول بشيرٍ للكرب. هرع من الغابة إلى الحافة، شاحباً، وحدقتاه واسعتان، أراد أن يتفوَّهَ بشيءٍ، لكنَّ ضيق التنفُّس والاضطراب منَعاهُ من التحدث. وأخيراً، تغلَّبَ على نفسه ورسم الصليب، وقال:

ـ لقد قتلوا الآنسة!

أيّة آنسة؟ من قتل؟ لكن إيليّا لم يرُدَّ على هذه الأسئلة. سقطت مهمة البشير الثاني على شخصٍ لم يكن يتوقّعوه، واندهشوا بشكل رهيب لظهوره. وذهلوا لظهور هذا الرجل المفاجئ ولمظهره. عندما رآه تذكَّرَ الكونت أن أولغا كانت تتنزَّه في الغابة، فجمد قلبه وانثنت ساقاه من هاجسٍ مروِّع.

كان هذا بيوتر إيجوريتش أوربينين، المدير السابق لممتلكات الكونت وزوج أولغا. في البدء سمعت الجماعة خطى ثقيلة وقرقعة عيدان يابسة. خُيّل لهم أن دبّا يشقّ طريقَهُ من الغابة إلى الحافة. ثم ظهر جسد بيوتر إيجوريتش الضخم، وعندما وصل إلى الحافة ورأى الجماعة، تراجع بخطوة إلى الوراء، وبقي مسمَّراً في مكانه. لم ينبسْ بكلمة، ولم يتحرّك حوالي دقيقتين، وعلى هذا النحو أتاح للجميع إلقاء نظرةٍ فاحصةٍ عليه. كان يرتدي ملابسه اليومية المكوَّنَة من سترته الرمادية وبنطلون رثّ للغاية. لم يعتمر قبّعةً على رأسه، وشعره الأشعث التصق على جبهته، وعلى صدغه الذي بلَّلَهُ العَرَق. وكان وجهه كالعادة قرمزيّاً، وجزءٌ منه قرمزيٌّ يميل إلى الأزرق، وكان هذه المرة شاحباً. ونظَرَتْ عيناهُ بوَلَهٍ، وكانت واسعةً بشكلٍ غير طبيعيّ، وارتجفت شفتاه ويداه.

ولكن الشيء الأكثر غرابة، وما جذب قبلَ كل شيء انتباهَ المتفرّجين المذهولين، هو يداه الملطّختان بالدماء؛ كلتا يديه

والأكمام كانت ملطّخة بكثافة بالدم، كما لو كان قد غسلها في حمام دم.

بعد ثلاث دقائق كما لو أن المذهول أوربينين، عاد إلى الوعي، جلس على العشب على الطريقة التُّركية وراح يئِنّ. أحاطت به الكلاب، التي استشعرت شيئاً غير عاديّ، وأنشأت تنبح. أجال نظَرَهُ بالجماعة بعيون مكدَّرَة، وقام أوربينين بتغطية وجهه بكلتا يديه، وصعق من جديد.



وأطلق أنيناً:

ـ أولغا، أولغا، ما فعلتِ!

تسرَّبَتْ شهقاتٌ خافتةٌ من صدْرِه وهزّت أكتافُهُ الجبارة. عندما أبعد يديه عن وجهه، رأت الجماعة الدم على خديه وعلى جبهته، الذي جاء من اليدين إلى الوجه.

ولدى الوصول إلى هذا النقطة، لوَّحَ الكونت بيده، وشرِبَ قدحاً من الفودكا متشنّجاً واستمرّ:

ـ لا، حقاً تتشوّش ذكرياتي. كما يمكنك أن تتخيل، كل ما حدث صعقني وفجعني لدرجة أنني فقدت القدرة على التفكير. لا أتذكر ما حدث بعد ذلك! أتذكّر فقط أن الرجال أحضروا جثةً من الغابة، ترتدي ثوباً ممزّقاً ملطّخاً بالدم. لم أتمكن من النظر إليها! وضعوها

في عربةٍ ونقلوها، لم أسمع لا أنيناً ولا شهقات. يقولون غرزوا في جنبها الخنجر الذي كان دائماً معها، هل تتذكّره؟ أنا أهديتُها هذا الشيء. خنجر غير حادّ، حتى أن حافة قدح الشاي أكثر حدّة منه، إذن، أيّ قوة ينبغي أن تكون لدى المرء لغرْزِه! أحبّ يا أخي أسلحة القوقاز، لكن الآن الرب مع هذه الأسلحة! غداً سأعطي الأمر لرمْيِها من هنا!

شرِبَ الكونت قدحاً آخر من الفودكا وتابع:

ـ لكن يا لَهُ من عار! يا لها من دناءة! جئنا بها إلى المنزل... الجميع، كما تعرف، في حالة إحباط، ورعب. وفجأة، تتردد من هؤلاء الغجر ـ ليأخذهم الشيطان ـ أغنيةٌ خفيفة مرِحَة! انتظموا في صفٍّ واحدٍ وراح الأوغاد يصيحون! أرادوا استقبالنا بشياكة، لكن تبيَّن أنها غير مناسِبة للغاية، مثل إيفانوشكا الأحمق في الفلكلور الروسي، الذي كلما يلتقي بجنازة، يشعر بسعادة ويهتف: «أتمنى لكم أن تحملوا المزيد!» ظناً منه أنه يدعو بالخير لهم، نعم أخي! كنت أرغب في إرضاء الضيوف، فطلبتُ غجراً، لكن ذلك كان غباءً. ما كان يجب دعوة الغجر، بل الأطباء ورجال الدين. والآن لا أعرف ما أفعل! ماذا عليَّ أن أفعل؟ لا أعرف هذه الإجراءات والعادات. تدعو مَنْ، ومَنْ تُرْسِل إلى مَنْ... ربما ينبغي استدعاء الشرطة إلى هنا، والمدّعي العام.. لو تقتلني لا أعرف شيئًا! شكراً للكاهن إيرميا، بعد أن علِمَ بالحدث، جاء للمشاركة معنا، بنفسي

لم أخمّن أن أدعوه. أتوسّل إليك يا صديقي، خُذْ على عاتقك كل هذه التدابير! قسماً بالرب أفقد صوابي! وصول زوجتي، القتل... بررر! أين زوجتي الآن؟ هل رأيتَها؟

ـ رأيتُها، إنها مع بشيخوتسكي يحتسيان الشاي.

ـ مع أخيها إذن، بشيخوتسكي.. هذا المحتال! عندما هربتُ من بطرسبورغ سرّاً، عرف عن هروبي ولازَمَني، وكم من النقود أَخَذَها مني بالحيلة طيلَةَ هذا الوقت، إن هذا خارج إدراك الإنسان.

لم يكن لديَّ وقتٌ للحديث لفترةٍ طويلةٍ مع الكونت. نهضْتُ واتَّجَهْتُ نحو الباب.

أوقَفَني الكونت قائلاً:

ـ اسمع ذلك.. هل يمكن أن يَطْعَنَني أوربينين هذا؟

ـ وهل طَعَنَ أولغا؟

ـ مفهوم، هو... أستغرب فقط من أين جاء! أيّة شياطين حمَلَتْهُ إلى الغابة؟ ولماذا بالذات في هذه الغابة! لنفترض إنه توارى هناك وانتظرنا، ولكن كيف عرف، بأنني سأرغب بالتوقُّف هناك بالضبط، وليس في مكانٍ آخر؟

قلتُ له:

ـ أنت لا تفهم شيئاً، بالمناسبة أطلب منك مرةً وإلى الأبد، فيما

لو أخذتُ القضية على عاتقي، فأرجوك لا تصرِّح لي بتصوّراتك، أتْعِبْ نفسك فقط بالردّ على أسلتي، وليس أكثر.

تركتُ الكونت، وتوجَّهْتُ إلى الغرفة، حيث أُضْجِعَتْ أولغا[1].

أُضيءَ مصباحٌ أزرق صغيرٌ في الغرفة، أنار الوجوه بخفوت.. كان من المستحيل الكتابة والقراءة في ضوئه. وكانت أولغا مستلقية على سريرها، ورأسها في الضمادات، ظهر فقط الأنف الشاحب للغاية، وجفون العيون المغلقة، عندما دلفتُ، كان الصدر في ذلك الوقت عارياً: تمَّ وضْعُ كيس ثلج عليه[2]. إذن أولغا لم تمُتْ بعد. كان طبيبان منشغلَيْن معها. عندما دخلتُ، كان بافل إيفانيش يستمع إلى قلبها، وهو يضيّق عينيه، ويشم وينفخ إلى ما لا نهاية.

كان الطبيب الريفي متعَباً للغاية ويبدو أنه شخصٌ مريضٌ، جلس في أريكة قُرْبَ السرير وتظاهر، وهو مستغرق في التفكير، بأنه يُحصي النبضات. كان الأب إيرميا، قد اختتم توّاً عملَهُ، ويدمدم في الصليب الصدري ويهمّ بالخروج، وقال وهو يتنهّد، وينظر في الزاوية:

ـ لا تحزنوا يا بيوتر يجوريتش، إنها مشيئة الرب، تعوَّذوا بالرب.

---

(1) تم هنا الشطب على سطرين ـ أ. تش

(2) ألفِتُ انتباه القارئ إلى مسألة واحدة. إن كاميشيف الذي يحب التشدُّق عن حالته النفسية في كل مكان، وحتى في وصف مشاجراته مع خادمه بوليكارب لم يتحدّث عن الانطباع الذي تركته عليه هيئة أولغا المحتضرة. أعتقد أن هذا نقصٌ مقصودٌ ـ أ. تش

كان أوربينين يجلس في الزاوية على كرسي بلا مسند. تغيَّرَ إلى حدّ أنني بالكاد تعرَّفْتُ عليه. انعكست البطالة وإدمان الخمر، في الفترة الأخيرة، بقوة على بذلته، كما على مظهره: كانت بذلته رثَّة، واستنفد وجْهُهُ قواه أيضاً.

جلس المسكين من دون حراك، وأسند رأسه على قبضة يديه، من دون أن يُحوّل عينيه عن السرير. ما زالت يداه ووجه ملطّخة بالدم، نسيَ أن يغتسل.

ـ أوه، تنبَّأَتْ روحي وطَيْري المسكين!

حينما كان طيري الأصيل المقتول يصرخ بعبارةٍ بصدد الزوج الذي قتَلَ زوجتَهُ، دائماً يظهر أوربينين في مخيّلتي، لماذا؟ لقد عرفتُ أن الأزواج الذين يَغارون، غالباً ما يقتلون الزوجات الخائنات، وفي الوقت نفسه عرفتُ أن أوربينين لا يقتل الناس. طردْتُ الفكرة عن احتمال أن الزوج هو قاتل أولغا باعتبارها فكرة غير معقولة.

«هو أم ليس هو؟»، طرحتُ على نفسي السؤال، وأنا أرمق وجهه التعيس. وبصراحة، لم أعطِ لنفسي رداً مؤكداً، على الرغم حتى من رواية الكونت، والدم الذي رأيته في يديه وعلى وجهه.

لو كان هو القاتل، لكان قد أزال بالغسل الدم من يديه ووجهه. تذكرتُ عبارة أحد الزملاء المحققين: «إنَّ القاتل لا يتحمّل دَمَ ضحاياه». لو

أردتُ تشغيل دماغي، لتذكرت العديد من مثل هذه العبارات، ولكي ينبغي المُضيّ للأمام وتعبئة رأسي باستنتاجات مسبقة.

توجَّهَ لي الطبيب الريفي وهو أحد معارفي:

ـ احترامي! مسرور للغاية، على الأقل أنتم جئتم. أخبروني من فضلكم مَنْ ربُّ الدار هنا؟

قلتُ له:

ـ لا يوجد هنا رب دار؛ هنا تسود الفوضى.

سعل الطبيب الريفي بسخرية وقال:

ـ العبارة لطيفة للغاية، ولكن مع ذلك لا تحسن الحال، أطلب طوال ثلاث ساعات، وأتوسل أن يعطوني زجاجة نبيذ أو شمبانيا، وعلى الأقل إن أحداً نزل للصلاة! الجميع طرشان مثل الطيور الطرشاء! جاؤوا الآن فقط بالثلج، على الرغم من أنني أمرتُ بجَلْبِه قبل ثلاث ساعات، ما يعني هذا؟ إنسان يحتضر، وكما لو أنهم يضحكون! الكونت في مكتبه يشرب الليكور، وليس بوسعهم إرسال قدح إلى هنا! أردت أن أُرْسِلَ أحداً إلى المدينة، إلى الصيدلية ـ يقولون إن العمل أضنى الخيول، وليس هناك أحدٌ يمكن إرساله، لأن الجميع مخمورون.أريد أن أرسل شخصاً إلى المستشفى الذي أعمل فيه لجلب الأدوية والضمادات من هناك،

فيتفضّلون عليَّ بإرسال رجلٍ مخمور، بالكاد يقف على قدميه..! ومع ذلك أرسلتُهُ قبل ساعتين مضتا، وما هي النتيجة؟ يقولون إنه ذهب الآن فقط! أليست هذه شناعة؟ الجميع مخمورون، أفظاظ، أجلاف! الجميع بُلهاء! أقسم بالرب، لأول مرة في الحياة أرى ناساً قساة القلوب بهذا الشكل.

كان استياء الطبيب وامتعاضه لهما ما يبررهما. لم يبالغ أبداً، بل بالعكس، ومن أجل أن يَصُبَّ المرء ما في قلبه من سخط على الفوضى والشناعة التي كانت في ضيعة الكونت، لا تكفي حتى ليلة كاملة. كانت أخلاق الخدم التي أفسدها الخمول وغياب الرؤساء عليهم، مثيرةً للاشمئزاز. لم يكن هناك خادمٌ لم يستطع أن يكون مثالاً لنمط الإنسان المتخم والمعافى.

ذهبتُ للحصول على النبيذ. بعد أن أعطيتُ ثلاثة أوامر، حصلتُ على كلٍّ من الشمبانيا وقطرات فاليريان، مما أسعد الأطباء بشكلٍ لا يوصف. بعد ساعة[1]، جاء ممرض من المستشفى وجلب معه كل ما يحتاجه الأطباء.

---

(1) ينبغي أن ألفت انتباه القارئ إلى نقطة مهمة أخرى، وهي أن السيد كاميشيف على مدى ساعتين إلى ثلاثة ينشغل فقط بالتنقل من غرفة إلى أخرى، يعرب مع الأطباء عن السخط على الخدم، بالانهيال بالصفعات بلا حدود وغيرها.. هل تجدون فيه محققاً قضائياً؟ من الواضح أنه على غير عجلة من أمره، ويسعى لقتل الوقت بشيءٍ ما. من الواضح «أنه يعرف القاتل». ومن ثم ما وصف أدناه تفتيش العجوز سيجيخا غير المبرر واستجواب الغجر، يشبه الاستهزاء أكثر من الاستجواب، يمكن أن تكون فقط مماطلة للوقت.

وتمكن بافيل إيفانوفيتش من صَبّ ملعقة كبيرة من الشمبانيا في فم أولغا. قامت بحركة ابتلاعٍ وأَنّتْ. ثم قاموا بحقن شيءٍ من قطرات هوفمان تحت جلدها.

صاح الطبيب الريفي، الذي انحنى على أذنها:

ـ أولغا نيكولايفنا، أولغا ني ـ كو ـ لايفنا

وتنهّد بافيل إيفانيتش:

ـ من الصعب التوقُّع بأنها ستستعيد وعيَها! لقد فقدَتْ الكثير من الدم وإلى جانب ذلك ضربة على الرأس باستخدام أداة غير حادّة مصحوبة بارتجاجٍ في الدماغ.

سواء كان هناك ارتجاجٌ أم لا، ليس من شأني أن أقرّر. بيْدَ أنَّ أولغا فتَحَتْ عينيها فقط، وطلبت ماءً. كان للمنشّطات تأثيرٌ عليها.

دفعني بافيل إيفانوفيتش تحت الكوع:

ـ الآن يمكنكم أن تسألوا ما تحتاجونه، اسألوا.

مشيتُ إلى السرير، توجَّهَتْ أولغا لي بتركيزٍ، وسألتْ:

ـ أين أنا؟

وأنشأتُ أسأل:

ـ أولغا نيكولايفنا! هل تعرفينني؟

نظرتْ إليَّ أولغا لبضع ثوان وأغلقت عينيها.

قالت بأنين:

ـ نعم! نعم!

ـ أنا زينوفييف، المحقق القضائي. تشرفْتُ بمعرفتك، هل تتذكّرينني حتى إذا كنتُ وكيلاً لزوجك، في حفل زفافك؟

همست أولغا ومدَّتْ يدَها اليسرى إلى الأمام:

ـ إنه أنت؟ اجلس.

تنهّدَ «شور»:

ـ إنها تهذي!

وواصلتُ أنا:

ـ أنا زينوفييف، المحقق.. إذا كنتِ تتذكّرين، كنت حاضراً في الصيد، كيف تشعرين؟

همس الطبيب القروي لي:

ـ اطرحوا أسئلةً بشأن الموضوع! لا أستطيع أن أضمن أنَّ الوعي سيكون طويلاً.

شعرتُ بعدم الارتياح.

ـ من فضلكم، لا تعلّموني! ـ وواصلتُ موجّهاً خطابي إلى أولغا:

ـ اجتهدوا لتذكُّر أحداث اليوم الجاري، سوف أساعدكم. في الساعة الواحدة بعد الظهر، امتطيتم الحصان، وذهبتم للصيد مع الجماعة، استمر الصيد أربع ساعات، ثم كان التوقف عند حافة الغابة، هل تذكرون؟

ـ وأنتَ... وأنتَ... قتلتَ...

ـ الحجل؟ بعد أن أجهزت على الحجل الذي أصابته طلقة، تغضَّن وجهكم وغادرتم الجماعة، ذهبتم إلى الغابة[1]. الآن اجتهدوا لجمع كل قواكم، وشغّلوا الذاكرة. أثناء المشي في الغابة تعرضتم للهجوم من قِبَل شخصٍ مجهولٍ. أسألكم كمحقّق قضائي، من كان هذا الشخص؟

فتحت أولغا عينيها ونظرت إليّ.

ـ أخبرونا باسم هذا الشخص! هنا، إلى جانبي، هناك ثلاثة أشخاص.

هزت أولغا رأسها بالنفي.

---

(1) إن هذا الانحراف عن سؤال ينطوي على أهمية رئيسية يهدف فقط إلى تمطيط الوقت وانتظار فقدان الوعي حينما لا يكون بميسور أولغا تسمية القاتل. إنه طريقة مميزة والمدهش أن الأطباء لم يعطوه حقه ـ أ. تش

ـ يجب عليكم تسميتُه ـ واصلتُ أنا.

ـ سيلقى عقاباً شديداً؛ القانون سيدفع ثمناً باهظاً على فظائعه! سيذهب إلى الأشغال الشاقة، أنا في الانتظار[1].

ابتسمت أولغا، وهزّت رأسها نفياً. ولم يؤدِّ الاستجواب اللاحق إلى أيّ شيء. ولم أتحصّل من أولغا على كلمة واحدة، ولا حركة واحدة. وفارَقَتْ الحياة في الساعة الخامسة إلا ربع.

ووصل عمدة القرية وشهود التصديق الذين طلبتُ حضورَهم، في الساعة السابعة صباحاً. كان من المستحيل الذهاب إلى مكان الجريمة: فالمطر الذي بدأ ليلاً ما زال يهطل مدراراً. واستحالت البِرَك الصغيرة إلى بحيرات. وبانت السماء الرمادية صارمة، ولم تَعِدْنا بالشمس. ونكَّسَت الأشجار المبلَّلة والرطبة أغصانها بكآبة، وصبَّتْ رذاذاً كبيراً مع كل هبَّة من هبّات الريح. كان من المستحيل الذهاب، وربما لم تكن ضرورة لذلك: فقد اكتسح المطر آثار الجريمة، مثل بُقَع الدم، وآثار الخطوات البشرية، وما إلى ذلك. لكن الشكليّات طالبت بفحص مسرح الجريمة، فأجَّلَتْ هذه الرحلة حتى وصول الشرطة، والآن بدأتُ في وضع مسودّة البروتوكول والاستجواب. بادئ ذي بدء، استجوَبْت الغجر. جلس المغنّون

---

(1)من الوهلة الأولي يبدو كل هذا ساذجا. ومن الواضح أن كاميشيف أراد أن يلمّح لأولغا، عن العواقب الفادحة للقاتل في حال تسميَته. وإذا كان القاتل عزيزا عليها ـ فينبغي ان تصمت ـ أ ـ تش.

الفقراء طوال الليل في الصالات، متوقعين أن يتم إعطاؤهم الخيول لتُوْصِلَهم إلى المحطة. ولكن لم يعطوهم الجياد؛ أرسلهم الخدم إلى الشيطان، محذّرين في نفس الوقت من أن سعادته لم يأمر أحداً «بالدخول» عليه. ولم يعطوهم السماور الذي طلبوه في الصباح. إن هذا الموقف الغريب، والوضع غير المحدد في منزل غريب، حيث يستلقي ميت، وعدم معرفة ساعة المغادرة، والطقس الكئيب الرطب، دفع المساكين الغجر والغجريات إلى الكآبة لدرجة أنهم بين عشية وضحاها فقدوا الوزن وشحبوا. وتسكّعوا من زاوية إلى أخرى، كما لو ألمَّ بهم الخوف أو ينتظرون حُكْما صارماً.

زاد استجوابي من ثِقَلِهم النفسي. أولا، أدّى استجوابي المطوَّل إلى تأخير رحيلهم من المنزل «الملعون» لفترةٍ طويلةٍ، وثانياً، أخافهم. وتخيّل هؤلاء الناس البسطاء، أن هناك شبهات تدور حول تورّطهم في القتل، وراحوا يؤكّدون، والدموع تسيل من عيونهم، أنهم غير مذنبين ولا يعرفون شيئاً. عندما رأت تينا فيَّ مسؤولاً، نسيَتْ تماماً علاقتنا الودّية السابقة، وتحدثت معي، وهي ترتجف وتذوب خوفاً، مثل فتاة تعرَّضّت للجلد. وعلى رجائي لهم بأن لا يقلقوا، وعلى تأكيدي بأني أرى فيهم شهوداً فقط، ومساعدين للعدالة، ردّوا بالإجماع بأنهم لم يكونوا شهوداً أبداً، ولا يعرفون شيئاً، ويأملون أن يخلّصهم اللّه من التعرُّف على القضاة.

سألتهم عن الطريق الذي سلكوه من المحطة، وهل سافروا عبر

الغابة، حيث وقعت جريمة القتل، وما إذا كان أيٌّ منهم قد انفصل عن الجماعة، ولو لفترة قصيرة، وما إذا سمعوا صرخة أولغا التي تمزّق الروح[1]. لم يُسْفِر هذا الاستجواب عن أيّ نتائج. ولخوفهم من هذه الأسئلة، جهَّزَ الغجر زميلين من الجوقة وأرسلوهم إلى القرية لاستئجار عربات. لقد رغِبَ المساكين في مغادرة ضيْعَة الكونت، على جناح السرعة. ولسوء حظّهم نظر أهالي القرية، حيث انتشر خبر الاغتيال في الغابة، بشكلٍ مريبٍ إلى الغجريَّيْن ذوي اللون الأسمر، وبعد اعتقالهما، أحضروهما لي. وفقط عند المساء، تخلَّصَتْ الجوقة المنهَكَة من الكابوس وتنفَّسَت الصعداء، بعد أن استأجرت خمس عربات فلاحيّة بأسعار باهظة وبارَحَتْ منزل الكونت. بعد ذلك، دفعوا لهم أجور حضورهم، ولكن لم يدفع لهم أحد مقابل معاناتهم المعنويّة في قصر الكونت.

بعد استجوابهم، قُمْتُ بتفتيش منزل العجوز سيتشيخا[2]. وجدتُ في صناديقها مختلف ضروب خردة النساء العجائز، وبعد تقليب جميع القبّعات البالية والجوارب التي أُعيد رتْقَها، لم أجِدْ أيَّ أموال أو حاجات ثمينة سَرَقَتْها العجوز من الكونت وضيوفه،

---

(1)لو كان هذا ضرورياً لكاميشيف، أليس من الأسهل استجواب الحوذيين الذين نقلوا الغجر؟ ـ أ. تش.

(2)لماذا؟ لنفترض أن قاضي التحقيق قام بكل ذلك وهو مخمور أو بين النوم واليقظة حينها، لماذا عليه الكتابة عن ذلك؟ أليس من الأفضل إخفاء هذه الأخطاء الفاحشة عن القرّاء.

ولم أجد الأشياء التي كانت قد سُرِقَتْ من تينا الغجرية. من الواضح أن لدى العجوزة سيتشيخا مكانَ تخزين آخر معروفاً لها بمفردها.

أنا لا أقدم هنا البروتوكول الذي قُمْتُ بإعداده، والمعلومات الأوَّليّة والفحص، إنه طويلٌ، وقد نسيته. أعرِضُهُ موجزاً بعبارات عامّة. أولاً وقبل كل شيء، وصفتُ الحالة التي وجدتُ فيها أولغا، ووضعتُ جميع تفاصيل استجوابي لها. من هذا الاستجواب كان من الواضح أن أولغا أعطتني إجاباتٍ متعمدةً، وتعمَّدت إخفاء اسم القاتل عني. لم ترغب في معاقبة القاتل، وهذا يؤدّي حتماً إلى افتراض أن المجرم كان عزيزاً عليها وقريباً منها.

وأعطى فحص الثوب، الذي قُمْتُ به مع رئيس المحلّفين، الذي وصل بعد ذلك بوقت قصير، الكثيرَ. إن البطانة الحريرية لبذلة الصيد التي ارتَدَتْها القتيلة ما زالت مبللةً، وتَشَرَّبَ الجنب الأيمن، حيث هناك فتحات أحْدَثَها الخنجر، بالدم، وعلَّقْتُ عليه في عدّة أماكن خاثرة الدم، وكان نزيف الدم قويّاً، ومن المدهش أن أولغا لم تمُتْ على الفور. والجانب الأيسر كان مغطىً بالدم أيضاً، وتمزّق الساعد الأيسر في الكتف وعند رسغ اليد، وقُطِعَ اثنان من الأزرار العلويّة ولم نجدها أثناء الفحص. وتمَّ العثور على تنورة الصيد، وكانت من صوف الكشمير الأسود، وهي مجعّدة بشكل فظيع: لقد وطئها الرجال بأقدامهم عندما حملوا أولغا من الغابة إلى العربة التي نقلتها، ومن العربة إلى السرير. ثم قاموا بنزعها عن

أولغا، وألقوها تحت السرير بعد أن تجعَّدَتْ بشناعة. كانت ممزّقةً عند الحزام، وعلى الأرجح، حصل هذا المزْقُ الطويل، الذي كان طوله حوالي 8 سم، أثناء الحمل والنقل. وكان من الممكن أيضاً أن يكون ذلك خلال حياتها: يمكن أن تكون أولغا، التي لم ترغب في رَفْوِ تنّورتها، ولا تعرف مِن الممكن إعطاؤها لمن لإصلاحها، قد أخفت هذه الفجوة تحت قفطانها. أعتقد أن هذا لا علاقة له بالجنون الوحشيّ للمجرم، والذي أكَّد عليه الرفيق المدّعي العام لاحقاً في خطابه. كان الجانب الأيمن من الحزام والجيب الأيمن مشبعاً بالدم. وكان المنديل والقفّاز في هذا الجيب بلون الصدأ، وعبارة عن كتلتين لا شكلَ لهما. وتناثرت بُقَعُ الدم بمختلف الأحجام والأشكال في جميع أنحاء التنّورة، من الخصر إلى نهايتها، معظمها كانت طبعات أصابع وراحة دامية، والتي، كما اتَّضَحَ لاحقاً أثناء الاستجواب، تعود إلى الحوذيين والخدم الذين حملوا أولغا. وكان القميص ملطّخاً بالدم، على الأكثر في الجانب الأيمن حيث الثقب الذي نشأ بواسطة أداةِ قَطْع. تماماً كما هو الحال في القميص، كانت في الكَتِف اليسرى وقرب الرسغ فجوات، وكانت أكمام القميص نصف ممزقة.

عثرنا في الملابس على الأشياء التي كانت بحوزة أولغا، مثل: ساعة ذهبية، سلسلة ذهبية طويلة، بروش من الألماس، أقراط، خواتم ومحفظة تحوي عُمْلَة فضيّة، مع الملابس. من

الواضح أن المجرم لم يكن مدفوعاً بقصد السرقة أو أيّ أغراضٍ من هذا القبيل.

أسفرت نتيجة تشريح الجثة الذي أجريتُهُ في اليوم التالي لوفاة أولغا بحضور «شور» والطبيب الريفي، عن وضع بروتوكول طويل جداً، والذي أقدّمه هنا بعبارات عامة: وجد الأطباء عند إجراء فحص خارجي، الإصابات التالية: كان على الرأس، وعلى حدود العظام الصدغية والجدارية اليسرى، جرحٌ يبلغ طوله بوصة ونصف ويخترق العظام، وحوافّ الجرح غير متكافئة وليست مستقيمة، وأصيبت بأداة غير حادّة، ربما، كما قررنا لاحقاً، بشفرة خنجر. على مستوى فقرات الرقبة، ويظهر شريطٌ أحمر يُشبه نصف دائرة، ويلتف حول النصف الخلفي من الرقبة. ولُوحِظَتْ على طول هذا الشريط جروح جلدية وكدمات طفيفة، على اليسار. وعُثِرَ فوق اليد على أربع بقع زرقاء طول كل منها بوصة واحدة: واحدة على ظهر الساعد، والأخرى على راحة اليد. وعلى الأرجح نجمت عن ضغط أصابع، وتم تأكيد هذا الافتراض أيضاً من أن هناك في إحدى البُقَع كشطٌ صغيرٌ نتج عن طريق ظفر. وطبقاً للمكان الذي كانت فيه هذه البُقَع، كما يتذكّر القارئ، كان الكُمّ الأيسر للقفطان ممزّقاً، وقُطِعَ الكُمّ الأيسر للقميص، وكان بين الضلع الرابع والخامس، في الخط الذي تم رسْمُهُ ذهنيّاً من منتصف الإبط إلى أسفل عموديّاً، جُرْحٌ كبيرٌ طُولُهُ بوصة، حوافه مستقيمة، كما لو

كانت مقطّعة، مشبعة بالدم السائل والمتخثر، وجرح عميق بأداة قطع، وكما يتبيّن من المعلومات الأوّلية التي تمَّ جمعُها، بخنجر، عرضُهُ يتوافق تماماً مع حجم الجرح.

أظهر الفحص الداخلي إصابةً في الرئة اليمنى وغشاء الجنب، والتهاب الرئة والنزيف وتجويف غشاء الجنب.

توصَّلَ الأطباء، على ما أذكر، إلى الاستنتاج التالي تقريباً: أ) حدثت الوفاة بسبب نقص الدم، بعد أن فقدت كمية كبيرة من الدم، ويرجع فقدان الدم إلى وجود جرح مفتوح على الجانب الأيمن من الصدر، ب) ينبغي تصنيف جرح الرأس على أنه إصابة خطيرة، ومن دون ريبٍ إن جُرْحَ الصدر مميت، وينبغي الإقرار بأن الأخير هو السبب المباشر للوفاة، ج) حدث جُرْحُ الرأس بأداةٍ غير حادّة، وحدث جُرْحُ الصدر بآلة قطع، وربما أكثر من ذلك، د) لا يمكن أن تكون المتوفّاة هي التي أنزلت الإصابات المذكورة أعلاه، بيدها. وعلى الأرجح، لم تكن هناك محاولة لتلويث شرف المرأة.

لكي لا أضع صورةَ واقعة القتل على الرفّ، وحتى لا أكررها، سأنقل للقارئ على الفور، اللوحة التي رسمتُها في ذهني من الانطباع الأول الذي تَرَكَتْهُ عليَّ الفحوصات، واستجوابان أو ثلاثة، وقراءتي لتقرير تشريح الجثة.

ذهَبَتْ أولغا، التي انفصلت عن الجماعة، للتنزُّه في الغابة.

وفيما غَرِقَتْ في الأحلام، أو استسلمت لأفكار حزينة (يتذكّر القارئ مزاجها في تلك الأمسية المشؤومة)، توغَّلت بعيداً داخل الغابة الكثيفة. ثم التقت بالقاتل، عندما كانت تقف تحت شجرة وهي غارقة بأفكارها، جاء إليها شخصٌ وتحدَّث معها، لم يكن هذا الشخص مريباً، وإلا لكانت نادَتْ من أجل المساعدة، ولكان هذا النداء غير مُمَزِّقٍ للقلوب. بعد التحدث معها، أمسك القاتل ذراعها اليسرى بشدّة، لدرجة أنه مزَّق كُمَّ القميص والقفطان، وترك أثراً على شكل أربع بُقَع. في هذه اللحظة، على الأرجح، قامت بإطلاق تلك الصرخة التي سمِعَتْها الجماعة ـ صرخت من شدة الألم، وربما قرأت على وجه القاتل وفي تحرُّكاتِه، نيَّتَهُ السّيِّئة. وسواء كان يرغب في ألا تصرخ مرةً أخرى، أو ربما تحت تأثير شعور غاضب، قبَضَ بها من صدْرِها بالقرب من الياقة، وكما يتَّضِح من الزرّين العلويين الممزّقين والشريط الأحمر الذي عثر عليه الأطباء على رقبتها. وإذ قبض القاتل على صدرها وهزَّها، سحب السلسلة الذهبية التي كانت حول رقبتها، وأحدث خطّاً مدمىً، من الاحتكاك والضغط من السلسلة. ثم ضربها القاتل على رأسها بأداة غير حادّة، على سبيل المثال، بعصا أو ربما بشفرة الخنجر المعلّق في حزام أولغا. وعندما أصبح متهيّجاً، أو اكتشف أن هذا الجرح وحده لا يكفي، استلَّ الخنجر ودفَعَهُ بقوة في جنب أولغا الأيمن ـ أقول: بقوة، لأن الخنجر كان غير حادّ. هذا هو المشهد القائم للصورة التي كان يحق لي أن أرسمها على

أساس البيانات المذكورة أعلاه. والسؤال مَن كان القاتل لم يكن صعباً وتقرَّر بنفْسِه. أولاً، لم تدفع القاتل أهداف مغرضة، وإنما دوافع أخرى. لم تكن هناك حاجة للاشتباه بأحد المتشردين الذي ضلّوا طريقهم في الغابة، أو الصعاليك الذين كانوا يمارسون الصيد في البحيرة. إن صرخة الضحيّة لم تستطع تجريد السارق من سلاحِه، ونزْع البروش والساعة تستدعي ثانية واحدة.

ثانياً، لم تعلن لي أولغا عمداً عن اسم القاتل، وهو ما كانت تفْعَلُه لو كان القاتل لصّاً عاديّاً. ومن الواضح أن القاتل كان عزيزاً عليها، ولم تكن تريد أن يتعرّض لعقوبة شديدة بسببها، مثل هؤلاء الناس يمكن أن يكونوا والدها المجنون، أو زوجها، الذي لا تُكِنُّ الحبَّ له، والذي شعرت على الأرجح بأنها مذنبةٌ بحقّه، والكونت، الذي، ربما، شعرت بأنها مدينة له...، كان الأب المجنون في مساء يوم القتل، كما شهِدَ الخادم في وقتٍ لاحقٍ، يجلس في منزله في الغابة، وقضى المساء كله يكتب رسالةً إلى رئيس شرطة المنطقة، يطلب منه كبح جماح اللصوص الوهميين، الذين كما لو يحيطون بمنزل المجنون ليلاً ونهاراً... ولم ينفصل الكونت في لحظة الاغتيال عن الجماعة، إن الشَّك يبقي كله يحوم على الزوج التَّعِس وحده. ظهوره المفاجئ، ومظهره، وما إلى ذلك، يمكن أن يكون دليلاً جيداً.

ثالثاً، تشكّلت حياة أولغا مؤخراً من رواية مستمرة. كانت

هذه الرواية من ضرب الروايات التي تنتهي عادةً بالجريمة. زوج عجوز، محِبّ، وخيانة، وغيرة، وضرب، والهروب إلى عشيقها الكونت بعد شهر أو شهرين من الزفاف. وإذا قُتِلَتْ البطلة الجميلة في مثل هذه الرواية، فلا تبحثوا عن اللصوص والمحتالين، ولكن استقصوا أبطال الرواية. ووفقاً لهذه النقطة الثالثة، فإن القاتل ـ البطل المناسب في كل الأحوال هو أوربينين.

لقد قمتُ بالتحقيق الأوَّلي في غرفة الضيوف الفسيفسائية، حيث أحببتُ في يومٍ ما أن أستلقي على الأرائك الناعمة وأكون لطيفاً مع الغجر. أولُ شخص استجوبته كان أوربينين. أحضروه إليَّ من غرفة أولغا، حيث استمر في الجلوس في الزاوية على كرسي، ولم يرفع عينيه عن السرير الفارغ. وقف أمامي، لمدة دقيقة، ولم ينبس ببنت شفة، نظر إليَّ من دون مبالاة، ثم، ربما خمَّنَ أنني قصدتُ أن أتحدث معه بصفتي محققاً قضائياً، تحدث بصوت رجل متعَب ومضطرب:

ـ سيرجي بتروفيتش.. استجوبوا شهوداً آخرين، وأنا بعدهم، لا أستطيع.

اعتبَر أوربينين نفسه شاهداً، أو اعتَقَدَ أننا نتعامل معه بهذه الصفة.

قلت:

ـ كلا، أنا بحاجة لاستجوابك الآن، تجشّموا عناء الجلوس.

جلس أوربينين أمامي ونكَّس رأسه. كان متعباً ومريضاً، وأجاب على أسئلتي على مضض، وأخرجت منه شهادة بصعوبة شديدة.

شهد أنه بيوتر إيجورتش، وأنه نبيل، وله 50 عاماً، ويعتنق الدين الأرثوذكسي. ويمتلك ضيعَةً في المقاطعة المجاورة، حيث خدم عن طريق الانتخاب فكان لمدة 3 سنوات قاضيَ صُلْحٍ مُقَدَّر. وعندما أفلَسَ رهن الضيعة، وفضَّلَ العمل الوظيفي. وباشَرَ العمل كمديرٍ لممتلكات الكونت قبل 6 سنوات. ولكونِهِ يُحِبُّ الزراعة، لم يخجل من العمل لدى أيّ شخصٍ، ويجد أن الحمقى وحدهم يخجلون من العمل. حصل على أجرٍ مقبولٍ من الكونت، وليس ثمة ما يشكو منه. وله ولد وبنت من زواجه الأول، إلخ، إلخ.

تزوج من أولغا لحبّه الشديد لها. كافح طويلاً وبألمٍ مشاعرَهُ، ولكن لم يتمكن العقل السليم، ومنطق العقل العجوز ـ تمنّى التغلُّب على شغفه بأولغا، وتعيَّن عليه الاستسلام للعواطف والزواج منها. وعرف أنها تزوجت منه ليس حباً به، ولكنه رأى أنها تتمتع بأخلاق رفيعة، وقرر أن يرضى فقط بالإخلاص والصداقة، التي كان يأمل بأنها تستحقها.

وعندما بلغ النقطة التي تبدأ بها الخيبة وإهانة الشيب، طلب أوربينين السماح بعدم التطرق إلى «الماضي، الذي سيغفره لها الرب»، أو على الأقل تأجيل الحديث عن ذلك إلى المستقبل.

ـ لا أستطيع، عسيرٌ عليَّ الكلام، علاوة على أنكم رأيتم بأعينكم.

ـ حسناً، لنتركه إلى المرة القادمة. والآن قولوا لي فقط: هل حقاً كنتم تضربون زوجتكم؟ يقولون، ذات مرة، إنكم ضربتموها عندما عثرتم لديها على رسالة من الكونت.

ـ هذا غير صحيح. أنا قبضتُ فقط على يدها، فأجهشَتْ بالبكاء، وولّت هاربةً وهي تشتكي.

ـ هل كنتم على علْمٍ بعلاقتها بالكونت؟

ـ أطلب تأجيل هذا الكلام؛ ما الهدف منه؟

ـ أطلب أن تردّوا لي فقط على سؤال واحد، ينطوي على أهمية كبيرة: هل كنتم على عِلمٍ بعلاقة زوجتكم بالكونت؟

ـ بالطبع.

ـ وهكذا سأكتب، وسأترك الحديث عن القضايا الباقية المتعلّقة بعدم إخلاص زوجتكم إلى المرة القادمة. والآن ننتقل إلى موضوع آخر، وبالذات: أرجوكم أن تفسّروا لي، كيف تواجدتم أمس في الغابة، حيث اغتيلَتْ أولغا نيكولايفنا، فأنتم كما يقولون، كنتم في المدينة، فكيف حدث وأن تواجدتم في الغابة؟

ـ نعم يا سيدي، أنا أعيش في المدينة منذ أن فقدتُ وظيفتي، لدى أختي غير الشقيقة. كنت منخرطاً في البحث عن مكان

عمل، وشربتُ الكحول من شدّة الكرب، شربتُ بشكلٍ خاصّ هذا الشهر. على سبيل المثال لا أتذكر الأسبوع الماضي، على الإطلاق، لأنني كنت أشرب دون انقطاع. أول أمس شربتُ أيضاً؛ باختصار، هلكتُ، ذهبتُ إلى الهاوية بلا رجعة!

ـ أردتم الحديث عن كيف تواجدتم في الغابة أمس.

ـ نعم يا سيدي. صباح أمس استيقظتُ في وقت مبكر، في الساعة الرابعة. كان رأسي يوجعني من سُكْرِ أول أمس، وأشعر بألمٍ في جسدي في كل مكان، كما لو كُنْتُ في حُمّى، وبينما كنت مستلقياً على سريري، رأيتُ من النافذة الشمس تشرق، وتذكَّرْتُ مختَلَف الأمور. أصبَحَتْ الحياة عسيرةً عليَّ، وفجأةً أردْتُ أن أراها، أراها ولو مرةً واحدةً، ربما هي الأخيرة. وتملّكني الغضب والكرب، أخرجتُ من جيبي مئة روبل أرسَلَها لي الكونت، ونظرتُ إليها ورحْتُ أدوس عليها بقدمي. دُسْتُ عليها وقررت الذهاب إليه، ورميَ هذه الصَدَقة في وجهه. فمهما كنتُ جائعاً ورثَّ الثياب، لا يمكنني بَيْعُ شرفي، وأنا أعتبر أيّ محاولةٍ لشرائه إهانةً لشخصيتي. لهذا، سيدي، أردت أن أرى أولغا، وأرمي النقود بوجه هذا الفاسد. واستولت علي هذه الرغبة لدرجة أنني كدتُ أفقد عقلي. ولم يكن لديَّ مالٌ للسفر بعربةٍ من هنا. ولم أستطع إنفاق المئة روبل على نفسي. فذهبتُ سيراً على الأقدام. وفي الطريق صادفتُ فلّاحاً من معارفي أخذني مشكوراً بعربته، ركبتُ معه ثمانية عشر ميلاً، لقاء

قرشٍ واحدٍ، وإلا كنت سأظلّ أسيرُ حتى يومنا هذا. وأنزلني الفلاح في منطقة تينيف. ومن هناك ذهبتُ مشياً على الأقدام، وهكذا وصلتُ في الرابعة.

ـ هل رآك أحدٌ هنا في هذا الوقت؟

ـ نعم سيدي. كان الحارس نيكولاي جالساً عند البوابة، وقال لي إن السادة ليسوا في المنزل وأنهم في الصيد. كنتُ منهكاً من شدّة التعب، لكن الرغبة في رؤية زوجتي كانت أقوى من الوجع. وتعيَّنَ عليَّ الذهاب سيراً على الأقدام إلى المكان الذي يصطادون فيه، دون أن أرتاح ولو لدقيقةٍ واحدةٍ. لم أذهب في الطريق، وإنما توجّهتُ من خلال الغابة، أعرفُ كل شجرةٍ فيها، ومن الصعوبة أن أضلّ الطريق في غابات الكونت، مثلما من الصعوبة أن أضلَّ الطريق في شقتي.

ـ ولكن، أثناء المشي في الغابة، وليس على طول الطريق، كان يمر بكم الصيّادون.

ـ لا يا سيدي، كنت طوال الوقت أبقى بمحاذاة الطريق، لدرجة أنني أتمكّن من سماع ليس الطلقات فحسب، بل المحادثة أيضاً.

ـ إذن، لم تتوقّعوا أن تقابلوا زوجتكم في الغابة؟

تفرَّس أوربينين بي بدهشة، وبعد التفكير قليلاً، أجاب:

ـ السؤال، اعذرني، غريب. لا يمكن للمرء أن يفترض أنه سيلتقي بذئب، ومن المستحيل افتراض المصائب المروّعة، ولا سيما أن الربّ يرسلها فجأة. خُذْ على الأقل هذه الحالة الرهيبة: أنا أمشي عبر غابة شجر الحور، لا أتوقّع أيّ فجيعة، لأن من دون ذلك لديَّ الكثير من الشجون، وبغتةً أسمع صرخةً مروّعةً. كانت الصرخة حادّةً للغاية لدرجة أنه بدا لي أن شخصاً ما زعق في أذني، وركضتُ نحو مكان الصراخ.

التوى فمُ أوربينين إلى الجانب، وارتَعَش ذقنه، ورمشت عيناه وأجهش بالبكاء.

ـ أركض نحو مكان الصراخ وبغتةً أرى... أولغا مستلقيةً. غرِقَ شعرها وجبهتها ووجها بالدم ـ مروّع. شرعتُ بالصراخ، ومناداتها باسمها... إنها لا تتحرك... قبَّلْتُها ورفعتُها.

اختنق أوربينين وغطّى وجهه بكُمِّه، وتابع بعد دقيقة:

ـ لم أرَ الوغد... عندما ركضتُ إليها، سمعت خطواتٍ متعجّلة لشخصٍ ما، على الأرجح قد لاذَ بالفرار.

قلتُ:

ـ كل هذا الكلام مختَلَقٌ بمهارة، يا بيوتر إيجورتش. لكن كما تعلمون، فإن المحققين لا يثقون كثيراً في مثل هذه الصدف النادرة،

مثل تزامن القتل مع نزهتكم العرضية، وما إلى ذلك. إنه اختلاقٌ لا بأس به، لكنه يفسّر القليل جداً.

سأل أوربينين وقد اتسعت عيناه:

ـ بأيّ معنىً؟ كيف يكون اختلاقاً؟ لم أختلق يا سيدي.

تضرّج أوربينين فجأة ونهض وغمغم:

ـ كأنكم تشكّون بي، بلا ريب، يمكن الاشتباه بكل واحد، لكنكم، يا سيرجي بتروفيتش، تعرفونني منذ فترة طويلة. إنها خطيئة بأعناقكم أن تصِمُوني بمثل هذا الشّكّ؛ أنتم تعرفونني بعد كل شيء.

ـ أنا أعرفكم.. هذا صحيح، لكن آرائي الشخصية لا علاقة لها هنا. القانون يوفّر الآراء الشخصية فقط للمحلّفين، ولكن في حوزة المحقّق تكون الأدلّة فقط. هناك العديد من الأدلّة، يا بيوتر إيجورتش.

حدَّقَ أوربينين بي في فزعٍ وهزّ كتفيه، وأردف:

ـ نعم، مهما كانت الأدلة عليكم أن تفهموا... ولكن، هل بوسعي... أنا! وأقتل مَنْ؟! إن قتل سمّان أو حجل ممكن، ولكن إنسان! إنسان أعز عليَّ من الحياة، خلاصي التي أضاء التفكُّر بها وحدهُ، حالتي القاتمة، مثل الشمس، وفجأةً أنتم تشتَبِهون بي!

ولوَّحَ أوربينين بيده وجلس:

ـ في ظل هذه الحالة حتى من دون استجواب، أرغب في الموت، وأنتم علاوة على ذلك تُهينونني! كان من المفهوم لو أن موظفاً غريباً أهانني، أما من جانبكم سيرجي بتروفيتش! دعوني أذهب يا سيدي!

ـ يمكنكم، سأستجوبكم مرةً أخرى غداً، ولكن الآن، يا بيوتر إيجورتش يجب عليَّ أن أضعكم رهن التوقيف. آمُلُ أن تتمكنوا حتى استجواب الغد من تقدير أهمية الأدلة التي ضدّكم، ولا تماطلوا، وتضيعوا الوقت عبثاً، وتعترفوا. أنا مقتنع بأنكم قتلتم أولغا نيكولافنا. لن أخبركم بأي شيء آخر اليوم. يمكنكم الذهاب.

قلت هذا وانحنيتُ إلى الأوراق. نظر أوربينين لي في حَيرةٍ، ونهض وبطريقة غريبة ونشر ذراعيه. وأردف قائلاً:

ـ هل تمزحون أم تتحدثون على محمل الجدّ؟

قلت:

ـ ليس لدينا وإياكم وقتٌ للمزاح. يمكنكم الذهاب.

استمر أوربينين بالوقوف. نظرتُ إليه، كان شاحباً، وتفرَّس في أوراقي في حيرة.

وسألته:

ـ من أين هذا الدم على يديكم يا بيوتر إيجوريتش؟

نظر إلى يديه، التي كانت لا تزال ملوّثةً بالدم، وهزّ أصابعه.

ـ من أين الدم؟ دم... إذا كان هذا هو أحد الأدلة، فهذا دليلٌ سيءٌ؛ عندما رفعتُ أولغا الملطّخة بالدماء، لم يكن بوسعي ألّا ألطّخ يدي بالدم، لم أكن أرتدي قفّازات.

ـ أخبرتموني الآن أنكم صرختم بصوتٍ عالٍ عندما رأيتم زوجتكم، صرختم، وطلبتم المساعدة، لماذا لم يسمع أحدٌ صياحكم؟

ـ لا أعلم، لقد صُعقت من رؤية أولغا، لدرجة أنني لم أستطع الصراخ بصوت عالٍ. ومع ذلك، على أي حال لا أعرف أي شيء، لا أرى حاجةً لتبرئة نفسي، وهذا ليس في قواعدي.

ـ من المشكوك فيه أن تكونوا قد صرختم. بعد أن قتلتم زوجتكم، لُذْتُم بالفرار، وعندما رأيتم الناس على حافة الغابة، ذهلتم بشكلٍ فظيع.

ـ لم ألاحظ ناسكم. لم يكن لديَّ وقتٌ للناس.

وبهذا انتهى استجواب أوربينين هذه المرة. عقب ذلك جرى احتجاز أوربنين وحُبِسَ في أحد أجنحة الكونت.

في اليوم التالي أو الثالث، وصل الرفيق المدعي العام

بولوغرادوف من المدينة.. هو شخصٌ لا أستطيع تذكُّرَهُ دون أن يفسد مزاجي. تصوّروا رجلاً طويلاً ونحيفاً، له حوالي ثلاثون عاماً، حليق بشكل ناعم، ومجعّد الشعر مثل خروف، ومتأنّق في لبسته. وله ملامح وجه رقيقة، ولكنها جافّة وفقيرة المضمون، بحيث يسهل من خلالها تخمين فراغ وبلادة الشخص الموصوف: صوت هادئ، معسول ومهذب بحلاوة مفرطة.

وصل في الصباح الباكر في عربة مستأجرة مع حقيبتين. بادئ ذي بدءٍ، استفسر، بوجهٍ قلِقٍ للغاية ويشكو بتصنُّعٍ من التعب، عمّا إذا كان توجد في منزل الكونت غرفة له. وبناء على أوامري، تم تخصيص غرفة صغيرة، ولكنها مريحة للغاية ومضيئة، حيث وضعوا له كل شيء، بدءاً من مغسلة رخامية وانتهاءً بعود الثقاب.

وفيما استقر في الغرفة واستنشق الهواء بالاشمئزاز، أردف:

ـ اسمعوا، يا عزيزي! جهّزوا لي بعض الماء الدافئ! أقول لكم! ماء دافئ، من فضلكم!

وقبل أن يبدأ العمل، كان يقوم بارتداء ملابسه لوقت طويل ويغتسل، ويمشط شعره. حتى قام بتنظيف أسنانه بمسحوق أحمر، وقلَّمَ أظافره الورديّة الحادة، لمدة ثلاث دقائق. باشر العمل أخيراً، وتصفَّح البروتوكولات التي وضعناها وتوجَّه لي:

ـ ولكن ما الأمر؟

شرحتُ له بالتفصيل ما الأمر، دون أن تفوتني تفصيلةٌ واحدة.

ـ هل كنتم في مكان الجريمة؟

ـ لا، لم أذهب بعد.

قطَّبَ المدّعي العام جبينه، ومرَّرَ يده البيضاء الأنثوية على جبهته المغسولة حديثاً، وذرّع الغرفة، وتمتم:

ـ أنا لا أفهم الأسباب التي حالت دون ذهابكم إلى هناك. كان يجب قبل كل شيء القيام بذلك. هل نسيتم أو رأيتم أن ذلك غير ضروريّ؟

ـ لا هذا ولا ذاك: بالأمس كنت أنتظر الشرطة، واليوم سأذهب.

ـ لم يبقَ شيءٌ الآن هناك: المطر يهطل طيلة هذه الأيام، وقد منحتم للمجرم الوقت لإخفاء الآثار. على الأقل، كان عليك أن تَضَعَ حارساً هناك؟ أليس كذلك؟ أنا لا أفهم!

وهزّ الغندور كتفَيهِ بهيبَة.

قلتُ بلهجة شخصٍ غير مبالٍ:

ـ اشربوا الشاي وإلا ستُصابون بالبرد.

ـ أنا أحبه بارداً.

انحنى الرفيق المدّعي العام على الأوراق، وأزَّ نفَسُهُ في الغرفة

بأكملها، وشرع يقرأ بصوتٍ خافتٍ، ونادراً ما وضع ملاحظاته أو أجرى تصحيحاته. التوى فمُهُ مرةً واحدةً أو مرتين في ابتسامة ساخرة: متحايل[1]، ولسببٍ ما لم يعجبه البروتكول الذي وضعته، ولا بروتكول الأطباء. وبدأ يمارس دور الموظف النظيف والمغتسل، الشخص المدقق في كل شيء والمتحذلق، المفعم بالغرور والشعور بعزّة النفس.

كنا في منتصف النهار في مكان الجريمة. كانت السماء تهطل بمطرٍ غزيرٍ. بالطبع، لم نجد أيَّ بقَعٍ أو آثار: اكتسح المطر كل شيء. بطريقةٍ ما، تمكنتُ من العثور على زِرٍّ مفقودٍ من بذلة الصيد لأولغا المقتولة، كما التقط المدعي العام بعض اللّب الأحمر، والذي تبيَّنَ فيما بعد أنه لفافة تبغ حمراء. في البداية صادفنا شجيرةً كُسِرَ فرعان جانبيان فيها، وفرِحَ الرفيق المدّعي العام بهذه الأغصان: كان يمكن أن يكون المجرم قد كسرها، وبالتالي ستشير إلى الاتجاه الذي كان يسير فيه المجرم، بعد أن قتل أولغا. لكن عبثاً فرِحَ المدعي العام: فسرعان ما عثرنا على شجيرات أخرى ذات أغصان مكسورة ونتف أوراق. اتضح أن الماشية مرَّت عبر مكان الجريمة.

بعد أن رسمنا خطّةً للمنطقة، وسألنا الحوذيين الذين تم

(1)من العبث أن كاميشيف يشتم الرفيق المدّعي العام. إن هذا المدّعي العام مذنبٌ فقط في أن وجهه لم يُعجب السيد كاميشيف. وكان من الأشرف له الاعتراف إمّا بعدم خبرته، أو بالأخطاء التي ارتكبها بشكلٍ متعمّد ـ أ. تش

اصطحابهم معنا حول الوضع الذي تمَّ العثور فيه على أولغا، انقلبنا راجعين، وشعرنا بأننا رجعنا بخيبةٍ مثاليّة. وكان يمكن للمراقب لنا من الخارج، أن يرصد في حركاتنا الكسل والخمول، عندما فحصنا المكان،... ربما كانت حركاتنا مشلولةً جزئيّاً، ومرهونةً بأن المجرم كان في أيدينا، وبالتالي، لم تكن هناك حاجة للانغماس في تحليلات مختبر لوكوكوفسكي.

عندما رجعنا من الغابة، اغتسل بولوغرادوف، واستبدل ملابسه مرةً أخرى لفترة طويلة، وطالب مرةً أخرى بالماء الدافئ. بعد الانتهاء من ارتداء الملابس، أعرب عن رغبته في استجواب أوربينين مرةً أخرى. خلال هذا الاستجواب، لم يصرّح المسكين بيوتر يجوريتش بأي شيء جديد: لا يزال ينكر تورُّطه، ولم يحسب لأدلتنا حساباً.

قال وهو يهزّ كتفَيْه:

ـ أنا مندهشٌ حتى كيف يمكن الشّك بي، غريب!

ـ لا تكن ساذجاً يا عزيزي! ـ قال له بولوغرادوف ـ لن يشتبه أحدٌ عبثاً، وإذا اشتبهوا، فهذا يعني أن لديهم أسباباً لذلك!

ـ أجل، مهما كانت الأسباب، ومهما كانت الأدلة دامغة، لكن عليكم أن تفكّروا بشكلٍ إنسانيٍّ! لا أستطيع القتل، هل تفهمون؟ لا أستطيع، فما قيمة أدلتكم؟

ـ إنَّ ـ لوَّح المدعي العام بيده ـ المشكلة مع هؤلاء المجرمين الأذكياء: يمكن، أن تشرح للفلاح، ولكن اعذروني إذا كنت تتحدث مع هذا! لا أستطيع... إنسانياَ... وعلى هذا النحو يؤثّرون على الحالة النفسية للمحقق!

استاء أوربينين:

ـ أنا لستُ مجرماً، أطلب منكم أن تكونوا أكثر حذراً في تعابيركم.

ـ اخرسوا يا عزيزي! ليس لدينا وقتٌ للاعتذار لكم والاستماع إلى استيائكم. إذا كنتم لا تريدون الاعتراف، فلا تعترفوا.. فقط أنتم تجعلوننا نعتبركم تكذبون.

قال أوربينين متذمراً:

ـ كما تشاءون، يمكنكم الآن أن تفعلوا معي ما تشاءون، السُّلْطَة بيدكم.

ولوَّح أوربينين بيده وتابع، وهو ينظر من النافذة:

ـ على أيِّ حالٍ، الأمر سيان بالنسبة لي: لقد دُمِّرَتْ الحياة.

فقلت:

ـ اسمع يا بيوتر إيجوريتش، أمس، ولليوم الثالث كنتم مصابين

بالحزن لدرجة أنكم بالكاد تستطيعون الوقوف على قدميكم، وبالكاد تنطقون بالردود الموجزة. اليوم، على العكس من ذلك، لديكم مثل هذه الهيئة الزاهرة، بالطبع نسبيّاً، المبتهجة، بل وتنغمرون في التشدُّق. عادةً لا وقت للحديث لدى الأشخاص المكروبين، وأنتم لا تتحدثون فقط لفترة طويلة، ولكن أيضاً تعبّرون عن استياءٍ تافهٍ. كيف تفسّرون مثل هذا التغيير الحادّ؟

وسأل أوربينين ساخراً وهو يزرُّ عينيه:

ـ وأنتم كيف تفسّرون ذلك؟

ـ أشرح ذلك بحقيقة أنكم نسيتم دوركم. من الصعب أن تتصرف لفترة طويلة كممثل: إما أن تنسى الدور، أو تشعر بالملل.

ابتسم أوربينين:

ـ هذا اختلاقُ التحقيق، وهي تدفع للثناء على دهائكم. نعم، أنتم على حق: لقد حدث تغييرٌ كبيرٌ في داخلي.

ـ هل يمكن أن تفسِّره؟

ـ اعذروني، لا أجد من الضروري أن أخبِّئه: أمس كنت محطّماً ومسحوقاً بمصيبتي لدرجة أنني فكرتُ في الانتحار أو الجنون، لكن الليلة غيّرْتُ رأيي. لديَّ فكرة أن الموت أنقذ أوليا من حياة فاسدة، انتزعها من الأيدي القذرة لذلك الطائش، الذي

دمّرني، أنا لا أشعر بالغيرة من الموت: دَعْ أولغا تكُنْ من نصيبِهِ، لا من نصيب الكونت، هذه الفكرة أفرحتني. الآن لا يوجد مثل ذاك الثِّقَل في روحي.

همس بولوجرادف من خلال أسنانه، وهو يؤرجِحُ ساقَهُ:

ـ رواية مختلَقَة بمهارة! إنكم سريعو البديهة وطليقو اللسان، تجدون الردّ المناسب.

ـ أشعر أنني أتكلم بإخلاص، ويدهشني أنكم متعلّمون، وليس بوسعكم تمييز الصدق عن التظاهُر! وعلى كل حال، إن الحكم المسبق هو شعور قوي للغاية، من الصعب عدم الوقوع في الخطأ تحت تأثيره، أفهم وضعكم، وأتخيّل ما سيحدث عندما يصدقون أدلتكم ويشرعون في محاكمتي، أتخيل أنهم سيأخذون في الاعتبار هيئتي الوحشية، وإدماني الخمر، إنَّ مظهري ليس وحشيّاً، لكن الحكم المسبق سيأخذ مجراه.

قال بولوغرادوف وهو ينكَبُّ على الأوراق:

ـ حسناً، حسناً، يكفي، اذهبوا.

بعد مغادرة أوربينين، شرعنا في استجواب الكونت. جاء معاليه للاستجواب في روب وضمادة خلٍّ على رأسه. بعد أن تعارف مع بولوجرادوف، انهار على الكنبة وبدأ في الشهادة:

ـ سأروي لكم كل شيء، منذ البداية. حسناً، ماذا يفعل رئيسكم ليونز الآن؟ هل لم يطلّق زوجته حتى الآن؟ التقيتُهُ بالصدفة في بطرسبورغ وتعرَّفْتُ عليه. أيها السادة، لماذا لا تأمرون بأن يجلبوا لكم المشروب؟ من الممتع أكثر التحدُّث مع الكونياك. ليس لديَّ شكٌّ في أن أوربينين هو الذي اقترف هذا القتل.

وأخبرنا الكونت كل ما هو معروفٌ للقارئ. وبناءً على طلب المدّعي العام، أخبرنا بجميع تفاصيل حياته مع أولغا، ووصف مسرّات العيش مع امرأة جميلة، وشغف بالرواية لدرجةِ أنه تمطّق بشفتَيْهِ عدّة مرّات وغمز عينه. عرفتُ من شهادته تفصيلةً مهمةً للغاية، غير معروفة للقارئ. عرفتُ أن أوربينين، عندما كان يعيش في المدينة، انهال على الكونت باستمرار بالرسائل. في بعض الرسائل صبَّ عليه اللعنات، وفي رسائل أخرى توسَّلَ له أن يعيد له زوجته، وعدَهُ بنسيان كل الضيوم والعار، تمسَّكَ المسكين بهذه الرسائل مثل التعلُّق بقشّة.

بعد استجواب اثنين أو ثلاثة من الحوذيين، تناول مساعد المدعي العام غداءً شهياً، وقرأ عليَّ تعليمات كاملة وغادر. وقبل أن يغادر، ذهب إلى الجناح حيث تمَّ احتجاز السجين أوربينين، وأعلن للأخير أن شكوكنا في ذنبه أصبحت مؤكدة. ولوَّحَ أوربينين بيدِه وطلب الإذن له بحضور جنازة زوجته. وقد سُمِحَ له بذلك.

لم يكذب بولوجرادوف على أوربينين: نعم، أصبح شكّنا

مؤكّداً، كنا مقتنعين بأننا نعرف المجرم، وأنه كان في قبضتنا. لكن مثل هذه الثقة استمرت لدينا لفترة غير طويلة!

ففي صباح أحد الأيام البديعة، عندما أغلقتُ ملفّ التحقيق وختمتُهُ، لإرسال أوربينين معه إلى المدينة، إلى قلعة السجن، سمعتُ ضجيجاً رهيباً. نظرتُ من النافذة، رأيتُ مشهداً مسلّياً: سحب حوالي عشرة من الرجال كوزما الأعور من المطبخ. كان كوزما، شاحباً ومرتبكاً، ارتكز على الأرض بقدميه، وفيما لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه بيديه، ضرب أعداءه برأسه الكبير.

قال لي إيليّا المضطرب:

ـ حضرتكم، من فضلكم تعالوا إلى هنا!

ـ لا يريد الذهاب!

ـ من لا يريد الذهاب؟

ـ القاتل.

ـ أيّ قاتل؟

ـ كوزما، هو الذي قتل، يا سعادة المحقق، وإيجور بتروفتش يكابد ظلماً وجوراً، وحقّ الرب يا سيدي!

خرجتُ إلى الفناء وذهبت إلى المطبخ، حيث كوزما، الذي

كان قد تخلّص من الأيدي الضخمة، وراح يُنزِل الصفعات يميناً ويساراً.

سألتُ، وأنا أقترب من الحشد:

ـ ما الأمر؟

وقالوا لي شيئاً غريباً وغير متوقّع:

ـ سعادتكم، كوزما هو القاتل!

صاح كوزما:

ـ إنهم يكذبون! أقسم بالرب، يكذبون!

ـ ولماذا يا ابن الأبالسة غسلْتَ الدم، إذا كان ضميرُكَ نظيفاً؟ انتظر، إن سعادته سيتحقّق من كل شيء!

لاحظ تريفون الذي كان يقوم بالدوريَّة، وهو يمرُّ بجانب النهر، أن كوزما كان يغسل شيئاً ما بجديَّة. اعتقد تريفون في البداية أنه كان يغسل الثياب، ولكن بعد النظر عن كثب رأى سُتْرة بوديوفكا[1]. بدا الأمر له غريباً: حيث إن الناس لا يغسلون قماش الجوخ.

---

(1)بوديوفكو ـ ملابس روسية علوية طويلة (حتى الركبتين أو أسفلهما) بأكمام طويلة، مقطوعة عند الخصر في الخلف، مع تجمُّع على الظهر، مع طوق الوقوف أو المنعطف. يرتديه الرجال والنساء على حدّ سواء. (المترجم).

صاح به تريفون:

ـ ماذا تفعل؟

ارتبك كوزما. حينما نظر تريفون عن كثب، لاحظ بُقَعاً بُنيَّة على البوديوفكا.

ـ خمنتُ على الفور أنه كان دماً. ذهبت إلى المطبخ وأخبرت الزملاء. وترصّد له هؤلاء ورأوه يجفّف البوديوفكا في الحديقة ليلاً. حسناً، ومن المعروف أنه كان خائفاً. لماذا يغسل إذا لم يكن متّهماً؟ إذن، روحه غير طاهرة، لماذا عليه أن يختفي إذا لم يكن متّهماً؟ فكَّرنا، فكَّرنا، وسحبناه إلى سعادتكم. نسحبُهُ، لكنه يتراجع ويبصق في العيون. لماذا يتراجع إذا لم يكن متّهماً؟

اتضح من الاستجواب اللاحق أن كوزما، ذهب إلى الغابة قبل عملية القتل مباشرةً، حينما كان الكونت يجلس على حافة الغابة مع ضيوفه ويحتسي الشاي. لم يشارك كوزما في نقل جثة أولغا، وبالتالي، لم يكن ملطّخاً بالدم.

لم يستطع كوزما، الذي جاؤوا به إلى غرفتي، في البداية أن ينطق بكلمة من شدة الاضطراب. كان وهو يدور ببياض عينه الوحيدة، يرسم صورة الصليب ويتمتم قسماً بالرب.

قلت له:

ـ اهدأ، وأخبِرْني، وسأتركك تذهب.

خرَّ كوزما عند قدمي، وتلعثَمَ، أنشأ يقسم بالرب:

ـ لأهلك، لو كنتُ من فعل ذلك، أن يهلك والدي وأمي... سعادتكم، ليُهلِك الربُّ روحي!

ـ هل ذهبت إلى الغابة؟

ـ هذا صحيح يا سيدي، ذهبتُ، قدَّمْتُ للسادة الكونياك، ومعذرةً، شربتُ قليلاً، اعتمَلَ في رأسي وأردتُ الاستلقاء وذهبتُ واستلقيتُ وأخذني النوم. ومن قتل وكيف لا أعرف ولا أدري، حقّاً أقول لك!

ـ لماذا غسلت الدم؟

ـ كنت خائفاً من أن تحوم حولي الشبهات، ولكي لا يأخذوني كشاهد.

ـ من أين أتى الدم على البوديوفكا التي كنت ترتديها؟

ـ لا أعرف، يا سعادة المحقق.

ـ كيف لا تعرف؟ بعد كل شيء، البوديوفكا هي لك؟

ـ هذا بالضبط إنها لي، لكن ليس بميسوري أن أعرف: رأيت الدم عندما استيقظت تماماً.

ـ إذن، في الحلم، لُطِّخَتْ البوديوفكا بالدم؟

ـ هكذا بالضبط...

ـ حسناً، اذهب، يا أخي، أعتقد أنت تتفوّه بالهراء. أعتقد، غداً ستقول لي، اذهب.

في اليوم التالي، عندما استيقظتُ، أبلغوني أن كوزما يريد التحدّث معي. أمرتُ بإحضاره. وسألته:

ـ هل انتهيتَ إلى فكرة؟

ـ بالضبط.. توصّلتُ إلى فكرة.

ـ من أين جاء الدم على بوديوفيكتك؟

ـ أنا، يا سعادتك، كما في الحلم أتذكر: شيء كما لو في ضباب، ولكن أكان ذلك حقيقة أم لا، لا أستطيع أن أفهم.

ـ ماذا تتذكّر؟

رفع كوزما عينيه، فكَّرَ قليلاً وقال:

ـ أعجوبة! كما لو، في حلم أو في ضباب، أستلقي على العشب في حالة سُكْرٍ وأغفو، إمّا كنتُ في غفوة، أو في نوم تامّ، فقط أسمع شخصاً يمشي بالقرب مني ويقرع بشدة بأقدامه. أفتح عيني وأرى، كما لو في اللا وعي أو في الحلم: اقترب مني أحد السادة، ينحني ويمسح يديه بأطراف ثيابي، ويمسح بأطراف ثيابي، ثم يمسح يدَهُ بسُتْرَتي... هكذا.

ـ أيُّ نوعٍ من الرجال هذا؟

ـ لا أستطيع أن أعرف، أتذكّر فقط أنه لم يكن فلاحاً، بل سيداً، في بذلة سيد، من هو هذا السيد، وأيّ وجهٍ لديه، لا أتذكره على الإطلاق.

ـ ما هو لون بذلته؟

ـ مَن يعرف! ربما أبيض، أو ربما أسود. أتذكر فقط أنه كان سيّداً، لكنني لا أتذكر أيّ شيءٍ آخر. أوه، نعم، لقد تذكّرت! حينما انحنوا، مسحوا أيديهم وقالوا: «الوغد مخمور!».

ـ هل حلُمْت؟

ـ لا أعرف، ربما كنت أحلم، ولكن من أين أتى الدم؟

ـ هل كان الرجل الذي رأيته يشبه بيوتر إيجوريتش؟

ـ كأنه لم يكن هو أو ربما كان هو! فقط إنهم لم يعتادوا على الشتم بكلمة أوغاد.

ـ اذهب وتَذكّر، اجلس وتذكّر، ربما ستتذكر بطريقةٍ ما.

ـ نعم سمعاً وطاعة.

إن دخول كوزما الأعور غير المتوقع إلى الرواية التي أوشكت على الانتهاء، أحدث ارتباكاً لا يمكن تصوّرُهُ. لقد ارتبكْتُ بشكلٍ

حاسم، ولم أكن أعرف كيف ينبغي عليّ أن أفهم كوزما: لقد نفى مطلقاً، تورُّطَهُ، وكان التحقيق الأوّلي ضدّ اتهامِه: قُتِلَتْ أولغا ليس لمطامع مغرضة، أو الاعتداء على شرفها، ووفقاً للأطباء، «على الأرجح إن هذه الدوافع غير واردة»، فهل يمكن أن يكون كوزما قد قتل، ولم يحقق أيّاً من هذه الأهداف فقط لأنه كان سكراناً للغاية وفقد عقلَهُ، أم كان قد جَبُنَ، وهو ما لم يتطابق مع حالة القتل؟

ولكن إذا لم يكن كوزما متورّطاً، فلماذا لم يفسّر وجود الدم على البوديوفكا؟ ولماذا اختلق الأحلام والهلوسة؟ لماذا تحدَّثَ عن السيد، الذي رآه، وسمعه، لكنه لم يتذكر الكثير منه لدرجة أنه نسيَ لونَ ملابسه؟

جاء بولوغرادوف مرةً أخرى للمنطقة، وقال:

ـ هل ترى يا سيدي! لو فحصتم مكان الجريمة على الفور، فثقوا، لكان الآن كل شيء واضحاً، كما في راحة اليد! ولو استجوبتم جميع الخدم في الحال، لكنا قد عرفنا من كان قد شارك بنقل أولغا نيكولايفنا ومن لم يكن هناك، والآن لا يمكننا حتى تحديد المسافة التي كانت تفصل هذا السّكّير عن مكان الحادث!

بذل جهداً مع كوزما لحوالي ساعتين، لكن الأخير لم يُخبره بأي شيء جديد، قال إنه رأى شخصاً وهو شبه نائم وناعس، وأن هذا الشخص مسح يديه بأطراف ثيابه، وشتمه «وغدٌ مخمور»، ولكن من هو هذا السيد، وما هو وجهه، وملابسه، لم يقُلْ.

ـ كم كمّية الكونياك التي شربتَها؟

ـ شربتُ نصف زجاجة.

ـ بلى، ربما لم يكن كونياك؟

ـ لا يا سيدي، فين.. شمبانيا حقيقية.

ـ أوه، أنت تعرف حتى أسماء النبيذ!.. قال المدعي العام ضاحكاً.

ـ كيف لا أعرف! الحمد للرب، لقد خدمتُ ستة عشر عاماً عند السادة، لقد حان الوقت للتعلُّم.

لسببٍ ما، احتاج الرفيق المدعي العام إلى مواجهة شخصية بين كوزما وأوربينين. نظر كوزما إلى أوربينين لفترة طويلة، وهزَّ رأسَهُ وقال:

ـ لا، لا أتذكر، ربما بيوتر إيجوريتش أو ربما لا، من يدري!

ولوَّح بولوغرادوف بيده وغادر، وترك لي أن أختارَ منهما القاتلَ الحقيقيّ.

استمر التحقيق، وسُجِنَ أوربينين وكوزما في سجن في القرية حيث تقع شقّتي. انهارت معنويات بيوتر بيجوريتش، للغاية. نحُفَ بشدّة وشاب شعرُهُ، وسقط في مزاجٍ دينيٍّ، أرسل لي مرتين طلباً بأن أرسل له قانون العقوبات، من الواضح أنه كان مهتمّاً بفترة العقوبة الوشيكة.

سألني في أحد الاستجوابات:

ـ ما سيحدث لأبنائي؟ لو كنتُ وحيداً، فلن يضعني خطؤكم في كرب، لكن ينبغي عليَّ أن أعيش؛ أعيش للأطفال! سيهلكون من دوني، وأنا لا أستطيع أن أفارقهم! ماذا تفعلون بي؟!

عندما بدأ الحرّاس في قول: «أنت» له، وعندما اضطُرَّ مرتين إلى السَّيْر من قريتي إلى المدينة والعودة تحت الحراسة، على مرأى ومسمع من الناس الذين عرفهم، سقط في اليأس وأصبح عصبيّاً.

ـ هؤلاء ليسوا حقوقيين! ـ صرخ في دار السجن بأكملها ـ هؤلاء صِبْيَة قساة وعديمو القلوب، لا يرحمون الناس ولا الحقيقة! أعرف لماذا أجلس هنا، أعرف! بإلقائهم التهمة عليَّ، يريدون إخفاء الجاني الحقيقي! الكونت هو القاتل، وإذا لم يكن الكونت، فمرتزقةٌ تابعون له!

عندما علِمَ باحتجاز كوزما، كان سعيداً جداً في البداية.

ـ ها هو المرتزق! ـ قال لي ـ ها قد تمّ العثور عليه!

ولكن سرعان ما أصبح حزيناً مرةً أخرى، عندما رأى أننا لم نطلق سراحَهُ، وعندما تمَّ إبلاغ شهادة كوزما له، قال:

ـ الآن أنا هلكت، لقد هلكت تماماً: لكي يفلت من السجن،

هذا الشيطان المعوج، كوزما، سيذكر اسمي عاجلاً أم آجلاً، ويقول إنني أنا مسحتُ يدي بأطراف ثيابه. ولكنهم رأوا أن يدي لم تُمْسَح!

عاجلاً أم آجلاً، كان لا بد أن تتبدّد شكوكنا.

في نهاية نوفمبر من نفس العام، عندما كانت نُتَف الثلج تدور أمام نافذتي، ولاحت البحيرة بيضاء إلى ما لا نهاية، وكأنها صحراء، رغِبَ كوزما في رؤيتي: أرسل لي حارساً ليقول إنه «فكَّر في الأمر». أمرتُ بإحضاره لي.

التقيتُهُ بالقول:

ـ أنا سعيد للغاية لأنك انتهيت إلى فكرة أخيراً، حان الوقت لتَرْك التكتُّم والخداع وتضليلنا مثل أطفال صغار.. ما آخر ما توصّلتَ إليه؟

لم يرُدّ كوزما. وقف في منتصف غرفتي صامتاً، دون أن ترمش عيناه، وتفرَّسَ بي. لمع الخوف بعينيه، وكان له مظهر الرجل الخائف للغاية: كان شاحباً ويرتجف، وتصبَّبَ عرقٌ باردٌ من وجهه، وكررتُ عليه:

ـ حسناً، قُلْ، ما الذي انتهيتَ إليه؟

وقال:

ـ رواية من المستحيل التوصُّل إلى أكثر منها غرابة! بالأمس

تذكرتُ أيّ رابطة عنق كان السيد يرتدي، وفي هذه الليلة أمعنتُ في التفكير فتذكرتُ وجهَهُ.

ـ إذن من كان؟

ابتسم كوزما بشكلٍ مؤلمٍ، ومسح العرق من جبهتِه.

ـ من المريع أن أقول، أرجو من سعادتكم أن تسمحوا لي، بألا أقول ذلك: إنه أمرٌ غريبٌ ومدهشٌ، أعتقد أنني كنت أحلم أو خُيّلَ لي.

ـ ولكن مَن خُيّلَ لك؟

ـ لا، اسمحوا لي ألا أتكلم: إذا تكلمتُ، فستحكمون عليَّ بقسوة، دعوني أفكر وأقول غداً؛ يساورني الخوف.

قلتُ متبرماً:

ـ تفو! لماذا أزعجتَني إذا كنتَ لا تريد التحدث؟ لماذا أتيتَ إلى هنا؟

ـ اعتقدتُ أنني سأتكلم، لكن الأمر مخيف الآن. لا، أرجوُ من سعادتكم أن تَدَعوني أذهب. من الأفضل أن أخبركم غداً. إذا أخبرتكم، فستغضبون عليَّ جداً لدرجة أنني سأحصل على عقابٍ أكثر شدّة من السجن في سيبيريا ـ ستحكمون عليَّ.

سخطتُ وأمرتُ بأخذ كوزما[1]. في مساء نفس اليوم، حتى لا أضيّع الوقت، ولكي نضع حدّاً نهائياً «لقضية القتل» التي شعرتُ منها بالملال، ذهبتُ إلى السجن وخدعتُ أوربينين، حيث أخبرتُهُ أن كوزما اعترف بأنه القاتل.

قال أوربينين وهو يلوّح بيده:

ـ كنت أتوقع هذا، الأمر سيّان بالنسبة لي.

انعكس الحبس الانفرادي بشكلٍ كبيرٍ على صحة أوربينين القوية: شحب لونُه، وفقَدَ ما يقرُب من نصف وزنه. لقد وعدتُهُ بأنني سأصدر أمراً للحرّاس بالسماح له بالتمشّي في الممر خلال النهار وحتى في الليل.

قلتُ:

ـ لا داعي للخوف من أنكم ستفرّون.

شكرني أوربينين، وبعد مغادرتي رأيته يتمشّى في الممر: لم يَعُدْ بابه يُغلَق.

عندما تركتُهُ، طرقتُ الباب الذي كان يجلس خلفه كوزما، وسألته:

---

(1) محقق جيد! بدلًا من الاستمرار في الاستجواب وفرض شهادة مفيدة، أصبح غاضباً ـ وهو احتمالٌ خارج نطاق اختصاص المسؤول. ومع ذلك، ليس لدي ثقة كبيرة في كل هذا. إذا لم يكن السيد كاميشيف يهتم بواجباته، فإن الفضول البشري البسيط كان يجب أن يُجبره على مواصلة الاستجواب. ـ أ.تش 3ص

ـ حسناً، هل انتهيتم إلى فكرة؟

تردَّدَ صوت ضعيف:

ـ لا يا سيدي، دَعْ المدّعي العام يأتي، سأعلنه له، لكنني لن أخبركم.

ـ كما تريد.

في صباح يومٍ آخر، تقرَّرَ كل شيء.

هرع إليَّ الحارس إيجور وأبلغني بأنهم عثروا على كوزما الأعور ميّتاً في سريره. ذهبتُ إلى مكتب السجن وتأكَّدْتُ من ذلك. كان الرجل السليم والطويل، الذي تمتّع أمس بالصحة، واختلق حكايات خرافية مختلفة من أجل الإفراج عنه، جامداً وبارداً كحجر. لن أصف رعبي والحراس: إنه مفهومٌ للقارئ. بالنسبة لي، كان كوزما ثميناً بصفته متّهماً أو شاهداً، وبالنسبة للحرّاس كان السجين الذي يدفعون عن موته أو فراره ثمناً باهظاً. وما زاد قوة رُعْبنا، هو أن التشريح الذي أُجريَ للجثة، أفادَ أنه موتٌ عنيفٌ: مات كوزما نتيجة الخنق. تأكّدتُ بعدها من أنه مات مخنوقاً، بدأتُ أبحث عن الجاني، ولم أبحث عنه فترةً طويلةً؛ كان قريباً.

توجّهتُ إلى زنزانة أوربينين، ولم يكن لديَّ أي قوة لأضبط نفسي، ونسيتُ أنني محقق، ووصفتُهُ بأنه من أكثر أنماط القتلة حدّةً وقسوةً.

قلتُ:

ـ لم يكن ذلك كافياً لكم أيها الوغد، موت زوجتكم التعيسة، لقد احتجتُم أيضاً إلى موت الرجل الذي أثبت تهمتكم! وبعد ذلك ستواصلون مهزلتكم اللصوصية القذرة!

شحبَ أوربينين بشكل رهيب، وتمايَلَ وصرخ وضرب صدرَهُ بقبضَتِه:

ـ أنتم تكذبون!

ـ أنا لا أكذب! لقد ذرفتم دموع التماسيح على أدلّتنا، وسخرتم منا. وكانت هناك لحظات أردتُ فيها أن أصدِّقكم أكثر من الأدلة. أوه! أنتم ممثل جيد! ولكن الآن لن أصدقكم، حتى إذا تدفّق الدم من عيونكم بدلاً من هذه الدموع التمثيلية المزيفة! قولوا هل أنتم قتلتم كوزما؟

ـ إمّا أنكم في حالة سكر وإمّا أنكم تسخرون مني! سيرجي بتروفيتش، إن لكل صبرٍ ورضوخٍ حدوده! لا أستطيع تحمُّل ذلك!

ضرب أوربينين بقبضَتِه على الطاولة، وعيونه تقدح شرراً. واستطردتُ أنا قائلاً:

ـ لم ألتزم أمس بالحذر، وسمحتُ لكم بما لا يُسمح به للسجناء الآخرين: التمشّي في الممر. والآن، وكما لو تقدّمون لي الشكر

والامتنان، ذهبتم ليلاً إلى غرفة كوزما التعيس، وخنقتم شخصاً نائماً! تعرفون أنكم لا تهلكون كوزما وحسب: حيث بسببكم، سيهلك الحراس.

قال أوربينين وهو يمسك برأسه:

ـ ما الذي فعلتُهُ يا إلهي!

ـ هل تريدون أن تعرفوا الدليل؟ اسمحوا لي، كان بابكم، بأمرٍ مني مفتوحاً. فتح الخادم الأحمق الباب ونسيَ إخفاء القفل. جميع الزنازين مقفلة بنفس الأقفال. أخذتم مفتاحكم ليلاً، وخرجتم إلى الممر، فتحتم به باب جاركم، وبعد أن قمتم بخنقه، أغلقتم الباب ووضعتم المفتاح في قفله.

ـ لماذا أقومُ بخَنْقِه؟ لأجل ماذا؟

ـ لأنه ذكر اسمكم. لو لم أخبركم بهذا النبأ أمس، لكان قد بقيَ على قيد الحياة. إنها خطيئةٌ وعارٌ يا بيوتر إيجوريتش!

تحدث القاتل فجأةً بصوتٍ لطيفٍ وناعمٍ وهو يمسك بيدي:

ـ سيرجي بتروفيتش، أيها الشاب! أنتم شخص نزيه وشريف، لا تهلكوا أو تلطّخوا أنفسكم بشكوك غير عادلة واتهامات رعناء! ليس بميسوركم أن تفهموا فقط كيف أن إهانتكم لي قاسية ومؤلمة، من خلال توجيه اتهامٍ جديدٍ لروحي البريئة. أنا شهيد، يا سيرجي

بتروفيتش! اخشوا من إهانة الشهيد! سيأتي وقت يتعيَّن فيه عليكم الاعتذار إليّ، وهذا الوقت قريب. في واقع الأمر لن يتهموني! لكن هذا الاعتذار لن يريحكم. سيكون أفضل إنسانياً لو أنكم بدل الانقضاض عليَّ وإهانتي بشكلٍ فظيعٍ ـ لا أقول بودّية ـ: لقد تخليتم عن علاقتنا الجيدة، أن تسألوني كشاهد وسأكون أكثر إفادةً للعدالة من دور المتّهم. لنأخذ هذا الاتهام الجديد، يمكنني أن أخبرك كثيراً: في الليل لم أنم وسمعت كل شيء.

ـ وماذا سمعت؟

ـ في حوالي الساعة الثانية ليلاً، سادت العتمة، وسمعتُ شخصاً يسير بهدوءٍ في الممر، وتلمَّسَ كل شيء خارج بابي، مشى، مشى، ومن ثم فتح بابي ودخل.

ـ من؟

ـ لا أعرف: كانت عتمة حالكة.. لم أرَه. وقف في زنزانتي لبرهَةٍ وخرج. بالتحديد، على هذا النحو، كما تتحدثون ـ أخرَجَ المفتاح من باب بيتي وأغلق زنزانة الجار. بعد حوالي دقيقتين ترامَى لسمعي شخير، من ثم جَلَبَة. ظننتُ أن الحارس كان يمشي ويُحْدِثُ ضجيجاً، وتصوَّرْتُ الشخير بأن أحدهم يشخر، وإلا كنت سأثير ضجيجاً.

قلتُ له:

ـ هذه خرافات! لا يوجد أحد هنا غيركم يقتل كوزما. كان الحرّاس المناوبون نائمين. وشهدت زوجة أحدهم، التي لم تنم طوال الليل، أن الحراس الثلاثة ناموا طوال الليل، كما لو كانوا أمواتاً، ولم يتركوا أسِرَّتهم ولو لمدة دقيقة، لم يعرف المساكين أن مثل هذه الحيوانات المفترسة توجد في هذا السجن الحقير. إنهم يخدمون هنا منذ أكثر من عشرين عاماً، وخلال هذه المدة لم يكن لديهم حالة هروب واحدة، ناهيك بمثل هذه الخساسة كالقتل. والآن بفضلكم انقلَبَتْ حياتهم رأساً على عقب. وسأحصل أنا على توبيخٍ لعدم إرسالكم إلى قلعة السجن، وإعطائي لكم الحرية هنا للمشي في الممرات. شكراً جزيلاً لكم!

كانت هذه آخر محادثاتي مع أوربينين. لم أتحدّث إليه مرةً أخرى أبداً، باستثناء السؤالين أو الثلاثة التي سألني فيها كشاهد، وهو جالس في قفص الاتهام.

روايتي في العنوان تسمى «جنائية»، والآن، عندما تكون «قضية قتل أولغا أوربينينا» قد تعقّدت بسبب جريمة قتل جديدة، غير مفهومة ويلفُّها الكثير من الغموض في كثيرٍ من النواحي، يحقُّ للقارئ أن ينتظر دخول الرواية المرحلة الأكثر إثارةً وحيويةً. الكشف عن المجرم، ودوافع الجريمة التي تشكِّل مجالاً واسعاً لإظهار مرونة العقل والذكاء. هنا تشنُّ الإرادة الشريرة والماكرة حرباً على المعرفة، حرباً مثيرة في جميع مظاهرها.

لقد خاضت حرباً، ومن حق القارئ أن يتوقع مني وصفاً للوسائل التي أعطتني النصر، وربما ينتظر التحرّيات الدقيقة التي تتألق بها روايات الفرنسي إميل غابوريو وكاتبنا ألكسندر شكلياريفسكي. وأنا على استعدادٍ لأحقق آمال القارئ، ولكن إحدى الشخصيات الرئيسية غادرت ساحة المعركة دون أن تنتظر نهاية المعركة ـ لم يجعلوه مشاركاً في النصر، وذهب سُدَى كلُّ ما فعَلَهُ في وقتٍ سابقٍ ـ وتذهب إلى جمهور المتفرجين. هذه الشخصية هي أنا خادمكم المطيع. في اليوم التالي، بعد المحادثة الموصوفة مع أوربينين، تلقّيتُ دعوةً، أو بالأحرى، أمراً بتقديم الاستقالة. لقد لعِبَ القيل والقال، وثرثرة النمّامة في المقاطعة دورها باستقالتي. لقد ساعد على فصلي أيضاً إلى حدٍّ كبيرٍ حادث القتل في السجن، والشهادة التي أخذها الرفيق المدّعي العام سرّاً عني من الخدم، وإذا تذكَّرَ القارئ، الضربة التي أوقعتُها برأس الفلاح بالمجداب في أحد ليالي الشرب السابقة، فقد أثار ذلك الفلاحُ القضية، وجرى خلطٌ قويٌّ. كان عليَّ في غضون يومين أن أُحيل قضية القتل إلى محقّق الحالات الخاصة.

هبَّت رقابة الادّعاء بأسْرِها على قدميها بفعل القيل والقال والتقارير الصحفية. قام المدّعي العام بزيارة ضيعة الكونت كل يومين وشارك في الاستجواب. تم إرسال بروتوكولات أطبائنا إلى المجلس الطبي وأكثر من ذلك. كان هناك حتى حديثٌ عن حَفْر

القبر ومعاينة الرفات، وإجراء فحوص جديدة، الذي، بالمناسبة، لن يكون قد أدَّى إلى أي شيء جديد.

تم نقل أوربينين إلى مدينة المحافظة مرتين لاختبار قدراته العقلية، ووجدوا في كل مرةٍ أنه شخصٌ سويٌّ. وبدأتُ أظهر كشاهد[1]. تم ولَعُ المحققين الجُدُد بالقضية، إلى درجة أنه حتى بوليكارب كان من بين الشهود.

بعد عامٍ من استقالتي، وعندما كنتُ أعيش في موسكو، تلقّيتُ استدعاءً يدعوني لحضور محاكمة أوربينين. لقد سعدتُ بإتاحة الفرصة لي لأرى مرةً أخرى الأماكن التي جذبتني لاعتيادي عليها، وذهبت. لم يذهب الكونت، الذي كان يعيش حينها في بطرسبورغ، وأرسل شهادةً طبيّةً مكانه.

تمّت المحاكمة في المدينة التي تتبَعُها مقاطعتنا، في قسم محكمة المنطقة. مثَّل الاتهام المدعي العام بولوجرادوف، الذي غسل أسنانه بمسحوق أحمر أربع مرات في اليوم، والدفاع شخص اسمه سميرنايف، وهو شخص أشقر طويل رفيع ذو وجْهٍ عاطفيٍّ، وشعر طويل ناعم. تألَّفَتْ هيئة المحلّفين من ملاك الأراضي والفلاحين. كان فقط أربعة من بين هؤلاء يعرفون القراءة والكتابة،

---

(1) هذا الدور مناسبٌ أكثر للسيد كاميشيف، من دور المحقق: فليس بميسوره أن يكون محققاً في قضية أوربينين ـ أ. تش

بينما البقية، عندما قُدِّمَتْ إليهم رسائل أوربينين إلى زوجته، تصبَّبَ العرق من وجوههم وأُخْرِجوا. وكان رئيس هيئة المحلّفين إيفان ديميانيتش صاحب المتجر، الذي سُمّيَ ببّغائي المتوفَى على اسمه.

عندما دخلتُ قاعة المحكمة، لم أتعرّف على أوربينين: لقد شاب بالكامل، وشاخ بدَنُهُ لعشرين عاماً. توقّعتُ أن أقرأ على وجهه لا مبالاة وخمولاً، وعدم اكتراثه بمصيره، لكن توقعاتي كانت خاطئة، تعامل أوربينين مع المحكمة بحماس: جاء بثلاثة محلّفين، وقدّم تفسيرات طويلة واستجوب الشهود، ونفى بشكل مطلق التهمة الموجهة إليه، واستجوب كل شاهدٍ لم يتحدّث لصالحه، لفترة طويلة.

الشاهد بشيخوتسكي شهِدَ في المحاكمة أنني عاشرتُ الراحلة أولغا.

صاح أوربينين:

ـ إنها كذبة! إنه كذاب! أنا لا أثق بزوجتي، لكنني أثق به!

عندما أدليتُ بشهادتي، سألني محامي الدفاع عن العلاقة التي تربطني بأولغا، وعرَّفَني على شهادة بشيخوتسكي، الذي صفَّقَ لي ذات مرة. لو قلتُ الحقيقة، يعني أنني أشهد لصالح المتهم: فكلما كانت الزوجة فاجرةً أكثر، تساهلت هيئة المحلّفين مع الزوج ـ عطيل ـ فهمْتُ هذا. من ناحية أخرى، فإن كشفي عن الحقيقة

سوف يُهين أوربينين، حينما سيسمعها، سيستشعر ألماً غير قابلٍ للشفاء، اعتقدتُ أنه من الأفضل أنْ أكذب.

قلت:

ـ كلّا!

وصف المدعي العام، في مطالعته، مقتل أولغا بألوان ساطعة، ولفت النظر فيها بشكلٍ خاصّ إلى وحشية القاتل، وشراسته: «رأى الشهواني العجوز المبتذل فتاة جميلة وشابّة، وعرف وضْعَها الفظيع في منزل والدها المجنون، فاستمالها إليه بقطعة خبزٍ وسَكَنٍ وغُرَفٍ ملوَّنة، فوافقت: رجل عجوز ثريّ، على كل حالٍ أفضل من الأب المجنون والفقر. لكنها شابّة، وللشباب أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين، حقوقه الخاصة غير القابلة للتصرُّف. فتاة تربَّت على قراءة الروايات، وعاشت في أحضان الطبيعة، وكان عليها أن تقع في الحب عاجلاً أم آجلاً...»، وهكذا دواليك. واختتم مطالعته بأنه «لم يمنحها شيئاً، سوى شيخوخته والخِرَق الملوَّنَة، وحينما رأى أن الفريسة تُفْلِتُ من يده، استولى عليه غيظُ حيوانٍ قرّبوا من أنفه حديداً ساخناً. لقد أحبَّ بشكلٍ حيوانيٍّ، وعليه أن يكره بحيوانية»، وما إلى ذلك.

وأشار بولوغرادوف، إلى الأساليب اللصوصية، متهماً أوربينين بقتل كوزما، الذي تم التفكير فيه بإمعان وتوازن، والذي أسفر عن

قتل «رجلٍ نائم لم يلتَزِم الحذر شهِدَ ضدَّهُ في اليوم السابق. وأعتقد أنكم لا تشكّون بما كان يريد كوزما قولَهُ للمحقّق بالتحديد ضدَّهُ».

لم يُنْكِر محامي الدفاع سميرنايف تورُّط أوربينين. وطلب فقط الاعتراف بأن أوربينين تصرَّفَ تحت تأثير العواطف، والتساهُل معه. وفي الوقت الذي وصَفَ فيه كيف يمكن أن تكون الغيرة مؤلمةً، ضرب على ذلك مثَلَ عطيل في مسرحية شكسبير. ونظر إلى هذا «النوع البشري العام» بشكلٍ شاملٍ، مستشهِداً باقتباساتٍ من منتقدين مختَلِفين، وتوغَّلَ في المجاهل، التي اضطرَّت رئيس المحكمة إلى إيقافه بملاحظةٍ منه: «إن المحلّفين غير مُلْزَمين بمعرفة الأدب الأجنبي».

واستغلَّ أوربينين كلمَتَهُ الأخيرة بالقول إن الربَّ يشهد على أنه ليس مذنباً بأي فعلٍ أو فِكْر. ومضى بالقول: الأمر سيّان بالنسبة لي، ولا أهتم أين أكون: سواء في هذه المنطقة، حيث كل شيءٍ يُذَكِّرني بخزيٍ لا نستَحِقُه أنا وزوجتي، أو أكون في الأشغال الشاقّة، لكن يُحيّرني مصير أبنائي.

وعندما توجَّه أوربينين إلى الجمهور، أجهش بالبكاء وطلب إيواء أبنائه.

ـ احتَضِنوهم. الكونت لن يُفَوِّت فرصةً للتّباهي بكَرَمِه، لكني حذرتُ الأطفال، بألا يأخذوا منه فتاتاً واحداً.

لاحَظَني بين الجمهور، نظرَ إليَّ وقال بعيون متضرعة:

ـ احموا أبنائي من إحسان الكونت.

يبدو أنه نسيَ الحُكْم اللاحق عليه، واستسلم بكل كيانه للتفكير بالأطفال. وتحدَّثَ عنهم حتى أوقَفَهُ الرئيس.

اجتمعَتْ هيئة المحلّفين لفترةٍ قصيرةٍ، ووجَّهت اتهاماً غير قابلٍ للتميز بحقّ أوربينين، ولم يجرِ التسامح مع أي بندٍ من بنود لائحة الاتهام.

وحُكِمَ عليه بالحرمان من جميع حقوقه السياسية والاجتماعية التي منحتها له الدولة، والنفي مع الأشغال الشاقة لمدة 15 عاماً.

هذا هو الثمن الباهظ الذي كلَّفَهُ إيّاه اللقاء في صباح من شهر مايو مع «الفتاة بالأحمر» الشاعرية.

لقد مضت أكثر من ثماني سنوات على الأحداث الموصوفة. بعض المشاركين في الدراما ماتوا وتعفّنوا بالفعل، والبعض الآخر يُمضون فترات في السجن عقاباً على خطيئتهم، والبعض منهم يعيشون في صراعٍ مع الملل اليومي وينتظرون الموت من يومٍ لآخر.

لقد تغيَّرَ الكثير خلال ثماني سنوات: الكونت كارنييف، الذي ما زال يكن لي شعور الصداقة من صميم قلبه، أصبح سكّيراً

بصورة نهائية. وذهَبَتْ ضيعَتُه، التي كانت مسرحاً للدراما، إلى يد زوجته وبشيخوتسكي. وهو الآن يعيش على حسابي في فقرٍ مدقعٍ. في بعض الأحيان، في المساء، يُحِبُّ وهو مستلقٍ في غرفتي على الأريكة، تذَكُّر الماضي، ويتمتم:

ـ سيكون من اللطيف الاستماع إلى الغجر الآن، دعنا نذهب، يا سيروجا، لشراء كونياك!

لقد تغيرتُ أنا أيضاً. تُبارحني قوّتي تدريجياً، وأشعر أن الصحة والشباب يغادران جسدي. لا توجد مثل هذه القوة الجسدية، ولا البراعة، ولا القدرة على التحمُّل التي تباهيت بها في يوم ما، حينما كنت أبقى مستيقظاً لعدة ليالٍ متتالية وأشرب كمية من الكحول، بالكاد أستطيع أن أتحمّلها الآن.

تظهر التجاعيد على الوجه واحدةً تلو الأخرى، ويتضاءل الشعر، ويصبح الصوت خشناً وضعيفاً: لقد مرّت الحياة!

أتذكر الماضي كأنه يوم أمس. كما في الضباب، أرى أماكن وصور الناس. ليس لديَّ القوة للتعامل معهم بنزاهة. أنا أحبهم وأكرههم بنفس القوة، ولا يمر يومٌ، من خلال الشعور بالسخط أو الكراهية، لا أُمْسِكُ فيه برأسي. ما زلتُ أمقُتْ الكونت، وأولغا المقرِفَة، وكالينين المثير للسخرية من غطرسته الغبية. أنا أعتبر الشر شراً، والخطيئة خطيئة.

ولكن غالباً ما تكون هناك لحظات عندما أشعر، عند النظر إلى الصورة على طاولتي، برغبةٍ لا تُقهر في المشي مع «الفتاة بالأحمر» عبر الغابة تحت حفيف أشجار الصنوبر الطويلة، واحتضانها إلى صدري، بغَضّ النظر عن أيّ شيء. في هذه الدقائق أغفر لكل كذبةٍ وسقوطٍ في الهاوية القذرة، وأنا على استعدادٍ للتسامح مع كل شيءٍ حتى يتكرر جزءٌ من الماضي على الأقل مرةً أخرى. تعبْتُ من الملل في المدينة، أوَدُّ الاستماع إلى زئير عملاق البحيرة والاندفاع على شاطئها في الفجر كنت سأغفر وسأنسى كل شيء للتمشّي مرةً أخرى في دروب الحديقة ومقابلة البستاني فرانتس مع برميل الفودكا وقبعة الفارس. هناك لحظات أكون فيها مستعداً لمصافحة يد بيوتر بيجوريتش الملطَّخة بالدم، والتحدُّث معه عن الدين، والحصاد، والتعليم العام. أوَدّ أن أرى الطبيب «شور» مع نادينكا التي أحبّها.

الحياة مسعورة، موحشة ومضطربة، مثل البحيرة في ليلة من شهر أغسطس/ آب: اختفى العديد من الضحايا إلى الأبد تحت أمواجها المظلمة، هناك رواسب ثقيلة في القاع.

لكن لماذا أُحِبُّها في لحظاتٍ أخرى؟ لماذا أغفر لها وأُسْرِع بها بروحي، مثل الابن الحنون، مثل الطائر الذي أُطْلِقَ من القفص؟

تُذَكّرني الحياة التي أراها الآن من خلال نافذة الفندق الذي أُقيم فيه بدائرة رمادية: لون رمادي ولا ظلال ولا لمحات مشرِقَة.

بيْدَ أنني، أُغْمِضُ عيني وأذكر الماضي، وأرى قوسَ قُزَح، الذي يُنشِئُه الطيف الشمسي. نعم، هناك كانت الحياة عاصفةً، ولكن هناك أكثر إشراقاً.

زينوفييف.

النهاية

في الجزء السفلي من المخطوطة مكتوبٌ:

السيد المحرر المحترم،

أرجو منكم نشر الرواية المقترحة (أو القصة، مهما شئتم)، إن أمكن، بدون اختصاراتٍ أو حذفٍ وإضافاتٍ. ولكن، يمكن إجراء التغييرات بالاتفاق مع المؤلف. في حالة عدم صلاحية النَّصّ للنشر يُرجى الاحتفاظ بالمخطوطة وإعادتها لي. الآن لديَّ «إقامة مؤقّتة» في موسكو، في شارع تفيرسكوي، في فندق «إنجلترا».

إيفان بتروفيتش كاميشيف.

P. S. المكافئة المالية ـ بناءً على تقدير التحرير.

السنة والتاريخ.

الآن، بعد أن عرَّفتُ القارئ برواية كاميشيف، أُكْمِلُ المحادثة التي قاطعتُها معه في المقدمة. بادئ ذي بدءٍ، يجب أن أحذّركم من أن الوعد الذي قطعتُهُ للقارئ في بداية القصة لم يتمّ الوفاء به: لقد تمَّ نشْرُ الرواية بعد القيام بحذف بعض المقاطع من النَّصّ، وليس بأكملها، كما وعدتُ، ولكن أجريتُ اختصاراً كبيراً. الحقيقة هي أنه لم يكن بالإمكان نشر «الدراما في الصيد» في الجريدة، التي جرى الحديث عنها في المقدمة حيث توقفت الصحيفة عن الصدور عندما دخلَتْ المخطوطة إلى الطبع. فيما لم تجد هيئة التحرير، التي وفَّرَت مكاناً لرواية كاميشيف، أيَّ إمكانيةٍ لطباعتها دون حذف. وكانت طوال فترة الطباعة، تُرْسل لي تعديلاً على بعض الفصول وتطالب بـ«التغيير». لم أكن أرغب في تحمُّل خطيئةٍ على عاتقي. وتغيير نصٍّ غريبٍ عليَّ، ووجدتُ أنه من الأفضل والمفيد حذْفُها بالكامل بدلاً من إجراء تغييرٍ على المقاطع غير المريحة. بالاتفاق معي، حذَفَتْ هيئةُ التحرير العديد من المقاطع التي صدمتني بوقاحتها وطولها وعدم الاكتراث في إنجازها من الناحية الأدبية. تطلَّبَتْ هذه الإسقاطات والاقتطاعات الحذَر والوقت، وكانت السبب في تأُخّر نشر العديد من الفصول. بالمناسبة فقد أسقطنا وصْفَ حفلات الخلاعة والمجون الليلية في منزل الكونتِ، وأخرى على البحيرة. وأُسْقِطَ وصفُ مكتبة بوليكارب وطريقته الغريبة في القراءة: وجدنا أن هذا المقطع مطولٌ ومبالغٌ فيه.

الأهم من كل ذلك أنني أزلتُ الفصل الذي كان أكثر ما أثار اشمئزاز المحرّرين، والذي يصف لعبة الورق المستميتة التي احتدمت بين خدم الكونت. كان البستاني فرانتس والمرأة العجوز ـ سيشيخا ـ أكثر اللاعبين اندفاعاً. لعبوا بشكلٍ رئيسيٍّ لعبة «النقر»[1]، و«الأوراق الثلاث»[2]. رأى كاميشيف، الذي مرَّ أثناء التحقيق، بأحد الأجنحة ونظر فيه، لعبةً مجنونةً: لعِبَ فيها سيتشيخا وفرانتس وبشيخوتسكي. لعبوا «النقر» بشكل أعمى، مع رهان 90 كوبيك. ووصلت إلى 30 روبل. وجلس كاميشيف بجانب اللاعبين و«سرقهم» مثلما يتم نتف ريش طيور الحجل. وتوجَّه فرانتس الخسران، الذي رغب في مواصلة اللعب، إلى البحيرة، حيث أخفى أمواله. وتعقب كاميشيف طريقَهُ، وشَخَصَ أين يُخفي أمواله، وسرق البستاني دون أن يترك له قرشاً واحداً. وأعطى المال الذي أخذه للصيّاد ميخا. وميَّزَ هذ الإحسان الغريب بشكلٍ جيّدٍ المحقق غير المتّزن، ولكنه كتب الفصل بشكلٍ عَرَضيٍّ، كما طُعِّمَت محادثات الشركاء بلآلئ اللغة البذيئة التي لم يوافقَ المحررون حتى على إحداث تغييراتٍ عليها.

وأُسْقِطَت العديد من توصيفات اجتماعات أولغا مع كاميشيف،

---

(1) يأتي اسم هذه اللعبة من أن كل لاعب يعلن عن رغبته في اللعب ليس بأي كلمات، ولكن عن طريق النقر بانتظام على الطاولة. (المترجم).

(2) لعبة شعبية قديمة. عادةً ما يُشارك أربعة أشخاص فيها. تتألف شدة اللعب من 28 ورقة ـ يتم سحب السبعات والستات... (المترجم).

وحُذِفَ أحد الأحاديث الصريحة التي جرت مع ناديا كالينينا، إلخ. بيْدَ أنني أعتقد أن ما تمَّ طباعتُه يكفي ليصف بطلي. جلس Sapienti...[1]

بعد ثلاثة أشهر بالضبط، أخبرني حارس التحرير أندريه عن وصول «رجل بقبَّعَة رسمية»، قلت له:

ـ أُدْعُهُ!

جاء كاميشيف، وكان كما قبل ثلاثة أشهر مضرَّج الخدود ومعافىً ووسيماً. خطاه كانت كالسابق خافتة. وضع قبَّعَتَهُ على النافذة بعنايةٍ بحيث يمكن للمرء أن يعتقد أنه كان يضع شيئاً ثقيلاً. ولمع في عينيه الزرقاوين شيءٌ ما طفوليٌّ، ودماثةُ خُلُقٍ لا نهاية لها.

جلس بحذرٍ وبدأ بالحديث مبتسماً:

ـ مرةً أخرى أنا أزعجكم! اعذروني، من أجل الربّ! ولكن؟ ما هو الحكم الذي أصدرتموه على مخطوطتي؟

قلتُ:

ـ اتهام، لكنها تستحق التساهُل.

ضحك كاميشيف وتمخَّطَ في منديلٍ عَبِق.

---

(1)ذكيٌّ بما يكفي

وسألني:

ـ إذن، النفي في نار الموقد؟

ـ لا، لماذا أنتم صارمون للغاية؟ إنها لا تستحق إجراءات عقابية، سنستخدم تدابير إصلاحية.

ـ تحتاج إلى تعديل؟

ـ نعم، بعض الأشياء، بالاتفاق المتبادل.

لُذْنا بالصمت هُنيهَة. نبض قلبي بشدة، ودقَّ في صدغي، ولم يكن في حساباتي التظاهر بأنني قلِقٌ. كررتُ:

ـ بالاتفاق المتبادل، في المرة السابقة أخبرتموني أنكم أخذتم موضوع قصّتكم من حادثة حقيقية.

ـ نعم، والآن أنا على استعداد لتكرار نفس الشيء. إذا كنتم قد قرأتم روايتي، إذن، يشرّفني أن أقدم نفسي: زينوفييف.

ـ إذن، كنتم وكيل عريس أولغا نيكولايفنا؟

ـ وكيل العريس وصديق العائلة. أليس حقاً، أنني لطيفٌ في هذه المخطوطة؟ ـ ضحك كاميشيف، وهو يمسد رُكْبَتَهُ وتضرّج خجلاً ـ جيّد؟ ـ وأضاف ساخراً ـ يمكن لَومُهُ، ولكن ليس ثمّة من يقوم بإعادة تربيتِه.

ـ يا سيدي! أعجبتني قصّتكم: إنها أفضل وأكثر إثارة للاهتمام من العديد من الروايات البوليسية، ولكن فقط يتعيّن علينا أنا وإياكم، وبالاتفاق المتبادل، إجراء بعض التغييرات الجوهرية للغاية.

ـ هذا ممكن. ما الذي على سبيل المثال، ترون ضرورة تغييره؟

ـ habitus[1] الرواية، ووجهها. فيها كما في أي رواية بوليسية، كل شيء موجود: الجريمة، الأدلة، التحقيق، حتى الأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً كإضافة، ولكن الشيء الأكثر أهمية مفقود.

ـ ماذا بالضبط؟

ـ لا يوجد فيها المذنب الحقيقي.

ارتسَمَتْ الدهشة على وجه كاميشيف، واتَّسَعَتْ حدقتا عينيه، ونهض واقفاً، وقال بعد برهةٍ من الصمت:

ـ بصراحة، أنا لا أفهمكم، إذا كنتم لا تعتبرون الشخص الذي طعن وخنق هو الجاني الحقيقي، فعندئذٍ لا أعرف من يكون هو الجاني. بالطبع، المجرم هو نتاج المجتمع، والمجتمع مسؤول، ولكن إذا توسّعتم في الاعتبارات الرفيعة، فأنتم بحاجة إلى الكَفّ عن كتابة الروايات، وإعداد التلخيصات للأفكار الأساسية.

ـ أوه! ما هي الاعتبارات الرفيعة هنا! إن أوربينين لم يقتل!

---

(1) المنظر العام (لاتينية)

ـ كيف؟

وسأل كاميشيف وهو يتحرّك نحوي:

ـ أوربينين ليس هو القاتل؟ يمكن[1] Humanum est errare ـ والمحققون غير مثاليّون: إن المحاكم غالباً ما تخطئ في هذه الدنيا، هل تجدون أننا كنا على خطأ؟

ـ لا، لم تكونوا مخطئين، ولكن رغبتم في ارتكاب الخطأ.

ابتسم كاميشيف:

ـ اعذروني، أنا لا أفهمكم مرةً أخرى، إذا وجدتم أن التحقيق أفضى إلى خطأ، وكما أسعى إلى فهْمِكم، حتى إلى خطأ متعمّد، فسيكون من الطريف معرفة رأيكم. من هو القاتل في رأيكم؟

ـ أنتم!

نظر كاميشيف لي باندهاشٍ، ورُعْبٍ تقريباً، وتضرَّج خجلاً وتراجع خطوةً إلى الوراء. ثم استدار، ومشى إلى النافذة وضحِكَ.

وتمتم، وهو ينفخ على النافذة ويرسم عليها زخارف عليها:

ـ هذا التُّوتُ البرّي!

نظرتُ إلى يده التي ترسم، وخُيّل لي أنني عرفتُ فيها نفس اليد

(1) الخطأ من طبيعة الإنسان (لاتينية)

الحديدية العضلية، التي يمكنها وحدها بدفْعَةٍ واحدةٍ خنْق كوزما النائم، وتمزيق جسد أولغا الضعيف، إن فكرة أنني أرى أمامي قاتلاً ملأت روحي بشعور رعبٍ وخوفٍ غير عاديّ. ليس على نفسي، لا، وإنما عليه، على هذا العملاق الجميل والرشيق، بشكلٍ عام على الإنسان.

وكررتُ:

ـ أنتم قتلتم أولغا وكوزما!

ـ إذا كنتم لا تمزحون، فأنا أهنّئكم على الاكتشاف ـ قال كاميشيف ضاحكاً وهو ما يزال لا ينظر إليَّ ـ ومع ذلك، إذا حكمنا بارتعاش صوتكم وشحوبكم، فمن الصعب القول بأنكم تمزحون. أنتم عصبيّون!

أدار كاميشيف وجهه المتوقّد إليَّ محاولاً الابتسام، وتابع:

ـ من الطريف أن أعرف من أين يمكن أن تكون قد خطرت لكم مثل هذه الفكرة! هل كتبتُ شيئاً ما يُوحي بذلك في روايتي.. هذا طريفٌ وحَقِّ الربّ! أخبروني من فضلكم! يستحق المرء ولو لمرةٍ واحدةٍ في العُمْر، أن يمر بتجربة الشعور بأن هناك من ينظر إليه كقاتل.

فقلتُ:

ـ أنتم هو القاتل، ولا يمكنكم، بل ليس بوسعكم إخفاء ذلك: لقد فشلتم بذلك في الرواية، وحتى الآن أنتم تمثّلون بصورة سيئة.

ـ هذا مثيرٌ للاهتمام، وبكلمة شرفٍ من الممتع الاستماع لكم.

ـ إذا كنتم فضوليّاً، فأصْغوا إليَّ..

قفزتُ وقلقتُ، رُحْتُ أجوب الغرفة، ونظر كاميشيف من الباب وأغلقه بإحكام. وقد أفشى به هذا الحذر.

وسألتُهُ:

ـ مِـمَّ تخافون؟

تنحنح كاميشيف في حرجٍ ولوَّحَ بيده.

ـ لستُ خائفاً من أحد، وإنما أغلقتُ الباب تلقائياً بلا سبب. نظرتُ من الباب، هل أنتم بحاجة له؟ حسناً، أخبروني.

ـ دعني أستجوبك؟

ـ بقدر ما تُريدون.

ـ أحذّركم من أنني لستُ محققاً، ولست ماهراً في الاستجواب، لا تنتظروا مني الأسئلة المنظّمة والمنسّقة، ولذلك اسمحوا ألا تُشَوّشوا وتخلطوا الأمور عليّ. بادئ ذي بدءٍ، قولوا لي، أين اختفيتم بعد مغادرتكم حافة الغابة، حيث أقمتم جلسة شُرْبٍ بعد الصيد؟

ـ القصة تقول: عُدْتُ إلى المنزل.

ـ تم في القصة الشطب بعناية على وصْف طريقكم. هل سِرْتُم عبر نفس تلك الغابة؟

ـ نعم.

ـ وهل يمكن أن تلتقوا هناك مع أولغا؟

ـ نعم، يمكن ـ ابتسم كاميشيف.



ـ التقيتم بها.

ـ لا، لم ألتقِ بها.

ـ أثناء التحقيق نسيتم أن تستجوبوا أحد الشهود المهمّين، ألا وهو نفسكم، هل سمعتم صرخة الضحية؟

ـ لا، لم أسمع. ولكن يا عزيزي، أنتم غير ماهرين في الاستجواب على الإطلاق.

بَعَثَتْ هذه «يا عزيزي» عديمة الكُلْفَة الفزعَ لديَّ: لم تتناسب جيداً مع الاعتذارات والحرج الذي بدَأَتْ به محادثتُنا. وسرعان ما لاحظتُ أن كاميشيف نظر نظرة المتفضّل، بتعالٍ، وكاد يتمتع باللذة بعدم الحذاقة على تخليص نفسي من مجموعة الأسئلة التي كانت تقلقني.

ـ لنَقُلْ أنكم لم تلتقوا بأولغا في الغابة ـ واصلتُ ـ على الرغم

من أنه كان أصعب على أوربينين الالتقاء بأولغا مما كان عليكم، حيث لم يكن أوربينين يعرف أنها كانت في الغابة، وبالتالي لم يبحث عنها، أما أنتم، وكنتم في حالة سُكْرٍ وغضبٍ شديد، لم يكن بميسوركم عدم البحث عنها. على الأرجح كنتم تبحثون عنها؛ وإلا فلماذا كان عليكم الذهاب إلى المنزل عبر الغابة وليس من خلال الطريق. ولكن لنقل أنكم لم تروها، كيف يمكن تفسير مزاجكم القاتم الذي كاد يكون مسعوراً وهائجاً في مساء اليوم المشؤوم؟ ما الذي دفعكم لقتل ببّغاء هتف عن زوجٍ قتل زوجته؟ يبدو لي أنه ذكَّرَكم بعملكم الشرير. استدعوكم في الليل إلى منزل الكونت، وأنتم بدلاً من مباشرة العمل، تباطأتم لمدة يوم كامل تقريباً، حتى وصلت الشرطة، وربما دون أن تلاحظوا ذلك. يتباطأ على هذا النحو، فقط المحققون الذين يعرفون المجرم؛ أنتم تعرفونه. علاوة على ذلك؛ لم تحدّد أولغا اسم القاتل، لأنه كان عزيزاً عليها. لو كان زوجها قاتلاً، لكانت قد سمَّتْهُ. وإذا كانت تشي به لعشيقها ـ الكونت، فإن اتّهامَهُ بالقتل لن يكلّفها أي شيء: لأنها لم تكن تُحِبُّه، ولم يكن عزيزاً عليها. لقد أحبتكم، وكنتم أنتم من كان عزيزاً عليها. لقد رحِمَتْكم. دعني أسألكم أيضاً، لماذا تريّثتم في طرح سؤالٍ مباشرٍ لها عندما استعادت وعيَها للحظة؟ لماذا طرحتم عليها أسئلة غير ذات صلةٍ بموضوع القتل بالمرة؟ دعوني أعتقد أنكم فعلتم كل هذا من أجل المماطلة والتسويف حتى لا تمنحوا لها فرصة ذكر اسمكم. تموت أولغا، في روايتكم، ولم تقولوا في روايتكم كلمةً

واحدةً عن الانطباعات التي تركها موتُها عليكم. هنا أرى تحذيراً: لم تنسوا الكتابة عن الكؤوس التي تشربونها، ولكن يمر في الرواية بشكلٍ عابرٍ، حدثُ مهمٌّ مثل وفاة «الفتاة بالأحمر»! لماذا؟

ـ واصِلوا، واصلوا!

ـ أنتم تُجْرونَ التحقيق بصورة شنيعة! من الصعوبة الافتراض، بأنكم الشخص الذكيّ والماكر للغاية، لم تقوموا بذلك عن قصد. التحقيق بالكامل يُشْبِه رسالةً مكتوبةً عمداً بأخطاء نحوية ـ الشطب المبالغ فيه يخونك. لماذا لم تفحصوا مسرح الجريمة؟ ليس لأنكم نسيتم الأمر أو اعتبرتموه غير مهم، ولكن لأنكم كنتم تنتظرون أن يجرِّفَ المطر آثاركم. أنتم تكتبون القليل عن استجواب الخدم. ونتيجةً لذلك، لم يتمّ استجواب كوزما حتى لاحَظوا أنه يغسل بوديفكا التي كان يرتديها. من الواضح أنكم لم تكونوا بحاجةٍ لإشراكِهِ في القضية. لماذا لم تستجوبوا الضيوف الذين كانوا يشربون معكم على حافة الغابة؟ لقد رأوا أوربينين الملطَّخ بالدماء وسمعوا أولغا تصرخ.. كان يجب أن يتم استجوابهم. لكنكم لم تفعلوا ذلك، لأنه كان من الممكن أن يتذكّر واحدٌ منهم على الأقل أثناء الاستجواب، أنكم وقبل فترةٍ قصيرةٍ من القتل، ذهبتم إلى الغابة وغبتم. لكن لو كان استجوابهم في وقتٍ متأخرٍ، فعلى الأرجح سوف ينسون حتماً هذه الحالة.

ـ براعةٌ وذكاء ـ قال كاميشيف، وهو يفرك يديه ـ استمروا، استمروا!

ـ تُرى كل ما قيل ليس كافياً لكم، لكي أثبت نهائياً بأنكم قتلتم أولغا؟ لا بد من تذكيركم أيضاً بأنكم كنتم عشيقها، العشيق الذي تمَّ استبدالُهُ بشخصٍ تحتقرونه! يمكن للزوج أن يقتل بدافع الغيرة، وأعتقد أن العشيق أيضاً قد يفعل. الآن دعونا ننتقل إلى كوزما: إذا حكمنا من خلال الاستجواب الأخير، الذي حدث عشيّةَ وفاته، فإنه كان يقصدكم، مسحتم يديكم بمعطفه، ووصفتموه بالوغد. إن لم يكن أنتم، فلماذا قطعتم الاستجواب في المكان الأكثر إثارة للاهتمام؟ لماذا لم تسألوه عن لون رابطة عنق القاتل عندما أعلن لكم كوزما أنه يتذكّر لون رابطة العنق هذه؟ لماذا أعطيتم أوربينين الحرية فقط عندما تذكّر كوزما بالفعل اسمَ القاتل؟ لماذا ليس قبل أو بعد؟ من الواضح أنه كان عليكم إلقاء التهمة على شخصٍ ما، فأنتم بحاجة إلى شخصٍ يتمشّى في الممر ليلاً؛ لذا، قتلتم كوزما، خوفاً من أن يتفوّه باسمكم.

ـ لكن، هذا يكفي! ـ قال كاميشيف، ضاحكاً ـ لقد أصبحتم متهيّجين وشحبَ وجْهُكم، وصار من المحتمل أن يُغمى عليكم. لا تُواصِلوا. في الواقع، أنتم على حق: أنا قتلت أولغا.

خيَّمَ صمت. ذرَعتُ الغرفة من الزاوية إلى الزاوية. وقام كاميشيف بالشيء نفسه.

ـ قتلتُ ـ تابع كاميشيف ـ لقد التقطتم السِّرَّ من الذيل.. ويا لسعادتكم. نادراً ما يتسنّى ذلك لأحدٍ: أكثر من نصف قرّائنا سوف يشتمون العجوز أوربينين وسيُدْهِشُهم عقلي كمحقّق.

جاء موظفٌ إلى مكتبي وقاطع محادثتنا. لاحَظَ أني كنت مشغولاً وقلِقاً، استدار هذا الموظف حول مكتبي، ونظر بفضولٍ إلى كاميشيف وغادر. وعندما غادر ذهب كاميشيف إلى النافذة وبدأ ينفخ على الزجاج.

وطفق بعد برهةِ صمتٍ:

ـ مرَّت ثماني سنوات منذ ذلك الحين، وعلى مدى ثماني سنوات حملتُ سرّاً بداخلي. لكن السّرّ والدم الحيّ في الجسم غير متوافقَين، لا يجوز للمرء أن يعرف مع الإفلات من العقاب، ما لا تعرفه بقيّة البشرية. طيلة ثماني سنوات شعرت بأني تعِسٌ ومُعذَّبٌ. ليس ضميري هو الذي عذَّبَني، لا! الضمير يؤنِّب مِن دون أوامر، ولا أهتم به: إنه يخمدُ جيداً، والجدل بصدد موضوعٍ كونه مطاطياً، وعندما لا يعمل عقلي، أُغْرِقُ الضمير بالنبيذ والنساء. إني أحقّق النجاح كالسابق لدى النساء.. هذا فيما يتعلق بالضمير. ولكن هناك شيءٌ آخر يعذّبني: في كل الأوقات بدا لي، من الغريب أن الناس ينظرون إليَّ كشخصٍ عاديٍّ، لم يُلقِ عليَّ كائنٌ حيّ واحدٌ على مدى السنوات الثماني نظرةً ثاقبةً، بدا لي غريباً أنه لم يكن عليَّ الاختباء، في داخلي سِرٌّ رهيبٌ وبغتةً أنا أمشي في الشوارع، وأحضر الولائم، وأكون لطيفاً مع النساء! مثل هذه الحالة غير طبيعية ومؤلمة للمجرم. لم أكن أعاني لو تعيَّنَ عليَّ الاختباء وطَيّ سِرّي. الذُهان يا صديقي! امتلكني في نهاية المطاف ضربٌ من

الغيرة. أردتُ فجأةً أن أُفضي بمكنون قلبي: لن أكترث بالجميع، وسأفشي سرّي للجميع! أردتُ أن أفعل شيئاً مميزاً، فكتبت هذه القصة.. وهو فعلٌ سيكون من الصعب فقط على قصير النظر عدم التعرُّف ـ من خلاله ـ عليَّ كشخصٍ يطوي بجناحيه سرّاً. كل صفحة من الرواية هي مفتاحٌ للحلّ، أليس كذلك؟ أنتم، على ما أعتقد، فهمتم على الفور. عندما كتبتُ أخذتُ في الاعتبار مستوى القارئ العادي.

تمَّتْ مقاطعتُنا مرةً أخرى: جاء أندريه وأحضر كوبَيْن من الشاي على صينية، وسارعتُ بإخراجه.

وضحِكَ كاميشيف ضحكةً ساخرةً:

ـ والآن يبدو أن الأمر أصبح سهلاً، أنتم تنظرون الآن لي كما لو إلى إنسانٍ عاديٍّ، كما لو إلى إنسانٍ لديه سِرّ، وأشعر أنني في وضعٍ طبيعيٍّ. ولكن، مرَّت ثلاث ساعاتٍ، وينتظرونني في الحنطور.

ـ تريّثوا من فضلكم، في ارتداء قبّعتكم! لقد أخبرتموني عما دفعكم إلى التأليف، أخبِروني الآن: كيف قتلتم؟

ـ هل ترغبون في معرفةٍ بالإضافة إلى ما قرأتَهُ؟ اسمحوا لي! قتلتُ تحت تأثير انفعالٍ عاطفيٍّ. الآن، يدخّن الناس ويشربون الشاي تحت تأثير الانفعال العاطفي. أنتم جرّاء تهيُّجكم، أخذتم كوبي بدلاً من كوبكم، وتدخّنون أكثر من المعتاد. إن الحياة انفعالٌ

عاطفيٌّ دائم، كما يبدو لي. عندما دخلتُ إلى الغابة، كنت بعيداً عن فكرة القتل، ذهبتُ إلى هناك لغرضٍ واحدٍ فقط: العثور على أولغا والاستمرار في لدْغِها. عندما أكون في حالة سُكْر، تظهر لديَّ حاجةٌ دائماً إلى اللدغ. قابلتُها على بعد مئتي خطوة من حافة الغابة، وَقفتُ تحت شجرة، وتطلَّعْتُ بتمعُّنٍ إلى السماء. ناديتُها، وعند رؤيتي، ابتسَمَتْ ومدتْ يديها لي.

ـ لا توبّخني، أنا غير سعيدة! ـ قالت.

في ذلك المساء كانت حسناء للغاية لدرجة أنني، في حالة سُكْرٍ، نسيتُ كل شيءٍ في العالم واحتضنتُها بين ذراعيّ. بدأتْ تُقسم لي أنها لم تحب أيّ شخصٍ سواي، وكان هذا بحَقّ: لقد أحبَّتْني. وفي ذروة القَسَم، خطر لها فجأةً أن تقول عبارةً مقززةً: «كم أنا غير سعيدة! لو لم أتزوج من أوربينين لكان بميسوري أن أتزوّج من الكونت الآن» ـ ثبَّطَتْ هذه العبارة حماسي. كلُّ شيءٍ بات يغلي في وجداني، وفي صدري يغور. لقد استحوذ عليَّ شعورٌ بالاشمئزاز والقرف! أمسكتُ المخلوق الصغير والشنيع من الكَتِف ورميتُهُ على الأرض، مثلما يرمون بكرَةً. بلغ غضبي أقصاه، ولكن... وأجهزتُ عليها... قُمْتُ بالإجهاز عليها... القصة مع كوزما واضحة لكم.

تفرَّسْتُ بكاميشيف. لم اقرأ على وجهه أي ندمٍ أو أسف. «قُمْتُ بالإجهاز عليها» ـ قالها بسهولة كما يقول: «قُمْتُ

بالتدخين». بدوري، انتابني شعورٌ بالغضب والقرف! استدرتُ، وسألتُهُ بخفوت:

ـ هل أوربينين هناك، في الأشغال الشاقّة؟

ـ نعم. يقولون إنه مات على الطريق، لكنه غير معلوم. وماذا؟

ـ وماذا! إنسان بريء يُعاني، وتسألون: «وماذا؟».

ـ ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أذهب وأعترف؟

ـ من رأيي، نعم.

ـ حسناً، دعنا نفترض ذلك! أنا لا أرفض أن أحلَّ محل أوربينين، لكنني لن أستسلم بدون كفاح. دعْهُم يأخذوني إذا أرادوا، لكنني بنفسي لن أذهب إليهم. لماذا لم يأخذوني عندما كنتُ بيَدِهم؟ في جنازة أولغا، أجهشتُ ببكاءٍ شديدٍ وتعرَّضْتُ لنوبة هستيريا، لدرجة أنه حتى المكفوفين يمكنهم رؤية الحقيقة. ليس ذنبي أنهم أغبياء.

قلتُ:

ـ أنتم مُقزّزون!

ـ هذا طبيعي، وأنا مقززٌ لنفسي.

خيَّمَ الصمت. فتحتُ السجل وبدأت أقرأ الأرقام ميكانيكياً. رفع كاميشيف قُبَعَتَهُ.

وقال:

ـ أرى أنكم تشعرون بالاختناق من وجودي، بالمناسبة: هل ترغبون في رؤية الكونت كارنييف؟ ها هو جالسٌ في الحد طور!

ذهبتُ إلى النافذة ونظرتُ إليه، جلس في العربة وقفاه نحونا: شخصٌ صغيرٌ مُنحنٍ في قبّعَة مهترئة وياقة رثَّة. كان من الصعب التعرُّف عليه كمشارك في الدراما!

قال كاميشيف:

ـ عرفتُ أن ابن أوربينين يعيش في موسكو ويقيم في غرف أندرييف، أريد أن أرتّب بطريقةٍ ما ليقبَلَ الكونت منه صدقةً. فليُعاقَب واحدٌ على الأقل! ولكن، مع ذلك، وداعاً!

أومأ كاميشيف برأسه وغادر بسرعة. جلستُ على الطاولة وانغمستُ في أفكار مريرة.. شعرتُ بالاختناق.

1884

في روايته البوليسيَّة "دراما في الصّيْد" لا يكتفي تشيخوف بتصوير الجريمة، بل يُحاوِلُ القبضَ على الجذور الفلسفية والاجتماعية للجريمة، مؤكِّداً أنَّ المجرمَ لا ينفكُّ عن المجتمع الذي خَلَقَهُ.

تحتفي الرواية بِسمات تشيخوف الحقيقي: نظرته الرصينة للإنسان، وسيكولوجيّته القاسية، وتقديس العقل الذي يرفض الابتذال. فالإنسان الإيجابيُّ هو الإنسان الفاعل، الذي يُمَثِّلُهُ كلُّ مَنْ يكدَحُ لإنتاجِ الحياة، لذلك يتمّتع هذا الإنسان، مهما كان بسيطاً، بحَقّ ازدراء "الأسياد" الذين يُفَرِّطون في جهود الآخرين.

يُضْفي تشيخوف على بطلاتِه، طبْعاً حيويّاً ومعقّداً، فلا تتحكم إرادة الكاتب بتصرُّفاتِهن، وإنما تنْبُع من رغباتِهن وتطلُّعاتِهن الداخلية، فلا يسوقُهن القَدَرُ الأعمى إلى المأساة، بل أولئك البشر المعطوبون روحيّاً.



ISBN 978-9-9226434-4-1